حجرُ الكُحْل

محمود توفيق

الطبعة الأولى

1441 هـ / 2020 م

اسم الكتـــاب: حجر الكحل

المـــؤلــــف: محمود توفيق

موضوع الكتاب: رواية

المراجعة اللغوية: عبدالقادر أمين

عدد الصفحات: 238 صفحة

عدد المــــلازم: 15 ملزمة

مقاس الكتـاب: 14 x 21

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقــم الإيـــداع: 23982 /2019

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 773-8 :ISBN

التوزيع والنشر:



القاهرة - جمهورية مصر العربية

هاتف: 01012355714 - 01152806533

E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

حجرُ الكُحْل

رواية

محمود توفيق



الفصلُ الأوّل

هي وطفلُها على السّرير يعتصرهما الحزنُ والقلق، وإحساسٌ ثقيلٌ بالهمِّ يجثُم على الصدر، ذبالة المصباحِ كانت على الأرض أسفلَ منهما، صنعتْ لهما من الخلف ظلًّا واحدًا كَبيرًا، مدَّ الظل المأتمي نفسَه على الحائط، وانكسر على جزءٍ من السّقف، منكفئًا عليهما انكفاءً متابعًا مهيبًا، ريحٌ خارجيةٌ لعبتْ بورق شجرة الرّمان القريبة من النافذة الموارَبة، سمع الولد وأمّه حفيفَ ورق الشجرة، كأنه وقع قدمي قاتلٍ يتسلّل، اقتحمت الريحُ الحجرة، اهتزَّ لهبُ المصباح مع الرّيح، فاهتزّ الظِّلّ- أيضًا- على الحائط والسّقف، وتبدَّل حاله، إنّه الآن كروحٍ مضطربةٍ مذعورةٍ تكافح لتهرب من مكانٍ تُقرأ فيها العزائم، نظرَ عاصمٌ للظلِّ المضطرب، ارتجف قلبُه الصغير، مدَّ شفتَه السفلى، همس في أذن أمّه بأنّه خائفٌ، نظرتْ للظلِّ ثمّ وضعتْ رأس ولدها على صدرها، وقالت وأنا أيضًا.

لهذين المرعوبين قصّة نُسِجت خيوطُها في زمنٍ غير الزّمن، ومكانٍ غير المكان؛ بأحداثٍ فرضتْ نفسَها كما تفرض ريحٌ سريعةٌ عنيفةٌ وجودَها مرةً واحدة، وتترك بعد هدوئها أثرًا مستمرًّا لا ينقضي.

أنا لستُ في طريقي للملمّة الأحزان والمخاوف والمظالم وشظايا الماضي الجارحة، إنّما ذاهب هذه المرَّة كي أتنفّس شيئًا حارًّا يعتملُ في صدري يلحُّ على الخروج، أنا في الطّريق إلى المكان حيث كانا، والمكان سردابٌ إلى الماضي، وأرقّ أرواح الموتى، أحثُّ الخطى على الرّمل، لا شيء معي للنجدة؛ قد ماتا منذُ زمنٍ طويلٍ، حسنًا.. سأكتب، حتّى أغلق النّافذة المواربة في وجْه الريح فترتاحَ كلّ روحٍ قلقة.

اليومَ أنا في طريقي إلى بلدتي مسقَطِ رأسي التي لا أزورها إلّا كلّ عامين أو ثلاثة، بعد ارتحال الأسرة للقاهرة، أزورها هذا العام في مَوسِم الشِّتاء صاحبِ العلامات الذي يغسِل الصَّحْراء ويُطفئ فَيْحها، ويُسكِن غُبارها، ويزيِّنها بالأخضر، ويعطيها نَفَسًا جميلًا؛ ستكون بشوشةً كما عهدتها في كلّ شتاءٍ، وبشاشة بلدتنا، وكلّ بلدات الصّحراء فيها شيءٌ من حزنٍ وحشمة، وابتسامتها كابتسامة مَن يمسح دمعَه مسامحًا.

نحن عُربانٌ، انتقلَ أجدادنا إلى هذا الوادي منذُ ما يزيد عن مائتي عام، جاءوا مرتحلين من سيناء في أيّام جَدْبٍ خاصمتْ فيها السُّحُب باديَتَهم فلم تنبُتِ الحشائش، فكادتِ القُطْعانُ تهلِك، فكان أنْ هَاجَر البعضُ إلى هذه النَّاحية هربًا إلى ماءٍ ومرْعى.

بلدُنا اسمه نَجْع (**مفلح**)، ومفلحُ هو الجدُّ الأكبر الذي جاء بأبنائه وحَفَدَته، وبنوا بيوتًا من الحجارة واللَّبِن، وتركوا سُكنَى الخِيَام، وبجانب الرَّعي وحراسة القوافل بدؤوا يمتهِنون الفِلاحة والتِّجارة وغيرها من أسباب الرِّزق.

لسْنا من أهل البوادي المنقطعة عن حياةِ الحضر انقطاعًا تامًّا، نحن على حيرةٍ بين عالمين، على مَقرُبةٍ من الرِّيف، يفصِلنا عنه نصف مِيلٍ من الرمل وترعةٌ هناك، شغلني التّحديق في هذه الترعة كثيرًا في طفولتي، وكنت أعجبُ من كوْن ساحليها مختلفان، من ناحيتنا رمليٌّ ومن الناحية الأخرى

ترابيٌّ، ولقد أخذ منها أجدادنا مصرفًا مائيًّا يمرُّ عَبر أُنبوب من الفَخَّار تحت الدَّرب الرَّمليِّ المُساحل للتُّرْعة من ناحيتنا، ويظهر بعدَ هذا في ممرٍّ بين تلالٍ من الرِّمال والصُّخور؛ ويلتوي ذاك الممرُّ يَمْنَةً ويَسْرَة، ويضيق ويتَّسع حسبما شكَّلته تضاريسُ الصَّحْراء. وينزل المصرِف مع الممرِّ رُوَيدًا رُوَيدًا إلى أن يصبَّ في سَفْح وادي مفلح وزراعاته، ويروي في الوادي قُرابة الثَّمانين فدَّانًا من أشجار الزَّيتون والموالح وبساتين العنب وكروم النَّخيل. وتنمو على جانبي المَصرِف في هذا الممرِّ رقعٌ من الحشائش والأعشاب البرِّية وبعضُ الشُجَيرات الرَّعويَّة وشيءٌ من طلح قليل. وهذا الممرُّ هو الحِمَى الذي ترعَى فيه بهائمنا، ولا يُرَى فيه إنسيٌّ صاعدًا أو هابطًا إلَّا راعياتنا يهششْن على قطعانهنَّ ويناديننها. وعلى المدخل الضيِّق للممرِّ قُبالة التّرعة سياجٌ من نباتات تينٍ شَوْكيٍّ متداخلة، وقد تساقطتْ بعضُ أوراقها مصفرَّةً وجافَّةً كأنّها الخشب، وهي لا تحجُب النَّظر، ولا تمنَع التَّسلُّل، غير أنّها تبدو كترسيم للحدود يُنذِر المتطفِّلين والعابثين.

تركتُ المرعى عن يساري، وصوتُ راعية تسوس أغنامها يأتيني مثل الوشوشة، وهذا وهمٌ في ساعة الفجر؛ حيث لم تسرح القطعان بعْد، ربّما كنت أفكِّر في راعيةٍ ما كانت هناك في المرعى وظهرها للتّرعة والساحل، راعيةٍ لم تستدر في اللحظة النادرة.

ومضيت ذاهلًا من حنينِ الطفولة على السّاحل الرَّمليِّ، وهذا هو (**المِطْلَع**) عن يساري، بلا علامةٍ تدلُّ عليه غيره هو نفسه؛ فقد مهَّدته العربات والأقدام، أرتقي على المطلع، أرمي نظراتٍ مطوَّلةً على هذه المِصطَبة الغبراء من الطّوب اللَّبِن بعيدًا قليلًا عنْ يمين المطلع، والتي جعلتْ مواسمُ الأمطار المتعاقبة من لَبِناتها لَبِنةً واحدةً كبيرةً قاسية. هذه المرَّة قد غطَّتِ الرِّمال جوانبها، ولا يظهر إلَّا سطحُها. كلّ مرَّةٍ كنّا نتابع بحماسٍ زحْفَ الرّمل عليها، ونتمنَّى أنْ ينهال ويزحف أكثرَ حتّى يطمِسها

مصطَبة القتيل هذه التي نتشاءم منها، كلّما أوشكتْ أن تختفي تحتَ الرّمل نكثت الرّيح غزلها وحملت الرمل بعيدًا عنها في ذلك المشهد الدوريّ الغريب، عندما تعلوها زوبعةٌ وتصنع فوقها دوّاماتٍ هوائيَّةً عنيفة، وما أنْ يختفي مخروط الزّوبعة الرهيب، حتّى تنكشف مصطَبة القتيل تمامًا مثلما كانت، ولا أفسِّر عدم تصعيدِ الأمر وعقدَ العزم على هدمها واكتفاءنا بتجنُّب النَّظر إليها، إلَّا بأنّ للأشياء إذا ما دامت في مقرِّها إلى أمدٍ طويلٍ روحًا تتلبَّسها؛ فيصبح إفناؤها محفوفًا بالخطر. على أيّة حال، هي اليومَ غائصةٌ في هدوءٍ في الرّمل تحت قطرات المطر التي بدأت في النزول.

معالمُ على الطّريق هي جزء من القصّة، المرعى والترعة والمطلع والمصطبة، وكذلك الكثيب الذي يقف أمامي، والذي يتفرَّع المطلع قبلَه فرعين. أمرُّ في هذا الفَرْع من المطلع الذي عن يسار الكثيب والصَّاعد إلى النجع، أطَّلع إلى وادينا المختبئ، لم يظهرْ لي إلَّا دفعةً واحدة؛ وعدت بظهري للوراء خطوةً خلف خطوة، بدا لي الوادي وكأنّه يهبط في باطن الأرض حتّى اختفى. ولا يكاد أحدٌ من الغرباء يصدِّق أنّ هناك حياةً خلفَ هذا الكثيب الذي ينتصب أمامه كظهر حوتٍ فوق الماء، حتّى إذا تنصَّت إلى صياح الأطفال وأصوات الحيوانات منبعثةً من الوادي تأتيه خافتة، سيشكُّ في أنّها ربما تكون هلاوسَ سمْع، أو يتوهَّم أنّ قدميه تسحبانه إلى قريةٍ من قرى الجنِّ.

ظهرَ لي وادي مفلح بخُضرته وجَماله الصَّحراويِّ والرِّيفيِّ في آنٍ واحد، وهذه المعصرةِ العتيقة؛ قريبًا من عنقِ الوادي، والتي يبدأ مِن بينها في الوادي وبين الكثيب أعلى الوادي دربُ القوافل القديم الذي كان

ينزل إلى ما كانت تُعرَف بـ (**محَلَّة هارون**)؛ لم تعدْ ترتاده القوافلُ مثل عهده الأوَّل، انتهَى عهدُه، فقط يمرُّ فيه شبابنا في بعض أيّام الجُمَع على جِمالٍ وحَمير، متَّجهين بوجوههم الفخَّاريَّة، ومرتدينَ قميص البرازيل للعب كرةِ القدم مع البلدة التي عُمِّرتْ هناك، في ملعبها الواقع عند أوَّل الصَّحْراء من ناحيتها، أو يفدُ إلينا شبابُ هذه البلدة على عربة نقلٍ قديمةٍ تطلق دخانًا أسود كثيفًا بقميص ألمانيا.

هذه المعصرة العتيقة هي أوَّل ما يلفِتُ نظرَ النَّازلين إلى الوادي؛ لقد كانت معصرة زيتونٍ قديمًا، إلَّا أن زمنَها ولَّى، وعلِق بها اسمُها كمعصرة؛ صارت منذ عهدٍ بعيدٍ مخزنًا تُشَوَّن فيه أجولة الغلال وما عداها، بينما حجر الرَّحَى الضَّخم يقف مهمومًا ساهمًا وقد علاه السُّخام، قد مرَّ بصدمةٍ عنيفةٍ لم يبرأ من آثارها رغمَ مرور السنين، شاعرًا بغُربةٍ عميقةٍ عمَّا يزاحمه في بيته القديم، يئنُّ من وطأة الذِّكريات وتصاريف الدَّهر.

المطرُ فوقي يغسلني، والمطر هنا أيضًا أمامي، اشتدَّ على هذه المعصرة المكشوف بعض سقفها، يمرُّ الضَّوْء منكسرًا فاترًا عبر سقفها ونوافذها، كأنّها امرأةٌ عجوزٌ نامتْ في العراء الشاتي بلا غِطاءٍ في أسمالٍ مُشقَّقة، يشتدُّ ويشتدُّ.. حتّى أنّي بدأت أشرق، ومن خلال رؤيتي التي شوَّشها المطر المنهمر، رأيتُها عادت لعادتها في مواسم الأمطار التي نعرفها، رؤيةٌ كأنّها الرؤيا، تلك واحدةٌ من ظهورات القرية: تطفر الآن ماءً من شقٍّ تحت أرضيَّتها، أنفاسي! على هيئة.. على هيئة خطوطٍ، متقصِّفةٍ، واهنةٍ، بسوادٍ خفيف، وكما يرى كلّ مَن وقف أمامها وقت المطر، أرى على الرّمال ملامح باهتةً لامرأةٍ تبكي، إنّها على الرمل أمامي، انتظري حتّى أحفظ ملامحكِ، وهذا الماء المسودُّ الذي يسير في المسارات الدَّقيقة

على الأرض، كأنّه الدمع حمل معه كحلَ عينيكِ.. ذاك ما نسمِّيه في الشتاء بكاء المعصرة.

أنزلُ مسرعَ الخطى صوْب هذا البيت الكبير المبنيِّ من الحجر، يتوسَّط كتلة بيوتِ النجع التي تتخذ شكلَ الهلال، تغسل الأمطار أحجارَه وأشجاره، تنبت بقلةُ الحكاية في صدري مجدَّدًا مع المطر والدمع وشهادة المكان، لمَ لا.. وقد كانت وابنُها هناك في غرفةٍ منه شرقيَّةٍ ضربتها الريح؟

مِن داخل البيت النائم أهلُه في ساعة الصبح هذه، وقد توارت ديكَتُه النّشطة، ذاهب لأرى أثرًا عرفته مرَّة هنا للمطر، الفسقيَّة العتيقة الجميلة التي يعلوها جرَّةٌ كبيرةٌ مائلةٌ من فَخَّار، قطعةٌ من يد الجرَّة مكسورة، وقطعة من الفوَّهة، انكمشتِ الفسقيَّة في عطشها التاريخي، بعد أنْ عطبت مواسيرها منذ زمنٍ بعيد، وقد اغبرَّتْ أرضيَّتها الزّرقاء من الرَّمل والغُبار والجير؛ وتكسَّرتْ قطع من فُسَيفسائها، وتباعد بعضُها عن بعضٍ قليلًا حيث نمتْ أعشابٌ بين الفروج، ها هي، ها هي والصبح والمطرٍ، غُسِلتِ الفُسَيفساء حتّى استعادتْ لونَها رائعَ الزُّرْقة الأنيق، الماء ينصبّ في الجرَّة، إنها منفعلةٌ حقًّا، تبكي شاكرةً ممتنَّة، وتشرب بغير رويّة، فتسكب أكثرَ ممّا تعبُّ في جوفها، والمواسير التي انقطع عنها الرّي تحيا قليلًا بماء المطر المنْهمر الذي يمرّ فيها بين الرّمل والعفونة والصدأ، فتسمع منها نخعًا، كمواء القطط الرّضيعة؛ يبدو أنّه في الفجر، حيث تظنّ الأشياء أنها منفردةٌ بنفسها بغير متابع، يمكنها أن تفعلَ فعلَ الأحياء عرضًا، ويبدو لي أنّها ستملي عليَّ قصّةَ أهلٍ هذا البيت القديم، وستقول ما لم يقله البشر.

الفصلُ الثّاني

هذا البيتُ الذي دخلتُ من بابه في لحظة فجرٍ ممطرة، وكذلك المعصرة الخربة الباكية المبكية، صاحبهما رجلٌ واحد، كان يرقد هنا في تلك الحجرة التي أمرُّ من تحت نافذتها بعد أن بعدتُ عن الفسقيَّة، إنّه الشَّيخ مصبح، تقريبًا، هو مَن عمَّر هذا الوادي وحدَه، بدأ بأنْ جعل من (**محلَّة هارون**) القريبة محطَّةً تجاريَّةً يتمُّ فيها تبادلُ بضائع القوافل؛ موفِّرًا على أصحابها المسافات الطِّويلة، أصاب الكثيرَ من المال في تلك الفترة، ولأنّه كان رجلًا صبورًا طويل النَّفَس منشغلًا بِتَرك بصمةٍ في حياة أهله، صعدتْ في رأسه فكرةٌ أرّقته، وأصرَّ على أن ينفِّذها، واتَّفق مع بعض الجمَّالين الفقراء من أهل الرِّيف على أنْ يحملوا له على جِمالهم في الزَّنابيل الضَّخمة من الخُوص طميًا أسود من حميل الفيضانات، ومن زيادات الأراضي، ومن التِّلال المتكوِّنة عن حفر التّرَع والمصارف. وأصبحتْ هذه الحرفة ملاذًا للفلَّاحين الذين يعملون بالأجرة وغيرهم، إذا لم يجدوا طلبًا على عرقهم ذهبوا وحملوا حِمْل بعيرٍ، ورموْه هناك في الوادي، وأخذوا أجرتهم ورحلوا. وبلَّغ هذا ذاك، عمَّن يطيِّر قرشه في شراء الطِّين، فاتَّسعتِ الدَّائرة شيئًا فشيئًا. الكَميَّة التي تجمَّعتْ في البدء

سِحْرٍ منها أقاربُ مصبح، وقالوا: لو فُرِشتْ هذه في أرضِ الوادي ما كانت بسَمْك سَجَّادة، وأثار استغرابهم فيا بعد ذلك بعزمه الذي لم يلِن، وإصراره على الاستمرار، وحرصه على هذا الذي يسمَّى بالوقت، ذاك الذي يمرُّ عليهم كما يمرُّ على بيضٍ غير مخصَّبٍ في جوفِ مغارة.

أخذَ التَّلُّ المتواضع ينمو ويتراكم، وتحسُّس العائلة من جيئةٍ وذهاب الجمَّالين الأغراب آخذٌ في الضّمور، ولكنْ بوتيرةٍ ضعيفة، وتلك الفترة.. شهدتِ استعانة مصبح بعثمان، وهو رجلٌ من خارج العشيرة متعلِّمٌ وخبيرٌ بفنون الزِّراعة والرَّيِّ والتِّجارة، وأمينٌ متديِّنٌ؛ أجلسه عن يمينه وقدَّمه للأهل وهو يشيرُ لهم إليه متباهيًا به: عثمان سيحيا بيننا أخًا، أفرزته لي ولكم من بين عشرات.

مرَّتِ الأيام، حتّى صار التلُّ بعد قُرابة السِّتِّ سنواتٍ جبلًا أسود ضخمًا في الوادي من الطَّمي، ومن كسيح الزَّرائب من الرَّوْث، وكلَّف الشّيخ مصبح الشَّغِّيلة أن يخلطوا هذا الطَّمي والزِّبْل برمل الأرض، فاستحالتْ تُربة الوادي تُربةً على أحسنِ الخصائص، وما أنْ فرغوا من ذلك، حتّى حفروا له من أرض الوادي مَصرِفًا حتّى بداية الممرِّ قُدَّام الترعة، ووضعوا أُنبوبةً من فَخَّارٍ من هناك إلى الترعة وردَموا عليها، وجَرَتِ المياه في المصرِف حتّى انسابتْ في الوادي، وَسْط ضجَّة فَرَح عارمةٍ وضرب بالدُّفوف، فغارتْ هذه البئرُ القديمة التي كانت تتعهَّد زراعةً متواضعةً، غارتْ من انصراف النَّاس عنها وانشغالهم بماءِ المصرِف غيرةً عمياء على أشدِّ ما تغار أنثَى؛ وتسنَّه ماؤها، أو لعلهم قالوا هذا من باب البطر.

وجِيء بالأحجار من المقالع القريبة، وخشب (**السَّاج**) الهنديِّ، وأشغالٍ صارمةٍ من حديد، وجاء البنَّاؤون المَهَرَة، وشَرَعوا في بناء قصر مصبح، وامتلأ الوادي بالحركة والغرباء، والأهل كانوا يطلِّون على كلِّ هذا من سواتر البساطة في خليطٍ من الانبهار العظيم والقلق من الرّفاهية والأساليب المعقَّدة.

في آخر يوم من عمل البنَّائين في السُّور احتاجوا إلى بعض الماء، واستقربوا البئر؛ اطَّلعوا عليها، صفَّرتْ فيها أنفاسهم عند الفوَّهة، قد نَضَبَت، وعشَّش فيها الحمام البريُّ تحت الدَّلو وحبله المرفوع، بئرٌ معطَّلةٌ وقصرٌ مشيد!

والتفتَ الرَّجل النَّشِط بعدَها إلى الأرض، وأطلق فيها ثيرانَ الحراثة، وشقَّ فيها جداول الماء، واخضرَّ وادي مفلح شيئًا فشيئًا، واستوطنته العصافيرُ والبهجة، ومنعتْ درعُه الخضراء كثيرًا من رماح الشّمس، وتحت الشّجر تساقطتْ بعض الألفاظ الصحراويَّة الجافَّة وتناساها الناس.

أيقنَ الكلُّ أنّ هذا رجلٌ كُتِب له النّجاح، وسلَّموا له قلوبهم، وتوقَّف المتحفِّظون عن سؤالهم القلِق: إلى أين يذهب بنا مصبح؟ واكتسب إجماعًا نادرًا قام في جوِّه الحميميِّ بتوزيع ثلثي الأرض التي استصلحها أسهمًا على بيوت العشيرة؛ ووزَّع أيضًا أسهمًا عليهم من بعض مما امتلكه من أراضٍ واسعةٍ في الرِّيف القريب، ثمّ ابتنَى المعصرة، وبجانب كوْنه من مورِّدي ثمار الزَّيتون، أصبح واحدًا من أكبر مورِّدي زيت الزَّيتون أيضًا.

هذا الذي أمرُّ من تحت نافذته العالية، وأتخيَّله ينقلُ وجهه بيني وبين المناظر حوله دونَ أن يفكر فيَّ، بنظراتٍ خاليةٍ كنظرات طيرٍ بريءٍ أعلى السّور تجاه من يمرّون أمامه، هو الشيخ مصبح، أشير له إلى نافذةِ امرأته وابنه الطّفل المرعوبين القريبة من نافذته تلك التي عندها شجرة الرمَّان، لعلّه يقف على ما حدثَ من بعده، نظرَ إلى نافذة غرفة امرأته الشَّابَّة عن يساره ثمّ إليَّ ولم يفهمني، وانسحب إلى الدّاخل بسلامٍ يليق بميِّتٍ شبع موتًا.

في العام ١٢٦٥ الهجريِّ الموافق للعام ١٨٤٩ الميلاديِّ، كان شيخ النَّجع الشَّيخ (**مصبح**) الذي في مَطلعِ الستِّينيّات من عمره، يُحتضَر في بيته، وعنده في مِخدَعه الواسع أبناؤه الثَّمانية من ابنة عمِّه، زَوْجته التي تُوفِّيتْ منذ زمنٍ، وكذلك زَوْجته الشَّابَّة الغريبة التي ليست من جماعته ولا بنت حيٍّ من العرب، وطفله منها ابن الثَّمانية أعوام، واسمه (**عاصم**).

الشَّيخ الستِّينيُّ الذي عمَّر البلد راقدٌ لا يخشَى الموت بقَدْر خَشْيته من مصير زَوْجته الشَّابة وابنه الطِّفل. كان بنوه والأهلُ جميعًا رافضين في البدْء لتلك الزِّيجة؛ لفارق السِّن، ولكَوْن الزَّوْجة غريبةً من أهل القاهرة، فتخوَّفوا أن يكون أبوها قد رَمَى بشَبَكه على الشَّيخ الثَّريِّ طامعًا في ثروته، وسلَّط عليه هذه الغادة التي لم يرَ النَّجع مثلها؛ لكنّه كان رفضًا مهذَّبًا؛ نظرًا لمنزلة الشَّيخ العظيمة في أهله.

تعرَّف إليها الشَّيخ مصبح في بيت أبيها التَّاجر المتوسِّط الحال صاحب معمل ومتجر المخلَّل، الذي يشتري من الشَّيخ ثمارَ الموالح وزَيْت الزَّيتون. كانت أمُّ بنيه الثَّمانية قد ماتتْ منذ عامين، فبدأ يبَحَث

عن عروس، وقد عَرَض عليه الأهل أراملَ وناضجات، بينما شَعَر هو برغبةٍ في تذوُّق فاكهة الدُّنيا الحلال، بعد عَيْشٍ طويلٍ للأهل ولأعمالٍ جِسامٍ ومثابرةٍ وصبْر.

كان الشَّيخ مصبح عند أبيها صابر في مَتْجره، جالسًا يحدِّق في وجهِه الجميل الأبيض المشرَّب بحُمْرة، متأمِّلًا عينيه الملوَّنتين، كأنّه اكتشف جمال الرَّجل الشَّائب يومها فقط!. وصابر في عَجَب من شرود مصبح في وجهه، ومن اقترابه منه مادًّا رقبتَه يتفحَّصه، حتّى أَزعجه وأربكه. كان مصبح يعرف أن للرَّجل ابنةً وحيدةً شابَّةً صغيرة، وأخذ يمنّي نفسه بأنّ البنت لا بدَّ وأنْ تكون جميلةً مثل أبيها أو تزيد، وحدَّث نفسه: (**لو بهذا خيرٌ لعزَم عليَّ بفنجان قهوةٍ تركيَّةٍ في بيته**). ثمّ بعد قليل، طلبَ صراحةً أنْ يشرب القهوة عنده في البيت، ورحَّب صابر كلّ التَّرحيب، وصَعِدا.

دخلتْ صابرة وقدَّمتها للشَّيخ مصبح ثمّ توارتْ مبتسمةً، بعد أن غازلها غَزَلًا خفيفًا محتميًا بسنِّه.

ـ كلّا وربّكَ، هذه ليستْ ردَّ مِلحٍ وخلٍّ يا صابر!.

فضَحِك صابر، وأكمل مصبح..

ـ مَن يراها يظنُّ أباها صاحبَ مَشتَلِ ورد.

خطفتْ لبَّه بجمالها الفتَّان، وقد تدلَّتْ خُصْلةٌ طويلةٌ من شعرها النَّاعم الأحمر من حجابها في أثناء وضع الفنجان عفوًا؛ تدلَّت على وجهها الأبيض المشرَّب بحُمْرَةٍ وعليه نَمَشٌ لطيفٌ، وسَحَرته عيناها الخضراوان المتلألئتان اللَّتان يصعُب على المرء أنْ يطيل النَّظر إليهما، وفمها الباسم المكشوف عن حبَّات لؤلؤ، وجمال ثوبها البنفسَجيِّ الفَضفاض الكمِّ والذَّيل، وطرحتها التي انفلتتْ منها الخُصْلة من نفس قُماش الثَّوب.

ومصبح في عينيها رجلٌ وسيمٌ ناضجٌ نَضِر الوجه لا يبدو عليه سنُّه، وهو كذلك مهابٌ أنيقٌ في ملبسه، يضع عطرًا خلَّابًا. وبزيِّه العربيِّ التقليديِّ الذي يلبس أفخم أنواعه، بدا لها كرجلٍ خرج من عالـَم الأساطير، مثلما بدتْ له بشعرها الأحمر، وبسمتها اللؤلؤيةِ، وثوبها البنفسجيِّ كأنها خرجتْ أيضًا لتوِّها من عالمٍ آخر للأساطير.

وشَرَد مصبح باقي الجَلسة بينما صابرُ يحكي عن السُّوق والحال. وبعدها، وبكلِّ وضوحٍ بَدويٍّ قال إنّه يريد هذه الجميلة التي قدَّمتْ له القهوةٍ زوجةً له، فوضعَ صابر فنجانَ القهوة عن فمه بيدٍ مرتعشةٍ وابتسم مرتبكًا.

- أزُفُّها لحدِّ بيتك، ولكن..

أمّا هو فأكمل فنجانه حتّى آخره، حتّى ظنّ صابر أنه ربما يغيِّر مجرى الحديث، ثمّ قال بهدوء:

- يا رجل، أنا سأضعُها في عينيَّ، وستعيش أميرةً، وأنت لعلَّك تظُنّني لا أحبُّ الخِلاط في النَّسب كوْننا عُربانًا، لا، ليس الأمر كذلك، أنا أعرِفك تمامَ المعرفة، نعم الرَّجل!
- سلِمتَ.
- وأنت.. ألا تعرفني؟
- أحسَن النَّاس! لستَ بحاجةٍ إلى شَهادتي.
- حيَّاك الله.. هذا الخِلاط يُخشَى منه إذا ما كان طالبُ الزَّواج بعيدُ الدَّار شابًّا صغيرًا طائشًا، أو إذا كان مجهولًا لمَن يطلب مصاهرتهم لا يعرفون ضميره. والأمرُ يختلف؛ فإنِّي رجلٌ مجرِّبٌ وكبيرُ عشيرةٍ، كما أنّنا متعارفان منذ ما يزيد عن خمس عشرة سنة.

صابر كان في بلبلةٍ جامحةٍ بين مخاوفه القويَّة من هذا النَّسَب الذي سيترتَّب عليه أنْ تلج ابنته لعالمٍ غريب، لتحيا فيه بين مَن لا يعرفونه ولا يعرفونها، يتهدَّدها فشل الاندماَج والقبول وإن شابتْ ضفائرها عندهم، وبين تبْجيله لهذا الشَّيخ المعروف الأكمل سمعةً وثراءً وخُلُقًا وعقلًا. ولم يجد بُدًّا من التَّحجُّج بسؤالها.

كانت في حجرتها تنظُر إلى المرآة وقد انتشتْ من غَزَل الشَّيخ، وقالتْ تحدِّث نفسها مبتسمة: شِبْه أمير! نعم، شبه أمير!

دخَلَ عليها أبوها مُحرَجًا مدهوشًا، وأشارَ تجاه الغرفة التي يجلس فيها الشَّيخ، وكلَّمها بصوتٍ خفيضٍ كمَن يلقِي خبرًا غريبًا.

ـ الرَّجل.. الرَّجل.. أبو سعد.. الشَّيخ مصبح.. تخيَّلي.

ـ ما له؟ (**قالتها مطمَئنَّةً، وكأنها عرفتْ ما طلبه مصبح من أبيها**).

ـ لا أدري ماذا أقول لكِ.. لقد طلبكِ للزَّواج.. طبعًا كما يقولون: (**من خاف سَلِم**).

فابتسمتْ وسكتتْ، فأكمل: سأقول له: رفَضَتْ، نعم، رَفَضَتْ، أنا لا أستطيع أن أوافق، حتّى لو كنتُ أتمنَّى ذلك.

ـ ولكنّني موافقة.

ـ ماذا؟!

وكأنّ صابرة أرادتْ أنْ تكافئ هذا الرَّجل، والذي مِن المفترض سنًّا ومكانةً ونَهْجَ عيشةٍ؛ ألَّا ينتبه إليها، تريد أنْ تكافئه على ركله لكلِّ الاعتبارات من أجلها.

تزوَّجتْ صابرة من الشَّيخ، وذهبتْ معه إلى نَجْع (**مفلح**)، وعاشت أيّامًا هانئةً في بحبوحةٍ وكرامة. وكانت مَثارَ إعجابِ النِّسوة بجمالها الباهر، حتّى أنهم سمُّوها: (**الفِرنسيَّة**)؛ لا يعكر صَفْوَ أيامها إلَّا صُدود أبناء الزَّوج عنها، وهذا الرَّفض الذي لم تعالجه السُّنون ولا حسن معاملتها، وكان هذا الصُّدود أرصنَ مِن أن تشتكي منه امرأةٌ عاقلةٌ إلَّا تلميحًا، ولكنّه أوضح من ألَّا يلفِت انتباهَ امرأةٍ حسَّاسة. وكانت هيبة مصبح في بيته تمنعُ أيّ إساءةٍ لها، هذا لزمنٍ، لكن في أيام مصبح الأخيرة تدهْور الأمر، وبدأ الصُّدود يتحوَّل إلى شبه تمرُّدٍ وتجاهلٍ تامَّيْن، بينما كان الرَّجل يرتحل ببطءٍ إلى عالمٍ آخر.

الأبُ الرَّاقد في فراشه يفتِّش في عيون البنين عن نظرةٍ طمأنة، عيون البنين الذين وَرَثوا عنه الطُّولَ والفخامةَ والهيبة، ولكنْ على خلافٍ في الطِّباع مع هذا العِصاميِّ؛ فقد خرجوا للحياة وهم أبناء عزٍّ ومكانةٍ بين النَّاس، وسكنوا في قصرٍ لا يسكن في مثيله العُمَدُ والأعيانُ في الرِّيف القريب، فاكتسبوا أَنَفَةً وكِبْرًا؛ وغير هذا فقد كانوا وهُم بهذا العدد وهذه الفُتُوَّة؛ أبطالَ العشيرة المقدَّمين إذا ما نَشِبتْ معركةٌ مع الآخرين. وقد روَّضهم سعد أخوهُم الكبير على هذا المنحَى، خاصّةً أنه وإخوته كان يصلُهم منذ صِغَرهم من كلام النَّاس مقارنةٌ مُحبِطة: (**الشَّيخ مصبح لم ينجبْ ابنًا مثله**)؛ لذا عوَّضوا هذا الحكمَ القاسيَ بحمل الأسْرة في معاركها، وهذا كفيلٌ بحفظ قَدْرهم في مجتمع قبليٍّ. ومع بداية مرض مصبح منذ سنتين، بدأ الإخوة يلتفُّون حول أخيهم شيئًا فشيئًا؛ لتدبير قائدٍ جديد؛ بديلًا عن هذا الذي بدأ الموت يناوشه.

اقتربتْ منه زوجتُه صابرة، ونَضَحتْ وجهَه بالماء، ودَلَكتْ صدره بمَرهم، فانتشَى ولَمَعتْ في عينيه لمعة تشبُّثٍ بالحياة، فنظر الرِّجال لها وله متغامزِين، فتراجعتْ إلى ولدها.

وتكلَّم مصبح: أدَّيتُ أنا ما عليَّ من واجبات.

ـ ما قصَّرتَ!.

ـ كثَّر الله خيرَك.

ـ تجاه الأهل وتجاهكم. وأشعرُ بالموت هنا في عالي الغرفة. ما أريدُه هو أن تودُّوني بعد موتي في هذيْن (**وأشار بصعوبةٍ لزوجته وابنه**). أسألكم اللهَ في زوجتي، وأخيكم. ولدي لا بدّ وأن يُربَّى هنا وَسْط أهله، ولدي.. ولدي (**فسَعَل حتّى لم يعدْ قادرًا على التَّكملة**).

يردُّ الابن البِكْر (**سعد**) بنظرةٍ يكسوها الاستخفافُ والحقد:

ـ أرِحْ نفْسَكَ. أهذا كلّ ما يشغل بالَك؟! اهتمَّ بصحَّتكَ، خوفكَ عليهما يكاد يهلِككَ.

نظرَ له مصبح بجانب عينه: أرَى في عينيكَ يا سعد نيَّةً سوداء، أنا أبوكَ يا ولد، أبوك.. أانتظرتَ حتّى غلبني الزَّمن؟!

فضرب سعد كفًّا بكفٍّ: لمَ يا أبه هذا الكلام؟! مصرٌّ على أن تلعنِّي قبل أنْ تموت؟! أأترك النَّجع لك حتّى تستريح؟! (**والتفتَ لينصرف**).

أمسك به إخوته وهدَّؤوه، فأكمل:

ـ (**مصبح لم ينجبْ رجلًا مثله**) حسنًا، ماذا علينا أن نعمل؟ هيَّا تعالوا نحفر ونردُم ونروِي حتّى يرضَى النَّاس عنَّا في ثرثرتهم، وهُم جالسون يتفيَّؤون تحت ظلال الأعناب يقيِّمون الرِّجال. تعالوا نبتزُّ أنفسنا للنَّاس، ونعمل لآخر نَفَسٍ حتّى ننال استحسانهم.

مصبح: اهدأ وافْهمني يا سعد، ودعْنا في صُلْب ما أريد، ولا تغيِّر الحديث.

- نعم.
- أنت الكبير، وأنت الذي لا بدّ أن ينطقَ اليوم بما يرضيني قبل موتي فهل تفعل؟! لا تحفر ولا تردُم.. فقط أحسِن لأهلكَ، وأحسِن لصابرة وعاصم من أجلي، أريد أن يصفو قلبك ممّا به، ليهدأ بال أبيك قبلَ موته، فهل أشحذُ منك الآن هدوءَ بالي حتّى تقبل؟!

هدأ سعد، وارتاحتْ أنفاسه، وأكمل مصبح كلامَه بحماسةٍ وعاطفةٍ وأنفاسٍ متقطِّعة.

- هأنذا أريد عهدًا، جميعًا تعاهدوني بأنْ تعاملوهما كشقيقيْن لكم، وأوَّلكم سعد، هيَّا يا أولاد، هيَّا.

شاورت أعينهم عيني سعد، وقالوا بعد تردُّدٍ وبصَوْتٍ خافتٍ غير متحمِّس.

- نعاهدك.

استقلَّ النتيجة التي حصل عليها بعد إلحاحه واستعطافه، نظرَ لهم كأنه لايعرفهم، كانت عيناه تقولان: مَن أنتم؟ نادى بعينيه زوجتَه فمالت عليه تسمع منه، فأمرها بأنْ تفرد عليه ثوبه المكشوف إلى ركبتيه، كأنّه يحتشم من أغرابٍ، وبعُدَ بنظره عنهم، نطقَ الشَّهادتين، وأمال وجهه لليمين.

الفصلُ الثّالث

بكتْ صابرة، وارتمَى ابنُها في حِضْنها باكيًا وهو يسألها إنْ كان أبوه قد مات حقًّا؟ استمرَّا في نحيبهما المكتوم في جوٍّ مشبَّع بالكآبة، ونورٌ أصفر خافتٌ في الغرفة يشعُّ بشجنٍ من مِصباح الزَّيْت، وانضَمَّ ظلّاهما في ظلٍّ واحدٍّ على الحائط، حتّى أمروهما بإشارةٍ من الرَّأس أن يَخرُجا من الغرفة لغرفتها، ولها بابٌ من غرفة مصبح، فخرجتْ مُنكسِرةً مُصطحِبةً ابنها، بخطواتٍ جزعةٍ تتّجه نحو باب المجهول. وتجهَّزوا لتغسيل أبيهم وتكْفينه، وأرسلوا أصغرهم لينعي الأب لآل (**مفلح**). أصواتهم وهم يتبادلون الأوامرَ والنواهي في أثناء التَّغسيلِ تغمرها وتُمزِّق كِيانها في حجرتها، ها هو فارسها الأشْيَب البَشوش يُقلَّب بين أيدي أبنائه مبكرًا، بعد تسع سنينَ فقط من الزَّواج.

وقد خرج موكبُ الرِّجال بخشبة الأب، وخلفهم رِجالات العائلة، في مسارٍ بطيءٍ مَهيبٍ إلى المدفن القابع في الصَّحْراء على يسار دربِ القوافلِ المؤدِّي إلى مَحلّة هارون، قليلًا بعد الوادي، بوجوهٍ ملثَّمةٍ تتلافى البردَ القارس، وعيونٍ حزينة، والهواء يعاندُ المسيرة، ويضرب بعنفٍ- تهتزُّ له القلوب- أطرافَ ثياب المشيِّعين.

أُوقِدتِ المصابيح الزيتيَّة في (**مندرة**) العائلة، وأُقِيم مجلس العزاء في عصر هذا النَّهار الغائم، والريح تضربُ النّوافذ، رجالٌ كبارٌ كانوا يتبادلون كلماتِ التّعزية، ويوصون أبناءَ الراحل بأن يكملوا سيرة أبيهم الفذَّة، وشبابٌ يتصدّون لعناد الريح ويغلِّقون النوافذ بأيّ شيءٍ بين أيديهم، وريحٌ أخرى سَمومٌ ينفخُ فيها المتزلِّفون والمتعصِّبون في صدور الرِّجال الثَّمانية، يسألون عن مصير (**الفِرنسيَّة**) وولدها عاصم، ويتحدَّثون عن وجودها الذي لم يعدْ مقبولًا، وتجرَّأَ أحدُ السّفهاء ومالَ عليهم وصرَّح بصوتٍ خفيضٍ بأنّ الشَّابة الجميلة امتصتْ زهرةَ الشيخ حتّى آخرها فعجَّلت بموته؛ ورغم كراهيتهم لها إلَّا إنّهم جُرِحوا من هذا الخوض، فنظروا له نظراتٍ أسكتتْه، سعد نفسُه قام متململًا من بين المتزلِّفين وجلس بين الكبار، لكن ما إنِ استراح في مجلسه بينهم، حتّى استعادوا ذكريات الكفاح في حياة الأب، وما استطاع أن ينجزَه لأهله، حتّى ضاق صدره، وما عاد يعرف موضعَ راحته، أخذ يخرج من (**المندرة**) ويدخلُ إليها وهو يفرُك يديه، يتعجَّل نهاية مجلس العزاء.

هي وطفلُها على السرير يعتصرهما الحزنُ والقلق، وإحساسٌ ثقيلٌ بالهمِّ يجثم على الصدر، ذبالة المصباح كانت على الأرض أسفلَ منهما، صنعتْ لهما من الخلف ظلًّا واحدًا كَبيرًا، مدَّ الظلُّ المأتمي نفسَه على الحائط وانكسر على جزءٍ من السّقف، منكفئًا عليهما انكفاءً متابعًا مهيبًا، ريحٌ خارجيةٌ لعبتْ بورق شجرة الرّمان القريبة من النافذة المواربة، سمع الولد وأمّه حفيفَ ورق الشجرة، كأنه وقع قدمي قاتلٍ يتسلل، اقتحمتِ الريحُ الحجرة، اهتزَّ لهب المصباح مع الريح، فاهتزَّ الظلُّ أيضًا على الحائط والسّقف، وتبدَّل حاله، إنّه الآن كروحٍ مضطربةٍ مذعورةٍ تكافح

لتهرب من مكانٍ تُقرأ فيها العزائم، نظر عاصم للظلِّ المضطرب، ارتجفَ قلبه الصغير، مدَّ شفته السفلى، همس في أذن أمّه بأنه خائفٌ، نظرتْ للظلِّ ثمّ وضعتْ رأسَ ولدها على صدرها وقالت:وأنا أيضًا.

بعد مدَّةٍ، راح فيها ابنُها في النوم، استمعتْ لطَرقاتٍ على باب حجرتها، ففتحتْ لهم واستندتْ على الباب المفتوح، ونظرتْ إليهم وهُم منتصِبون أمامها كالأصنام بوجوهٍ قاسية، وقلبها يقفز في صدرها كعصفورٍ، وقالت بصوتٍ ضعيفٍ مرتبك:

ـ رجعتم؟

لم يردُّوا عليها، فأخَذتْ تتفرَّس في وجوههم وهي تمسَح دموعها، وتبلَع رِيقها، وقد رأتْ في عيونهم غدرًا وقسوةً وجرأة، حاولت أن تتكلَّم متجاهلةً هذا الانقلاب الذي تتنبأ به الملامح.

ـ تصبَّروا.. بارك الله فيكم، وسددتم مسدَّه.

خاطبها كبيرُهم سعد بنَبْرةٍ هادئةٍ وحازمة:

ـ مات الشَّيخ مصبح.. ولم يعد لكِ مكانٌ هنا.

اضطربتْ، وسكتت طويلًا، فظنّوا أنّها استسلمتْ بسرعةٍ لم يتوقَّعوها، حتّى أنّهم وبكلّ استخفافٍ تبادلوا أحاديثَ أخرى مع أخيهم تتعلَّق بضيافة المعزِّين القادمين وإرسال الخبر للبلاد التي لم تعلم به، كأنّهم يخلون غرفة خادمةٍ، ممّا أثار ضيقها وجرحَ كرامتَها، ففاجأتهم بصوتٍ معتدلٍ بغير ضعفٍ وبعينين قويتين:

ـ لم يعدْ لي مكان هنا! وعهدُ أبيكم؟!

ـ هيَّا، هيَّا، دعْكِ مِن هذا، واذهبي لبيت أبيكِ وانسينا.

ـ بهذه البساطة؟!

ـ نعم، نريد أنْ ترحلي، ببساطة.

استيقظ عاصم من نومه، وتقدَّم إليها وهو مُستغربٌ ما يدور حوله، وقفَ بجانب أمِّه يوزِّع النَّظرات علِيها وعليهم. نظرتْ لولدها فتحرَّكتْ مشاعرُ الخوف فيها مرّةً ثانية، سكَتتْ فترةً كأنها تفكِّر في أن تنسحِب بهدوءٍ مصطحبةً ابنها، ثمّ تراجعتْ واندفعتْ في محاولةٍ ثانيةٍ لأجل ابنها بشيءٍ من إثارة العواطف:

ـ يا سعد، أنتَ الكبير هنا الآن مَحلّ أبيك.. لقد عِشتُ معكم تسعَ سنينَ.. كيف يا سعد أمشي وقد صِرتُ أعدُّ نفسي واحدةً منكم؟!

ردَّ سعد بعد أن هزَّ رأسه وهو يحدِّق فيها:

ـ لستِ منَّا.

ـ دعني أربِّي ولدي بينكم يا سعد.. إني لا أريد إلَّا فُتات المائدة.

ـ ليست المسألة في طعامكِ وشرابكِ، تلك أمورٌ هيِّنة، ولكنّ المسألة أنّنا نريد أن نكون هنا وحدنا.

فوضَعَتِ ابنها أمامَها، وقالت وهي تضغَط على كَتفيه:

ـ وهذا، هذا ابنُ مصبح على أيّ حالٍ، له حقُّ العيْش في بيت أبيه معكم.

تدخَّل غازي، الابنُ الثَّالث لمصبح، الذي اشتهر بلقب (**السّفير**)، وتكلَّم بهدوئه المعهود ولطفه الذي لا يخلو من مكر:

ـ يا أمّ عاصم، ما لكِ ولهذه الجَبَّانة النَّائمة في الصَّحْراء؟! إنَّا اعْتدنا عليها واعتادتْ علينا. أين هي من شوارع القاهرة الممهَّدة؟ ومراكب النِّيل، وبيوت السَّراة يحيطها الفُلُّ والياسَمين، والمِسْك والمَيْعة يفوحان من المساجد العتيقة، ونُزْهات القاهريِّين في الأعياد؟

- أكلِّمكم في الدَّم والنَّسَب وتكلِّمني في السِّياحة؟!
- لا، إنّما أكلّمك عن الحياة، أيّ حياة ستحيينها هنا وقد مات أبي؟! اعذريني على الصراحة.. لم يعدْ لكِ مُقام هنا، وهذا بيتُ عائلةٍ لا بدّ وأن يظَلَّ مفتوحًا بأنفاس الرِّجال، أنتِ شابَّةٌ صغيرةٌ وجميلة، ونحن لا نريد أن نُعيَّر بكِ، إذا ما نظر لكِ من أهلنا هذا، أو تجرَّأ ذاكَ، وطلبَكِ للزَّواج. أنتِ من الآن حِمْلٌ علينا. أنتِ يحقُّ لكِ وأنتِ شابَّةٌ صغيرةٌ أنْ تفكِّري في الزَّواج، لا أن تضيِّعي عمركِ هنا على ذكرَى الوالد.
- زواج؟!
- نعم، لم لا؟

قالتْ له مستعطِفةً، وقد ثبَّتتْ عينيها في عينيه لما عَرَفَتْ من حُسْن طِبَاعه إنْ قُورن بسعد؛ لعلَّه يلين لها ولابنها:

- يا غازي، هذا عاصمُ الذي يتعلَّق بكَ في رَوَاحك. ماذا دهاكَ؟! إنّه أخوكَ، أخوكَ. أرَضِيتَ له أن يعيش بعيدًا عن أهله وعِزْوَته؟!

بكتْ، وابنها يحاولُ أن يهدِّئ من رَوْعها، مُربِّتًا على ساعدِها، وعيناه الصغيرتان تعاتب غازيًا.

تحرَّج غازي من صابرة، ومن نظرات عاصم، ونظر لأخيه سعد كالمعتذر عن فشله في مهمَّةٍ وطأطأ رأسه، فأزاحه سعد:

- تنحَّ أنت أيّها (**السَّفير**).. ليس هكذا تُحسَم الأُمور.. ماذا يا صابرة؟

فقالتْ محتجَّةً عليه وعلى خوفها، بنَبْرةٍ حاسمة:

- وأخوكَ أنتَ أيضًا، أخوك.

تلقَّف كلمتها وهو يهزُّ رأسه نافيًا: لستُ متأكِّدًا.

صَدَمَها ردُّه صدمةً جبَّارة، وصَغُرَ في عينيها بعد أنْ كانت تهابه. وقالت بحدَّةٍ وبلهجةٍ شرسةٍ وبغير حساب: اخرسْ.

بُهِتَ من ردِّها لحظةً، ثمّ لَطَمها لَطْمةً قويَّةً سقطتْ على إثرها على الأرض، وسَقَطَ ابنها فوقها مذعورًا، انفلتتْ أعصابُ سعد واعتراه غضبُه المعروف عنه، أخذ يركُلها، تتكوَّر على نفسها وهي تصرخ، وكأنّما أصابته لوثةٌ فازداد عنفًا وانفلاتًا، كأنّه يخبِّئ حقدًا عميقًا قد أُعطِي فرصةً للتَّنفيس عنه. صابرة على الأرض تصرخُ هي وابنها ذاهليْن، وجهُها على الأرض مغمضة العينين، تمرُّ عليها بسرعةٍ صورٌ مشرقةٌ من حياتها كانت فيها موفورةَ الكرامة منذُ طفولتها إلى زواجها، فما عادتْ تعرف يقينًا إنْ كانت تتذكَّر أحلامًا أم إنّها الآن في حلم بغيض، تسمع في وهنها أنفاسه المحمومة وأصواتهم الذّاهلة: (**كفَى، كفًى، ستَذَهب، كفَى، ستقتلها**)، وقد مرَّتْ عليها لحظاتٌ شارفتْ فيها على الإغماء خرجتْ فيها من نفْسها، حتّى ظنّت أنها نائمةٌ في حجرتها وسعد في الجوار يضرب زوجته، وما هذا إلَّا صراخُ زوجة سعد، غير أنّ عاصمًا يصرخ: (**اتركْ أمِّي يا سعد، اتركْ أمِّي، الْحَقْنا يا أبه، الْحَقْنا**)، لم تتعرَّف على صراخ نفسها للحظات، لكنّها ـ بغريزة الأم ـ ما تاهت عن صوتِ وحيدها، فأيقنت بأسفٍ أَنها هي مَن يُضرَب.

أزاحوه عنها بمشقَّة، لملَمتْ نفسها، قامت واستندتْ للحائط مذعورةً ممسكةً بيدِ ابنها، تندفع للوراء هاربة، ظنُّوها ستلجأ إلى فناء البيت، وانْشغلوا بسعد يُهدِّئونه ويُذكِّرونه بأنّه هو بادئ العَيبَة، تندفع كالمجنونة إلى فناء البيت، وابنُها يجري وراءها منخرطًا في البكاء ينادي النّهار

الأسود فيما كان المطرُ يهطل، يقعان ويقومان في الوحْل دونَ أن ينظرا خلفهما، حتّى فرَّا من بوَّابة البيت إلى السَّاحة أمام بيوت النَّجع. وقفتْ في وسط السَّاحة بعينين جاحظتين وأنفاسٍ متقطِّعة، تصرخ تحت المطر كل قليلٍ وهي تنظرُ للبيت الكبير الذي عاشت فيه تسعةَ أعوامٍ يغسل المطر أحجارَه وأشجاره، ولا تسمع صراخها، قد أصاب أذنيها الطّنين، التمَّ النَّاس على صراخها من كلّ الأزِقَّة حتّى أحاطوا بها في السّاحة، مازالت في صياحها لا تفسِّر شيئًا للمحيطين بها، يشقُّ الإخوة طريقهم بين الناس إليها بكلّ قسوةٍ حتّى وصلوا إليها..

- أتريدين لنا الفضائح؟! هيَّا اذهبي من هنا.
- يا ظَلَمَة.. يا أوباش.. تآمرتم عليَّ وعلى ابني.
- اكتمي صوتكِ.
- لم ينجبْ مصبح رجلًا مثلَه، يا أنذال.

فقدوا أعصابهم جميعًا، وتنافسوا على دفعها وصفْعها، فتراجع النّاس عنهم، انكشف شعرها، تمزَّق كُمُّ ثوبِها، سعد يزيح إخوتَه عنها ليفترسها وحدَه، يلفّ شعرها المبلَّل على يده ويهزُّ رأسها، تقوم وتقع مع يده العنيفة، وتقوم وتقع، وعاصم بيده الصّغيرة يضرب سعدًا على ظهره ضرباتٍ ضعيفة.

- علام تتفرَّجون؟! أنجِدوني، أنجدوني يا ناس من الظَّالمين الطَّامعين.

يتراجعُ الولد للخلف، يجمع الطّوب، يقذف به على الكلِّ بغير تمييز، ينقضُّ أصغر الثمانية على رقبته ويصفعُه ويمزِّق ثوبَه حتّى صار بسرواله الدَّاخليِّ، وهي تحاول أن تفلتَ من قبضة سعد لتنقذ ابنها

- ابني، ابني، يا وحوش. كبدي يا بني.

يتركُها سعد بعد أنْ فرغ منها تذهبُ ناحية ابنها منكوشةَ الشّعر، عيناها مملوءتان دمعًا ودمًا، متورِّمة الوجه، وأخذ هو وإخوتُه يشيرون إليها بأنْ ترحل، ويأمرون المتجمِّعين بأنْ يذهب كلٌّ واحدٍ منهم إلى حاله.

وصلتْ لولدها وهي تترنَّح توشكُ أن تقع أرضًا، وابنُها يحاول على ضَعفه وصِغَر حجمه أن يسندها، وقفتْ صابرة وابنُها المتلطِّخان بالوحل ينظران في وجوه أهل النّجع السّاكتين، تهزُّ رأسها بالنفي من صدمة السّكوت، بدتْ وجوه النّاس لها كأنها من طينٍ ليِّنٍ سينزل منها الوحلُ مع المطر والمذلَّة، تماثيل لم تجفّ بعد، لا أحياءً هنا في هذا النّجع في غير بيت مصبح، وقد مات مصبح، ولم يعدْ هناك من الأحياء إلَّا أولاده الجبابرة. معذورة، معذورة تمامًا، ما كانت لتلحظَ في هذه الشدَّة الرهيبة أنّ كثيرًا من التّماثيل اللينة حولها يسيلُ من عيونها الغيظُ والاعتذار، وأرجلها كانت تهمُّ بالتقدُّم، ولكن حَبَسَها حابسُ الخوف، كانوا بحاجةٍ لمن يندفع فيندفعون خلفَه، لكن لم يتصدَّ أحدٌ لدور البطولة.

لكنْ من الأحياء في هذا النّجع من بيت مصبح خرج صوتٌ رقيقٌ واهن، صوتٌ واحدٌ فقط، صوت هالة بنت سعد، نعم.. بنت سعد؛ زهرةٌ في عمْر عاصم، رفيقة لَعِبه، متعلِّقةٌ بعمِّها الطِّفل وأمِّه كلّ تعلُّق، اندفعتْ متأخّرةً من البيت متأرجحة الضفيرتين.

- حرامٌ عليكَ يا أبي.. حرامٌ عليك يا عمِّي.. اتركوا الخالة تعيشُ معنا هي وعاصم.

هدأتِ الأجواءُ وسكتَ المطر، وصابرة وابنُها في مكانهما يتبادلان السّباب المتقطِّع مع سعد وإخوته، والإخوة متعجِّبون من عدمِ هروبها وإصرارِها على البقاء، وجرأتها على السبِّ، وعدم خوفها منَ التّهديد بمعاودة الضّرب، حتّى صارت ورطةً لهم.

نزل الشَّيخ عثمان الذي قرَّبه مصبح، وأسكنه الوادي؛ مفزوعًا بعد أنْ أخبرته زوجتُه الخبر العصيب، ونقلتْ إليه الصُّورة المرعبة، نزل وهو لا يصدِّق ما سمعه؛ وصل السَّاحة والفريقان يتبادلان السباب، والشّباب في دواخل أنفسهم يرجون ذهابها ونهايةَ الموقف، يشعرون أنّه لايمكنهم ضربها ثانيةً، ويكافحون رغبةً عميقةً ملحَّةً بتبرير موقفهم أمام الناس وتحميلها وزرَ ما حدث، ويقاومون شعورًا داخليًّا بأنّهم سقطوا سقطةً كبيرةً وسريعة، وفشلوا فشلًا يؤكّد أنّ مصبحًا بالفعل لم ينجب ابنًا مثله.

أسرع عثمان إلى عاصم وأمِّه، وهو يصرِّح بأنّ هذا غير معقولٍ، ولا يصحّ أبدًا، وقف بينها وبينهم، مشيرًا بيده للتّهدئة، وحاول أنْ يعيدهم لبيتهم. شعروا بأنّ ظهوره في السّاحة يهدِّدهم ويتّهمهم، وأنّ رجوعهم معه لبيتهم هو هزيمةٌ منكرة، وتراجعٌ عن خطأٍ، واتهامٌ لهم بالحماقة والافتقار لحكيم ناضج، أزاحوه بغِلْظَةٍ وزَجَروه، ونظروا له بعيونٍ كأنها لا تعرفه، بل تهدِّده ًوتذكره بأنّه غريبٌ، غريبٌ عليه أنْ يلْزَم حدَّه، ليس له أن يتصرَّف ككبيرٍ هنا، صُدِم وصَعُب عليه حاله، وأخذ النَّفَس العميق الذي يأخذه المصدومون، وبعد أنْ كان يقف أمامهم عاشمًا وقفةَ الكبير الواثق، صار كالموقوف الخائف المطيع، وذلَّ صوته.

ـ دعْنا أنت وشأننا.

وقال له سعد باستخفافٍ وهو ينظر له من أعلى لأسفل:

ـ أم تريد أنْ تجلس على كرسيٍّ مصبح؟

ـ أنا؟! أبدًا والله.

ـ إذًا هيَّا اذهب بها، فهذه ليس لها عيْشٌ بيننا.

ـ وماذا حدث منها يا جماعة الخير؟!

ـ نريدها أن ترحل إلى بيت أبيها، والآن.

وبدؤوا يتصرَّفون كما لو كانوا يهمُّون بالهجوم عليها مرَّة أخرى، حتّى يدفعوا عثمان لأن ينهِي الأمر ويمضي بها بسرعةٍ، ففرد عثمان ذراعيْه، ورسم على وجهه كلّ علامات الرجاء والاستعطاف.

ـ الأمر لله، سأصطحبهما في الطَّريق، ولا تهمُّوا بشيءٍ، ليس عندي صحَّةٌ تتحمَّل مُدافعتكم.

ـ إذًا، خذْها من هنا إلى أبيها الآن، وإلَّا قتلناها. فاهم؟

ـ فاهم.. فاهم.

الفصلُ الرّابع

وأشارَ للمرأة وابنها ليسيرا أمامه، والتقط خِمارها وأعطاها إيَّاه، وعينُه على الرجال يخاف من أنْ يهجموا عليها مرَّةً ثانية. ووجَدَ في عينها رغبةً في أنْ تُعاوِد السَّبَّ، فسألها بالله أن تصمِت حتّى يمضي هذا اليوم العصيب.

مشتْ تزُكُّ باكية، ومشَى عاصم يرتعدُ من البرد والخوف، وعثمان من خلفهما منكّس الرأس، حتّى وقفَ بهما أمام داره، وألحَّ عليها كثيرًا حتّى تدخل وتأخذ ثوبًا من ابنته بدلًا من هذا الذي تمزَّقَ كُمُّه، وحتّى يأخذ ولدها جلبابًا من عند حفيدِه، ولكنّها رفضتْ، وأخذتْ تهزُّ رأسها وكفَّها مُصِرَّة، وردَّتْ بأنها تريد أنْ تحتفظ بالنَّار داخلها متأجِّجة، وعليها أن تمشي هي وابنها من أجل هذا كما أخرجوهما. وحَاوَل مرَّاتٍ ومرَّاتٍ بلا فائدة.

- يا بنت النَّاس، كيف ستدخلين على أبيكِ بهذا الشَّكل المخيف، وبطفلٍ شِبْه عارٍ؟! ربّما تقضين عليه بِعِنادكِ هذا.
- دَعْ لي ناري يا شيخ عثمان.. دعها حامية.

ـ وهذه اليدُ التي ما كانت تُرَى وأنتِ في عِصْمَة الرَّجل الكريم، لا يَصِحُّ اليوم أن تُترَك مكشوفةً لعيون الجوعَى في طريقنا الطَّويل.

ـ لا تُثْقِل عليَّ يا شيخ. هذه اليد عرَّاها أولاده.

فدخل بيته وعادَ مسرعًا ومعه صُرَّة، وربط الحِصان إلى العربة، وصعدوا عليها، وخلع عباءته ووضعها على جسد عاصم، فمدَّت يدها لترفعها عنه، فثار الشَّيخ عليها:

ـ ما هذا؟! الولد ينتفض انتفاضًا.. أقسمتُ عليكِ ألَّا ترفعيها عنه.

وشقَّتِ العربة طريقَها بين النَّاس، وعيونُهم المتسائلة في آخر النَّهار. وهالة بنت سعد تطاردها باكية، تنادي عليهما وتعتذر إليهما، وعاصم يبكي وينظر بأسًى لها ولوجوه النَّاس من تحت العباءة الغليظة؛ حزينًا على حاله وحال أمِّه، وقد كان منذ أيام طفلَ هذه النَّاحية المدلَّل وابنَ كبيرها؛ ودون مقدِّماتٍ، ودونَ أن يفهم ماً يدور حوله؛ وجد نفْسَه وأمَّه مضروبين مصفوعين، مطرودين بغير ذنب، وفي يوم وفاة أبيه، ومن إخوته. والطِّفلة مازالتْ تجري بجانب العربة بأنفاس متلاحقةٍ وبكاءٍ حارٍّ وعينٍ مُحرجَةٍ حتّى المعصرة، وكان البغلُ المربوطُ أمامها آخرَ المودِّعين، نظر إليهما في أسًى عميق.

وأخذت صابرة تبكي مُجدَّدًا بعد أنْ خرجوا من النَّجع، ونظرتْ وراءها، ورفعتْ يديها بالدُّعاء على النَّجع ومَن فيه.

ـ يا بنتي، اهدئي واحْمدي الله على خروجك مِن بين أيديهم سالمة.

ـ سالمة؟!

ـ نعم.. (**ثمّ قال معتذرًا**)، أقصِد: حيَّة.

- لستُ سالمةً، خرجتُ مُحطَّمة، كأنه كابوسٌ ما جرَى لي. وخرج ابني مكسور النَّفس مهانًا، ولا أنتَ نفسكَ سالمٌ. لقد مدّوا أيديهم إلى صدرك وأزاحوك وتجرَّؤوا عليكَ. وكنت أنت الإمام في الصَّلاة، ويمينَ أبيهم وأمينَ سرِّه. لقد أهانوكَ.. أهانوكَ.. فلا تخدعْ نفْسك.

سكتَ فترةً حتّى ظنَّتْ أنه لن يعقِّب، ثمّ قال:

- لم يحدثْ لي مفاجأةٌ، أنا أؤمُّهم في الصَّلاة، وأُحْيي لهم ليالي رمضان، وأخطب يوم الجمعة، (**والسَّلام عليكم يا مولانا، وكيف حالك يا مولانا**)؛ هذا وأنا أعلم جيِّدًا أنّه إذا ما كان هناك نَزعاتٌ أو مصالحُ أو شحٌّ مُطاعٌ ما استطعتُ أن أحكُمَ بينهم في إرْدَبٍّ قمح قد اختلفوا فيه.. للأسف، كان بقائي هنا باحترامي رهينًا بألّاَ أعترِض طريق أحدٍ، حتّى لو كان أهْوَن النَّاس في النَّجع. وأنا- والله- راعيتُ كوني غريبًا، وحَفِظتُ حدودي، وبقيتُ على هذا سنين، ولكنْ هذا لم يكفِ مع أبناء مصبح، اليومَ فقط نسيتُ أنّي غريبٌ، فذكَّروني، على حقٍّ أنتِ فيما قلتِ، عليَّ ألَّا أخدَع نفسي.

وبعد بُرْهةٍ، أخْرج من الصُّرَّة ثوبًا نسائيًّا، وناوله عاصمًا:

- هيَّا يا هُمام.. أرِني رجولتك.

أخذه الولد وناوله أمَّه، وقال مصطنِعًا نَبْرةً رجوليَّةً حازمة:

- تغطّي.

أزاحته وهزَّتْ رأسَها رافضة.

أُحْرَج عاصم، فرَفَعَ عن نفْسه العباءة، ولوَى وجهه عنها غضبانَ، وهو يحتضنُ نفسه بذراعيه من البرد وقد تقوّس ظهره وبرزت فقراته.

- بعد أن تدفَّأتَ؟! ضعها عليك.

هزَّ رأسه رافضًا، فحاولت أنْ تشرح له أنّه يجب عليها أن تظلّ هكذا حتّى تفضح أبناء مصبح الذين قطّعوا ثوبها، فردَّ عليها بأنّه سيفضحهم هو أيضًا معها وسيقعدُ بسرواله، ولمَّا فشلت في إقناعه لَبِسَتِ الثَّوْب على ثوبها في عَجَلٍ، فتغطَّى بالعباءة، فربَّتتْ على كَتِفيه وابتسمتِ ابتسامةً ذابلةً تشعُّ فخرًا واهنًا.

قال لها الشّيخ وهو ينظر أمامه:

- ها قد بَعُدنا. انظري خلفك للنَّجع.

تردَّدتْ، ثمّ أدارتْ رأسها ببطءٍ، ونَظَرتْ، واغتمَّتْ. وكانت بعضُ بيوت النَّجع تُرَى مشوَّشةً تحت قوس قزح والأشعة الشّتوية الباهتة.

- يا بنتي، إنه نجعٌ صغيرٌ، صغيرٌ جدًّا، في عالمٍ واسعٍ مليءٍ بقَصَص المسرَّات والفواجع.. انظري هكذا للأمرِ إذا تستطيعين.. أو تحطِّمكِ قصَّتك.

سكتتْ ولم تعقِّب، فاستأنف كلامه:

- سماءٌ عظيمةٌ، بعد قليلٍ سترصَّع بالنُّجوم، تحتها صَحْراء واسعةٌ ووديان، من ورائها الكثير من المدن والحواضر، وأجيالٌ وراء أجيالٍ تزحَف على بطونها نحو الذَّهب أو لُقْمَة العَيْش أو النَّافذين، ثمّ الله يغسِل الأرض من ورائهم.

تنهَّدتْ صابرة، ثمّ قالتْ بعصبيَّةٍ يداريها الأدب:

- ما العالمُ عندي إلَّا قصَّتي.

ومضتْ بهم العربةُ بطيئةً بسبب توحُّل الدّرب، وقد غاب عنهم النَّجع منذ ساعةٍ، وساد الصَّمت، وحلَّ اللَّيل قبيلَ دخولهم محلّة هارون، فنَصَب عليهم عريشًا عبارةً عن نصف قُبَّةٍ من جلد ماعزٍ مخروزٍ إلى هَيْكلٍ بسيطٍ من الخَيْزُران قابلٍ للضَّمِّ والفرد. وبدأتْ هي وابنُها يطلَّان من عريشهما البسيط على سماءٍ زرقاء مرصَّعَةٍ بالنُّجوم، ويتبادلان النَّظرات من تحت هذا الخِباء الجلديِّ. وشَعَر عاصم بشيءٍ من الانفراج في صَدره ولذَّةٍ رُوحِيَّة، وأخذتْ شفتاه تتحرَّكان، كأنّما يريد أن يقول شيئًا عمَّا يشعر به ولا يعرِف له كُنْهًا. وهدأتْ نفْس صابرة قليلًا وعَرَضًا وهي تنظرُ للسّماء وقد لصقت خدَّها بخدِّ عاصم، ثمّ دعا الشَّيخُ اللهَ من أجل الولد، دعا الله أن يعوِّضه، وأن يعطِيَه أكثرَ مما سُلِب؛ كان دعاءً مطوَّلًا شجيًّا بكى منه وأبكاهما، واعتلتهما رَهْبَةٌ، ثمّ غشيتهما سَكِينة.

ووصلوا أخيرًا إلى (**محَلَّة هارون**) محطَّة القوافل، هذا الخَلاء الواسع. وهناك قافِلةٌ ناجعةٌ، خطٌّ من الإبل الباركة، خلفها عرباتُ مسافرين محلولةٌ عن الأحصنة. وعلى جانبي خطِّ القافلة الطَّويل مشيِّعون يودِّعون المسافرين، ورجالٌ يتحرَّكون حولها في عجَلَة، ورجال جالسون تحت عريشٍ بسيطٍ من قماشٍ منصوبٍ على أعواد، ملتفُّون حول حَطَبٍ مشتعلٍ في انتظار قيامها. سلَّمَ عثمان عليهم وشرب من ماء الزّير الذي تحتَ العريش، وسألهم عن جِهَة القافلة، وسُرَّ لمَّا عَرَف أنّها ذاهبةٌ للقاهرة. وكان لا بدّ لهم أن يتحرَّكوا كما الحال وقتَها مع قافلةٍ؛ تخفِر المسافرين وتحميهم في الطَّريق. اقترب من شيخ الخُفَراء وهو يحدِّق في وجهه ساخطًا من تشابُه سَحْنته من سَحْنة سعد تمامًا، وأعطاه أجرة الخَفَارة بيدٍ مرتعشة، واستدار ومضى بثقلٍ، يشعر بأنّه كره سعدًا، وبأنّه لا يطيق أن يراه

مرَّةً ثانية، وأنّه حبس نفسه في نجْع مفلح، وأنّ رضاه بالبقاء هناك كان فيه شيءٌ من التحايل على النفس، وأنه عندما كان ينصحها باستصغار النّجع كان ينصح نفسَه أكثر مما ينصحها، وأنّه كان يريد أن يزهد نفسَه في عيشةٍ تعلَّق بها وعظمتْ في قلبه، وعاد للعربة مشوَّشًا وصفَّها في ذيل القافلة، وفكَّ ذراع العربة عن الحِصان وتركه يبرُك على الأرض قبل استئنافِ المسيرة، وصعِد إلى العربة منتظرًا، وقد استطالَ الرّتل خلفه بعرباتٍ أخرى.

ومرَّ شَيخ الخُفَراء وخلفه خمسةٌ من الرِّجال المسلَّحين الأشدَّاء، لهم شواربُ كبيرةٌ مفتولةٌ، يرتدون طرابيشَ قصيرةً وسراويلَ فَضْفاضة؛ مرَّ بهم ليتفقَّد الزَّبائن وأحوالهم؛ وليريَهم البأس والاستعداد فيطمئنُّوا لقدرتهم على الحماية.

ووَصَل إلى حيث الشَّيخ ورفيقيْ رحلته، ووقف أمام العربة، ففزِع عاصم وأمُّه لما رأياه وتضَّامًّا؛ لقد صار سعد أكبرَ من مجرّد شخص ظلمهما، صار كقرينٍ قيَّد لهما وسيأتيهما كلّ حين بهيئة أخرى وزيّ مختلف، صار عقدةً أكثر منه شخصًا ما. ولمَّا أدركا أنّه ليس هو تنفّسا الصعداء، وتعرَّفت صابرة إلى هذه السَّلامة التي تكلَّم عنها عثمان وأسكتته: الانفلات، ولو بالجِلد.

وقد تعجَّب الرَّجل شيخ الخَفَّارة من فزعهما، وسأل الشَّيخ:

ـ ما لهما؟! أخافا مِنَّا؟

ـ لا يا ولدي، لكمْ منظرٌ مهيبٌ فقط.

والتفتَ إليهما ومال، وقال بصوتٍ خفيض ممرور: يشبه سعدًا.

فهزَّا رأسيهما مؤكِّدَيْن. واحتاط شَيخ الخُفَراء؛ فربما يكون من وراء فزعهما أمرٌ ما.

ـ نحن على عدوِّكما.. (**ثمّ سأل الشَّيخ عثمان بجدِّية**) من المرأة؟

فوَضَع الشَّيخ أصابعه في لِحيته التي يختلطُ فيها الأبيض والأسود، وقال بهدوء:

ـ امرأة الشَّيبة، وعَكَتْها الحُمَّى، وأرادتْ أن تموت عند الأهل.

فقال الرَّجل وهو يهزُّ رأسه متأسِّفًا:

ـ ألف سلامةٍ يا خالة. أمسكي نفْسكِ إلى غاية الوصول.

ومضَى وخلفه رجالُه في تفقُّد القافلة قبل القيام، والتفت الشَّيخ عثمان إليها متأسِّفًا:

ـ سامحيني يا بنتي، أحبَبْتُ أنْ أوهِمه أنّكِ امرأتي العجوز المريضة، ولم أكذِب؛ فأنتِ امرأة الشَّيْبة، وأنتِ موعوكةٌ، أمَّا الموت فلا نعلم عنه: متى، وأين.

ـ خيرًا قلتَ.

ـ سامحيني على الفَأل السيِّئ.

ـ لا عليكَ (**قالتها وقد انتابتها قشَعريرة**).

ـ لقد عَرَفَكِ الرَّجلُ امرأتي العجوز، وأنتِ كما تعلمين، فلا يبِنْ وجهُكِ حتّى بالغَفْلة وَسْط النِّساء؛ ما أَمِنَّا الأهل، فكيف نأمَن رُفْقَة الطَّريق؟ الواحد لم يعد واثقًا بأحدٍ، حتّى حُرَّاسه!

هزَّتْ رأسَها دون أن تنطِق، وقد انقبض قلبها.

وأخذ يحكي لعاصم كيف أنّ النَّبيَّ إبراهيم ﷺ قد كَذَبَ وقال عنْ زوجته إنها أُخته، بينما كان عاصم شاردًا في رجال الخفارة وبأسِهم وقوَّة أجسامهم، وفي تخيُّلِهم وقد ساروا معه إلى النَّجع، وأَرقدوا إخوانه على الأرض وربطوهم إلى (**الفَلَقة**)، وتركوه يجلِدهم على باطن أقدامهم بالخَيْزُران، فيبكون ويتوسَّلون إليه كي يسامحهم. ومازال مسترسلًا في

أحلام اليقظة حتّى بعد أن أنهَى الشَّيخُ عثمان حديثَه عن النَّبيِّ إبراهيم وكَذباته الثَّلاث، وكرَّر اعتذاره لصابرة.

ومرَّتِ القافلة تشقُّ طريقَها في ريفٍ متواضعٍ بين حوائط وكروم نخيلٍ في محَلَّة هارون شبه الخاوية من السُّكَّان، حتّى تسلَّمتْ طريق الصَّحْراء، ومضتْ فيه في ليلِ الشِّتاء البارد المَطير، كدودةٍ تتلوَّى في الدَّرب ما بين سهولٍ وجبالٍ ووديانٍ في ظُلمَة اللَّيل، وتحتَ زخَّات مطرٍ ألاطتِ الطَّريق وأثقلتِ الحركة. والعِير في إجهادها في السَّير، ومَناخِرها تدفع البُخار. وعاصم وأمُّه في آخر يومهما العسير الذي لا يريد أن ينقضي يتطلَّعان للأفق الغائم أمامهما حينًا، وحينًا آخر إلى السَّماء التي بدتْ وكأنها تحاول أن تغسِل أوجاعهما من خلال الفروج في خِبائهما الجلديِّ، فغَسَلتِ الثِّياب والجسدين الواهنين من تحت الثِّياب. وإذا نَظَرا إلى الأُفق أو السَّماء كانا في الحالتين يستفسِران عن المصير، وماذا تخبِّئ الأيَّام.

والشَّيخ لفَّع وجهه ومَنْكِبيه بلِفاع من الصُّوف، وأخذ يسري عنهما الهمَّ بالكلام، حتّى ولو بالكلام في الَهمِّ، ويسرّي عن نفسه بالكلام همَّ الصّراع الذي نشب في عقله بين العِشرة والانتماء والاندماج من ناحية، والتلقائية والاستقلال من ناحيةٍ أخرى، فمصبح قد جلب ثلاثة غرباء إلى الوادي: عثمان وصابرة والطين، وها هي ستخرج بغير عودة، فهل سيهاجر مثلها مِن هذا الوادي ويبقى الطين وحده؟ أمِ سيبقى هو معَ الطّين، خاصةً وأنهما أتيا معًا ومِن قبلها؟ أحيانًا ما كان يذكر في كلامه لها بحادثةٍ تشيرُ إلى مروءة أبناء مصبح دونَ أن يصرِّح بذلك، فلا يسمع منها تجاوبًا وتأكيدًا بل يجدُ شتمًا واحتقارًا وإنكارًا، وأحيانًا ما كان ينتقد أفعالَهم انتقادًا عنيفًا يفصح عن خيبة الرجاء أكثرَ مما يفصح عن الكراهية وتصيُّد الأخطاء، فلا تشاركه صابرة هذا الشّعور بالخيبة والصدمة، فهم بالنسبة لها فعلوا ما

تمليه عليهم طبائعُهم، لذا زادَه الكلام همًّا واضطرابًا، لكنّه وبشكلٍ عام، ينسلخ من انتمائه للنجع ببطءٍ وبغير إرادة.

- ما كانوا هكذا قطّ. أقصد يا ستّ صابرة أنّهم ما تعاملوا معك بهذه الطريقة قبل اليوم، أليس كذلك؟
- كلَّا، من البدء رفضوني، وكنت أتجاهل رفضهم، و..
- يا بنتي هذا معقول، هذا شيءٌ وما حدثَ في هذا النَّهار شيءٌ آخر، ما حَدَثَ اليوم شيءٌ عجيبٌ، ومن المذهل أن يحدث في يومِ وفاةِ مصبح، كأنهم جُنُّوا. كما أنّ سكوت أهلهم عمَّا حدث أيضًا شيءٌ غير متوقّع. وبنو مفلح أكرم مِن هذا. حقيقةً.. أنا مصدوم.

وساختْ حوافرُ الحِصان في الرِّمال التي عجنتها المياه، ووقع على ركبتيه محمحمًا. ونزَل عثمان يدفَع حِصانه ويشدُّه من لِجامه حتّى لا تضطرب القافلة بوقوف عربته، ولا فائدة، ووضَع ذيل جِلبابه في أسنانه، وأخذ يدفعه بكلّ ما لديه من قوّةٍ. فبدأ النَّاس يتصايحون عليه بجلافةٍ، ونزلوا وضربوا حِصانه بالسِّياط والحبال، ثمّ شدُّوه بقوَّةٍ، إلى أنْ قام مضطرب الأنفاس متعرِّقًا جاحظ العينين، وتحرَّك. وعثمان ممتعِضٌ لم يتفوَّه بكلمةٍ، وكأنّ ما حدث من أولاد مصبح معه اليوم أصاب ذاته في مقتَلٍ، أصابه بالخوف وهزَّ ثقته بنفسه. وصَعِد إلى العربة، وربَّت على ظهر الحِصان وعيناه دامعتان قد صعبت عليه نفسه، ثمّ نظر إلى قَوْس المسيرة الممتدِّ خلفه كمَن ينظر إلى خطرٍ يتهدَّده، حتّى أنه ما عاد يرَى ما يسري أمامه.

قالتْ صابرة بعد قليل: ماتَ الأسد فعضَّتني الكلاب.

- أفسدهم هذا الغجريُّ اللَّعينُ الذي نزل القرية بالسَّاقطات، أيَّامُ قُرْب الأيَّام التي انطَرَح فيها المرحوم بالفراش في أوَّل نَوْبات مرضه، وما بيننا وبين القرية إلَّا قليل.

فقال عاصم: بهلول؟ نعم رأيته وكنتُ مع غازي.

فقالت الأمّ متهكمةً: ونعم الأخ! أأخذك الزفت للسَّاقطين؟!

- يا أمي، شعره مثل شعر النِّسوان، وعلى وجهه حُمْرة!

- يا أمّ عاصم، عَرَفوا (**الدَّاتورة**) والحشيشة وبنات اللَّيل، وتعاطوا الخمر، ففَسَدوا، صدِّقيني، وكان زوجُكِ طريحًا، ومات ولم يعلَم.. آهٍ لو كان قد عَلِم.

فقالتْ بعد هنيهةٍ وهي تبكي:

- مسكين مصبح، بل عَلِم، وقال لي مرَّاتٍ في رُقاده وأنا أمرِّضه: (**الجِذْع شاخ والفروع مالتْ**).

- ولماذا لم........؟! (**وابتلع سؤاله**)

- كان عزيزَ نفْس، وعَرَف أنّ مرضه الذي طال قد سَحَب اللِّجام من يده، ولم يشأ أن يختبِر هَيبته فيهم فيُفجَع، وتظاهر بأنّه لا يعلَم، واكتفَى منهم بالأدب الظَّاهر وتقبيل اليد.

- إيه (**قالها ممدودةً وبأسفٍ شديدٍ**) لقد تغيَّروا.

- على كلٍّ، أنا لا شأنَ لي ببهلول ومُجونِه وإفساده لشباب القُرَى والبلدات؛ لم أكنْ زوجة أبيه، حقدي وناري على الرِّجال الثَّمانية من أكبرهم وحتّى ابن السَّادسة عشر، هذا الذي كنت أُحمِّمه أوَّل ما جِئتُ، وصَفَعني اليوم معهم (**ثمّ بكتْ مجدَّدًا**).

- هو بهلول والغجريات السّبب لما حدث معك، كان هناك تهاوُنٌ في أمر هذا البهلول لما نزل البلد، كلّ واحدٍ قال: (**عليَّ ببيتي أحفظه**)، وهذه هي النتيجة.

- لا يهمُّني هذا. وأنت لماذا يهمُّك بينما لا تستطيع أن تحكم بالحقِّ في إرْدَبِّ قمح؟! الله يحفظك، لا تحاول أن تصوِّر الأمر على أنّهم قد خُدِعوا، وأنهم ضحيَّةٌ، فلا تزدني نارًا بهذا.

أرجوكَ، لا أطيق أن أسمع. لم يتآمر أحدٌ عليهم إلَّا أنفسهم الشِّرِّيرة. أبناءُ مصبح لا خير فيهم، وأنا أعرفهم أكثر منك.

فسكَتَ الرَّجل ولم يردّ، ومشاعر الانتماء داخله تذبح ببطءٍ مع كلمات صابرة، وقال الولد:

- عندي فكرةٌ: نأخذ الخُفَراء هؤلاء بسلاحهم، ونعطيهم نصفَ غَلَّة الأرض ونصف الزَّيت ليضربوا بهلولًا والغوازي وإخوتي، ونطردهم ونأخذ دارنا.

لم يردَّا عليه، فاستأنفَ خيالاته وأمعن في تعذيبهم وإبكائهم.

وخلال الطَّريق، وقد كان انتماؤه في النزع الأخير يبحث عن أيّ فرصةٍ للحياة، صارحها عثمان مرَّةً أخرى بتعجُّبِه مما حدث، وبأنّه كان بإمكانهم تهديدها وطردها بهدوء، ولم يكن لهم حاجةٌ في هذا المنظر البائس الذي يحطُّ من قَدْرهم أمام أيّ عاقلٍ، وألحَّ عليها في أن تفسِّر ما حدث، منتظرًا منها ردًّا يبرّر جنونهم ويمنحه القدرة على الرجوع للنجع واستئناف الحياة هناك. وتردَّدتْ قليلًا، ثمّ صارحته بحرجٍ وتلعثم بسبب اشتعال الأمر بينها وبين أبناء زوجها لدرجةِ رفع اليد والسَّبِّ، فحكَتْ عن اتِّهام سعد لها في شرفها عندما قال إنّه ليس متأكدًا من كون عاصم أخًا له، وحَكَتْ عن ردِّها عليه. فهزَّ رأسه لأعلى هزَّة من تمرَّد ورفض، وسبَّهم ووصفهم بالعفنين، وتوقَّف تمامًا عن محاورتها في أمرهم، ومن ناحيتها، أراحها كثيرًا نجاحها في تغيير رأي عثمان فيهم.

وفي اليوم الثَّالث، تمامًا عند الغروب، كانت القافلةُ على مدخل القاهرة من ناحية (**الفُسْطاط**)، وعاصم وأمُّه ينظُران إلى الأضواءِ البعيدة

التي بدأتْ تُضاء فيما بين النَّهار واللَّيل، ومناظر أحياء القاهرة وريفها من هذه الهضبة التي تطلُّ على كثيرٍ من نواحي القاهرة. ثلاثتهم كانوا متعجِّلين الوصولَ بعد إنْهاكهم، ومرُّوا بين الفواخير ومنتجاتها المعروضة على الجانبين بألوانها التُّرابيَّة والرَّمليَّة والزَّهريَّة، وبين رجال طيبين يعجنون الطينَ أو يديرون دواليبَ الفخار وهم ينشدون. وعاصم ينظر للفَخَّار عن اليمين والشِّمال مرتاحًا؛ فهو هادئٌ وحكيمٌ ومتواضعٌ، فعَشِم في انتهاء البلايا من وجه هذا الفَخَّار الذي استقبله على مدخل القاهرة.

ونفَذَتِ القافلة من الفُسطاط إلى منطقة (**القَلْعة**)، حتّى استقرَّتْ في ساحة القوافل على يسار السُّوق. وبَرَكَتِ الجِمال وتوقَّفتِ العربات، وبدأتْ تضع حمولتها من النَّاس والغِلال والثِّمار وشتَّى البضائع. وانتبه الغافلون في جنبات السُّوق الواسع إلى الرُّغاء والصَّهيل، ولضَجَّة الواصلين لتوِّهم، وانتِشارهم على حسبِ أغراضهم، فمنهم مَن جاء ليبيع فأشعل مشعلًا ونَكتـه في الأرض، ومنهم من وصل لتسليم بضاعةٍ فجلس بلا شعلةٍ؛ منتظرًا خَدَم صاحب البضاعة، أو جلس ليستريح قليلًا وليبحث عن مشروبٍ دافئٍ عند البُسُط التي وُضِعتْ أمامها الغلَّايات الكبيرة على الكوانين. وهُرِعَ العبيد ومساعدو التُّجار إلى الجِمال التي نُكتتْ أمامها المشاعل، وانسلَّتْ عربة الشَّيخ عثمان من الصَّفِّ وكذا عربات المسافرين الأخرى، تحرَّكتْ وخلفها ضجيج الذين هُرِعوا وهم ينادون بحثًا عن بضائع معيَّنة..

ـ قمح قمح... شعير شعير.. ذرة ذرة.

ووصلتِ العربة إلى حيِّ (**الغُوريَّة**)، وصابرة وابنُها ينظُران بعيونٍ مُثْقَلَةٍ إلى أبنية الحيِّ العتيق على الجانبين، وينظران لأعلى من تحت خِبائهما إلى مئذنةِ جامع السُّلطان الغُوري الرَّائعة، التي تسبَح وتُسبِّح واقفةً في البرد واللَّيل وأضواء القناديل، في حالةٍ من الوَجْد والأُنْس، والتي

لَمَحتْ وهي في انتشائها بنت الحيِّ تدخُل الحيَّ على حالٍ غير الحال، فأسِفتْ لها، وراحتْ تتوارَى عنها فيما العربة تتحرَّك.

ـ يا غُوريَّة! يا ليتنا ما رحنا ولا جئنا.

ثمَّ بدأتْ صابرة تصِفُ الطَّريق لعثمان، وهي منهكةٌ تمامًا تتكلَّم بصعوبةٍ. كان الثَّلاثة مُنهَكين، لا أحبّ إليهم من نومٍ عميقٍ وأغطيةٍ وطعام ساخن، ولا يدرون أيَّ هذه الأنعُم هي الأعجل؛ فلمْ يكن مع الشَّيخ جهازٌ جيِّدٌ للرِّحلة من أغطيةٍ وطعامٍ كافٍ بسبب الخروج المتعجِّل؛ ولم يأكلوا إلَّا كرةً من الزُّبد ملفوفةً في رقائق من الخبز خرج بها من بيته، و(**كيزان**) ذُرَةٍ اشتراها من القافلة التي أقبلوا معها شواهَا في فترة راحةٍ ونجوع؛ وكانت الأمطار أيضًا قد نالتْ منهم تمامًا، ومن قبلها الغمُّ والمهانة. حتّى وصلوا أخيرًا عند بيتِ أبيها ومَتجره، فأشارتْ لعثمان إلى أبيها هذا الذي يجلس هناك:

ـ قاعد أبي ولا على باله! مسكين.

التفتَ إليهما عثمان الذي مازالت ملابسه رَطبةً بعضَ الشَّيء محاولًا أن يبتسم، ولكنه فشِل.

مرُّوا على متجر الأب الذي كان يجلس أمامه مرتديًا الجُبَّة والقُفْطان، وينشُّ عن وجهه بالمِنَشَّة، وتحت ساقيْه قَصعةٌ مملوءةٌ بخشبٍ مشتعل، بينما عامله يدحرجُ البراميل الخشبيَّة الفارغة داخل مخزن المخَلل.

طلبَ منهما ألَّا يتكلَّما أو ينزِلا حتّى يمهِّد للرَّجل. وتحرَّك بالعربة بعد المتجر قليلًا. ونزل، ونادَى صابرًا:

ـ يا معلم، أتحتاج إلى بِضاعةٍ للتَّخليل؟

فهزَّ رأسه نافيًا:

ـ أنا لا آخذ من السُّوق ولا مؤاخذة؛ تجيئنا من البساتين والغِيطان مفروزةً أحسن الفرز، حتّى باب المخزن.. الله يسهِّل لك.

ـ تجيئكَ من عند الشَّيخ مصبح؟

تعجَّب الرَّجل:

ـ أتعرِف الشَّيخ؟!

ـ عزَّ المعرفة، وقد مَرِض منذ سنتين.

ـ نعم.. نعم. ربنا يشفيه.

ثمَّ قال وهو يبتسم متباهيًا: إنّه نسيبي.

ـ نِعْمَ النَّسب!.

ـ سَلِمت.

ـ اشتدَّ عليه المرض جدًّا في الفترة الأخيرة يا معلّم صابر.

ـ يا ساتر ياربّ.

ـ نعم، أنا قادمٌ من هناك. اشتدَّ عليه المرض. وقد كان يأنَف من أنْ يُخدَم، وأن يُحمَل أو يُحمَّم.

بدا على وجهه الأسف:

ـ ألهذه الدَّرجة.. كان؟!

ـ تأخَّرتْ صحَّته في الشَّهرين الأخيرين، حتّى تمنَّى له أحباؤه الموت.. و.. ومات.

قام صابر من جَلسته وأشارَ له ليصفَّ العربة. ثمّ أخذه من يده وأجلسه بجانبه، ونادَى بالصَّبيِّ ليحضِر نعناعًا مغليًّا لعثمان الذي بدا عليه البرد.

وبادره أوّل ما جلس وقبل أن يصل النَّعناع:

ـ لا أظنُّ أنّك أعرابيٌّ.. كيف تعرِفه؟

ـ أنا جارٌ ساكنٌ في النَّجع، أخ لهم.. أنا عثمان.

ـ عثمان مَن؟

ثمَّ أكمل: وأمّ عاصم إذًا؟

فقال بوجهه الأسيف المُرهَق، وبصوته المزكوم النَّبْرة:

ـ النَّجع بعد مصبح جبَّانة.

فشدَّ على يد الشَّيخ:

ـ ليتك سفَّرتهما معك.. سيأكلونها أولادُه.

ـ أمّ عاصم تَعِبَة.

انتفض وقام: سأذهب إليها الآن.

قام الشَّيخ عثمان، وأشار له للخِباء على العربة:

ـ ابنتك وابنها هناك فوق العربة في تَعبٍ شديد.

فأشارَ صابر بأصبعه تجاه الخِباء دون أن ينطِق، وقد ذَهِل من هذا القُدوم المباغت، وهذه الرَّكوبة المتواضعة. وجرَى إلى العربة، وأطاح بالخِباء أرضًا، وقفز على العربة. وغاب الثَّلاثة في البكاء، يتبادلون النَّظرات والأحضان، كلٌّ منهم يبكي لبكاء الآخر، في مشهدٍ تتفطَّر له القلوب.

ـ يا بنتي.. يا أبه.. يا جدّي.. يا بنتي.. يا أبه.. يا جدّي.

الفصلُ الخامس

اصطحبَهما إلى باب بيته حيث يسكنُ أعلى معمل المخلَّل والمتجر، دخلا متَّكئيْن عليه، يصعَدان بتثاقلٍ، وعاصم يغالب النَّوم، مرتبكًا في عباءة عثمان. نُسِي الشَّيخ عثمان، جَلَس يشرب النَّعْناع المغليَّ، وقال لنفسه بصوته المزكوم وقد احمرَّت أنفُه تمامًا، وبصوت شاكٍ حائرٍ فيما صبيُّ المعمل يتابعه: (**عثمان مَن؟ عثمان مَن؟ عشرون عامًا في النجع ولم يُذكَر اسمي**)، وتمخَّط في منديله، ثمّ قام إلى العربة، فناداه الصَّبيُّ الذي حَسِبه حَمَّارًا:

ـ أخذتَ الأُجرة؟

فهزَّ الشَّيخ رأسَه موافقًا، وقام ووضع الخباء فوق العربة ومضَى.



لما صَعِدتْ ودخلتْ غرفتها وابنها، قدَّم إليهما أبوها ملابسَ أخرى بدلًا مما يلبَسان، وغطَّاهما بأغطيةٍ كثيرةٍ وهو يقبِّلهما، ولفَّ حول رأس كلّ منهما شالًا من الصوف الكشميري، ومازالتْ ترجُف وكأنّها تريد المزيدَ من الأغطية، يحثُّها على أنْ تحكي ما حدث، فأوجزتْ بلا

تعبيراتٍ وانفعالاتٍ؛ من فرْط إعيائها. وبعد قليلٍ لم يتمالك نفسَه، وأخذ يهزُّ رأسَه منكِرًا ما يراه من حالها، وانفلت لسانه يلومُها ويلومُ نفسه على تلك الزِّيجة الشُّؤم من رجلٍ غريبٍ، وذلك النَّسَب إلى أغرابٍ، وأنه كان أرشدَ وأكرم لها لو تزوَّجتْ حتّى من عاملٍ من عُمَّاله، وأنّ مصبحًا قد امتصَّ زهرتها ورَحَل تاركها لكارثةٍ، وأنّهما جُنَّا في عقليهما عندما وافقا على هذه الزِّيجة، وأنه يعِزُّ عليه عجزه عن فعل شيءٍ لها.

شَعَر عاصم الذي يقاوم النَّوم تحت الأغطية والشال وهو يستمع حديث جدِّه المنفلِت؛ شعر بأنّه يستسلم للسّقوط البطيء في بئرٍ عميقة؛ فهو ثمرةُ هذه الزِّيجة، زيجة النَّدامة، وفي أيّام الصدمات هذه لا يأمَن ألّا يحثَّها أبوها على رفضه، فتخوَّف من أنْ يُطرَد ثانيةً، ولكنْ إلى الشَّارع هذه المرَّة، فما كان منْه إلّا أن بَحَث عن الأمن عندها، فمدَّ كفَّه الصَّغيرة ومَسَك بها كفَّ أمِّه من تحت الأغطية الثَّقيلة بينما كانت عيناه للسَّقف؛ متخوِّفًا من نتيجة اختبار المشاعر، ففَهِمتْ أمُّه وقبضتْ على كفِّه بتشبُّثٍ، فاطمأنَّ قلبه، وقالتْ لأبيها حتّى يتحفَّظ بحديثه مراعاةً لابنها:

- يكفيني من هذه الزِّيجة عاصم، بالدُّنيا وما عليها.

فشوَّح صابر بيده، وخرج وهو يقول: يا ليتني ما طاوَعتكِ.. يا ليتني.



في الأيَّام التَّالية، قامَ عاصم من إعيائه، وظلَّ مُلازمًا لأمِّه يرقُب وجهها الذي أخذ يتخلَّص من الكدمات التي سبَّبها سعد، لكنّه كان يذبُل شيئًا فشيئًا. وارتفعتْ حرارتها، وظنَّتْ وظنَّ أبوها أنها نَوبة سخونةٍ ستنقضي، غير أنّها انقلبتْ إلى حُمَّى، وبدأ وزنُها يخفُّ بسرعةٍ، واصطبغ وجهها بلونٍ أصفر شاحبٍ، وظلَّل الرماد جفنيها الغائرين.

وبعد أنْ يبِس هذا الجسد الغضُّ في وقدة الحمَّى، وراحتْ نضارة الوجه الجميل، سرعان ما بدأ شعرها الطَّويل الذي كان يغطِّي كلّ ظهرها في التَّساقط، فاكتمل ذُعْرها من حدَّة الانهيار، واضطرب أبوها الذي حارَ في علاجها بين الطِّبِّ والأعشاب وما يصِفه المعيدون، يجرِّب كل شيءٍ ويمشي وراء كلّ نصيحةٍ، ولم يعدْ يميِّز أو ينكر، فقط ينفِّذ، حتّى الوصفات المثيرة للاشمئزاز، ولا فائدة، حتّى بكى كالطّفل من قلَّة حيلته.

ينظُر لها بتحسُّرٍ متذكِّرًا جمالها الفتَّان يوم زِفافها إلى الشَّيخ مصبح، وقد غطَّاها بطَرْحَةٍ حريريَّةٍ موشَّاةٍ بخيوطٍ من الذَّهب والفِضَّة، ونقش الحنّاء البديع على يديها الرّقيقتين، وتذكَّر آخر زيارةٍ حينما جاءتْ بموكبِها المبهرج، وهَودجِها بقماشه المخمليِّ ذي السِّتار الحريريِّ، وبين يديها عبيدٌ يحملون صناديق الأمتعة، فشدَّتِ انتباهَ الحيِّ كلّه، وتفتَّحت النّوافذ والمشربيَّات، والنسوة ينظرن لبنت الحيِّ التي فازت بزيجة السّعد. وقارن هذا بالقدومِ الفقير على عربةٍ متواضعة، وهي مستَتِرةٌ بخِباءٍ من جلد الماعز تنخفض لهَ حتّى لا تحمِله على رأسها، ثمّ هذا المرض الذي يعمل فيها يومًا بعد يوم حتّى لم يترك منها غيرَ العظم شيئًا.

- مال البِدر؟.
- أيّ بدرٍ يا أبه؟! هاتِها المرآة لي أنظرُ لنفسي وأتحسَّرُ عليها.. لقد ذَبَلتُ.. وشعري الذي كنت أتباهى به أستيقظُ كلّ يومٍ فأجدُ منه على فراشي الكثير. صابرة راحتْ!
- يا بنتي.. لوْلا تنسين.. ونطوي هذه الصَّفحة، سيكون خيرًا لثلاثتنا.. أفيقي واركلي هذه الأيَّام بحلوِها ومرِّها، وتعالي نسافرُ للبلد نتمتَّع بجوِّ الرِّيف، ونضحك مما حدث.
- نضحك؟! الأمرُ لا يوجد ما يُضحِك فيه.
- بل يوجد، لقد كنّا غبيَّين، أليس كذلك؟

- بلى.
- ولن يفيدنا النّدم، لكنِ اسمعِي: يوم أنْ ماتتْ أمُّكِ بعد ولادتكِ، ذهبتُ لدفنها بينما كنتُ أفكر فيمَن سترُضِعكِ أكثر مِن تفكيري فيها، رغم أنّي كنت أحبّها جدًّا، وقالتِ النِّساء عنكِ إنكِ ميِّتةٌ لا محالة؛ لصِغَر حجمكِ.. وها قد عشتِ كأجمل وردةٍ.. بقيتِ وأحرجتِ الخبيرات.. رغم أنّك وقتها لم تعرفي بعدُ قيمة الحياة.. تصرَّفي كوليدةٍ إذن.. لا حول لها ولا قوَّة.. فيحييك الله.. أنا أيضًا دبَّرتُ أمر رَضاعتكِ ولم أهملكِ.. ثمّ تزوَّجتُ من امرأةٍ غارتْ منكِ وأساءتْ معاملتكِ فطلَّقتها.. لأحتفظَ بكِ.. فلا تفجعيني فيكِ.. لا ترحِّبي بالموت. ولا تجري إليه.
- أنا أُدحرَج إليه رغمًا عني.

كان عاصم بائسًا بما دارَ حوله، وهذا المرضُ الشَّديد الذي ألمَّ بأمِّه فأكمل مواجعه، فبدأ يتلعثم في الكلام على غير طبيعته. وانزعجتِ الأمُّ الواهنة لـمَّا وجدتْ ولدها يحاول أن يعبِّر، فينعقد لسانه، ويتلعثم بعين سريعة الرَّمْش.

- أ.. أ.. أنا.. أنا.. أنا.

فحوَّلتْ وجهها للنَّاحية الثَّانية باكيةً. وربَّتَ الأب على يدها، فقالتْ مستعبرة:

- الولد الذي كان مشاكسًا ومتحدِّثًا سابقًا لسنِّه يُلَجلِج يا أبي.

فطلبَ منه جَدُّه أن ينزل للشَّارع ويتعرَّف إلى الصِّبيان ويلعب معهم؛ حتّى لا يظلَّ في ملازمته لأمِّه في حالها هذا فيتعقَّد أكثر، فينعقد لسانه.

تعرَّف عاصم إلى صِبيان الشَّارع، وتعلَّق بواحدٍ منهم اسمُه (**حافظ**)، الذي كان يَكْبُره بعامين، وكان ولدًا شقيًّا جريئًا طويلًا عن أقرانه. وأحبَّه

عاصم أكثرَ من حبِّه للأطفال الأهدأ والأعقل من أبناء الجيران؛ ربّما كان يريد أنْ يرَى نفسه في هذا الصَّبيِّ الشَّقيّ.

ودعاه حافظُ للذِّهاب لصيد العصافير بالنبلة من غابةٍ صغيرةٍ عند منطقة (**الدَرَّاسة**). وطَوال الطَّريق وحتّى الوصول لقلب الغابة العجوز، التي تحتضرُ من قِلَّة الماء وتآكل الأطراف من زحف العمران، والتي تغطِّي أرضها بُقَعٌ من الحشائش متناثرةٌ، وبها بعض النَّخْل وأشجار الدَّوْم والسِّدْر واللَّيمون، وأطلال بيوتٍ قليلةٍ قديمة، كان حافظ يحكي له عن بنتِ الجيران التي يحبُّها.. وكان لدَى عاصم شيءٌ يريد أن يسأل عنه.

(ماذا يعني سعد بقوْله إنّه ليس متأكِّدًا من كوني أخاه؟ كيف يكون هذا؟ هل وجدوني في الطَّريق؟ أمِّي غَضِبتْ جِدًّا، وقالت: اخرسْ.. لماذا لم تقلْ له: بل أخوك.. لماذا غَضِبتْ جِدًّا؟).

وتوسَّم في صديقه كِفاية الإجابة عمَّا لم يفهم؛ لعلمه بكلِّ شئون الحياة.

ـ حافظ، أليس الابن دائمًا ابن الزَّوج والزَّوجة؟

ـ لماذا؟

ـ سؤال.. أريد أن أفهم.

ـ بلى، كلّنا أبناء الأب والأمِّ.

ـ إذًا.. لماذا؟!

ـ ما هو الذي لماذا؟!

ـ هناك رجلٌ عندنا في البلد، قال لزوجة أبيه إنّه غير متأكِّدٍ من أنّ ابنها أخٌ له. ماذا يعني هذا؟

ـ أنت مغُفْلٌ يا عاصم، ومازلتَ صغيرًا.. ألا تعرف؟!

ـ لا، لا أعرف.

فلكزَه لينتبه إلى زَوْج من اليمام يتبادلان القُبَل على جِدارٍ متهدِّم.

فقال عاصم ببراءةٍ: إنّهما يتبادلان القُبَل!

ـ نعم.

ثمَّ أشار حافظ إليه ليصمُت ويتّبعه بهدوءٍ. يقتربان قليلًا من زَوْج اليمام، يستتران عن بصر الصيد الغافل في فرنٍ بيتيٍّ مبنيٍّ من الطِّين أمام البيت، يصوّب حافظ مِقلاعه تجاههما، يرمي حَصاته، تضرب في حائطِ البيت المتهدِّم من تحتِ الطَّائرين، طارا فزعَيْن برفرفاتٍ سريعة. يزفر حافظ، يضع يده على كَتِف عاصم، يكلِّمه كأنه يلقِّنه درسًا:

ـ كان عليَّ أنْ أقترب أكثر؛ فقد كانا في هناءةٍ ولن يلحظاني.

ـ هناءة؟

ـ نعم.. كأيّ زوجين... معًا.

ـ هل نأتي من القُبَل يا حافظ؟

فقال حافظ وهو يحدِّق في الأرض كحكيمٍ عَرَكَته السُّنون:

ـ الأمر أكبر من ذلك كثيرًا.

وسكَتَ قليلًا ثمّ استكمل: أمَّا المرأة التي استفسرتَني عنها، فتلك لها رفيقٌ آخر غيرُ زوجها؛ ربما يكون زوجُها رجلًا عجوزًا، فمالتْ لرجلٍ آخر شابّ.

ـ زوجُها رجلٌ عجوزٌ (**قالها ووجهه للأرض، ثمّ استكمل وهو يهزُّ رأسه متأسِّفًا وموافقًا**): صَحَّ.

فردَّ عليه مفتخرًا بصواب ظنِّه:

ـ أرأيتَ؟!

ـ وقبَّلها يا حافظ؟

ـ قبَّلها، وخَلَعا كلَّ الملابس.

يضطربُ عاصم، تميلُ به الأرض، تدور به دوراتٍ سريعةً، يوشكُ أن يقع، يهزُّ رأسه حتّى تتساقط هذه الأخيِلة البَشعة لأمّه العريانة مع شابٍّ عارٍ.

نَعَقَتْ بومةٌ فوق الطَّلَل، ومازال حافظ مسترسلًا في الشَّرح بنَشْوَةٍ، يعيد ويزيد بصوتٍ محموم، وعاصم تعاوده اللَّجلَجة، يهزُّ رأسه:

ـ كَ.. كَ.. كَفَى. كَفَى يا حافظ.. كَفَى.

يردُّ بحزم: أعاودتكَ اللَّجلَجة؟

فهزَّ رأسهً مؤكِّدًا، وعلى خدِّه دمعةٌ ساخنةٌ مقهورةٌ:

ـ أنت الآن كبرتَ.. ولا بدّ أن تعرف كلَّ شيءٍ. (**ثمّ خَبَط على ظهره وأكملِ**): ها هي العربيَّة الغنَّامة، تنزل بغنمها.. وسترَى ماذا يفعل الكَبْش بالنِّعاج.. حتّى تُولد الحُمْلان.

ـ كَ.. كَ.. كَ كفَى. لا أريد أن أعرف (**وبكَى**).

ـ ألم تسألني؟!.

ـ نَدِمتُ.. لا أريد أن أعرِف.. سأعود وحدي.

ويجري لاهثًا، وحافظ يلاحقه بالقهقهة العاتية:

ـ لن تستطيع.. أنت لا تعرف الطَّريق.. ستضيع.. حتمًا تضيع.. حتمًا.

فيجري الصَّبيُّ تلقاءَ الغنم التي نزلتْ للأرض وأقبلتْ بثغائها، ورأى الكبش يهاجم نعجة، وهي تملَص منه بلين، ويسمع سياسة العربيَّة الملثَّمة التي تشبه في زيِّها وغنمها أقرباءه في ممرِّ الرَّعي، وتهشُّ على الغنمِ بعصا..

ـ (**تعا.. تعا.. تِس تِس.. تعا.. تعا**).

والكبش الفاحش يطارد النَّعجة في اتِّجاهه، يكشف له سترَ العالم الذي كان محجوبًا عنه:

ـ **(تعا.. تعا)**.

فيندفع عاصم عائدًا: بل لنْ أجيء.. لن أجيء.. لن أجيء.

ومازال حافظ يطاردُه بالقهقة والاستخفاف:

ـ لن تستطيع لأنك غريبٌ عن مِصْر.

فيجري مسافةً بين الأشجار وظلالها، وحافظ خلفه..

ـ وخوَّاف.

يصطدم بشجيرةٍ، يفزع، يختلُّ، يسقط أرضًا على عودٍ من شجرة ليمونٍ، يجرَح الشَّوك كفَّه..

ـ خوَّاف.

يستدير، يجري في اتِّجاه الأطلال بأنفاسٍ مضطربةٍ، والبوم ينعق حوله:

ـ ووحيد.

ـ وضعيف.

ـ أنت وحيد أمِّك.. وليس لكَ من الأهل كما لي.. لي ثلاثة إخوة.

ينهارُ عاصم باكيًا عند الجدار المتهدِّم، يسدُّ أذنيه حتّى لا يستمع نعيق البوم ولا ثُغاء الغنم، ولا كلمات حافظ المهينة. ثمّ يخبِّئ وجهه في كفَّيه.

يقف حافظ أمامه منتشيًا متطاولًا.

ـ يا هذا، لا تبكي مثل النِّسوان.. كفَى بكاءً.

فسَكَت عاصم برهةً، ومَسَح دموعه، ثمّ قال:

ـ حافظ، لمَ تعاملني هكذا وأنا أحبُّكَ أكثر من باقي الصِّبيان؟!

يبتسم حافظ:

ـ أحقٌّ؟.

ـ نعم.
ـ لماذا تحبُّني؟
ـ لأنّك قويٌّ وشجاعٌ، وتعرف أشياء كثيرة.
هزَّ حافظ رأسه، ثمّ أخذ ينظرُ لخياله الطَّويل على الأرض متباهيًا بنفسه.
ـ أنا أريد مَصلَحتكَ.. أريد أن أخشِّنك.. صِبياني لا بدّ أن يكونوا رجالًا.
وسَكَت قليلًا، ثمّ أكمل: قمْ.
فقام عاصم مستسلمًا وهو ينفُض التُّراب عن ثوبه:
ـ أنا مِن الآن اسمي المعلِّم حافظ.
ـ أ أ أ.
فقال بحزم: بغير لجلجةٍ.
ـ أ..أ.. أنت المعلِّم حافظ.
وزفرَ بعدها زفرةً طويلةً، من انكسار نفسه، ومِن صدمته ممّا آل إليه حاله (**تعال لي يا أبه**). وتحرَّكا وعاصم يمسَح دمعَه يمشي مشيةً مهزوزة، بينما حافظ يبتسم متابعًا ظلَّه الطَّويل على الأرض.
ـ وما الذي أحزنكَ يا ولد لمَّا عرَّفتكَ كيف نأتي؟
ـ م.. م..م.. ما حزنتُ.
ـ كذَّاب.. هل حَزِنتَ على المرأة المهتوكة؟
ـ المهتوكة؟!.. لا.. لا.
ـ أتدري؟ ينزِل أبي لجارتنا.. خالتي أمّ شوق.. عندما يكون لدى زوجها نَوبَة سهرٍ في الطَّابونة (**المخبز**).. رأيته كذا مرَّةٍ، ولم أقلْ لأمِّي.

ـ غاضبٌ منه؟
ـ ولماذا أغضب؟!.. رجلٌ سَبعٌ!.. طالما أنّ أمِّي شريفةٌ فلا يهمُّني.. صحَّ؟
ـ صحَّ يا مُعلِّم.
ـ أنا إن كَبِرتُ لعِبتُ بالنِّسوان مثله.
ـ طيِّب.
ـ أبي لا يستطيع أحد أن يجترئ عليه.. أبي قويٌّ وشجاعٌ ولا يَرحَم.. يشرَب قَدَح السَّمن على فمٍ واحدٍ.
ـ قدح سمن؟!
ـ نعم، كما أنّ جدِّي أطعمه كبد ذئبٍ في صِغَره؛ حتّى يقوَى قلبه ولا يخاف أبدًا.
ـ صَحَّ يا مُعلِّم.
ـ ومسنود!، سائسٌ في اسطبل سليمان باشا.

ومضى يحكي بفخرٍ عن والده، بينما شَرَدَ عاصم، وتذكَّر ماضيه الجميل، وأيّام سعده، وركوبه مع أبيه حصانه الكُمَيْت المطَهَّم، ومرورهما من أمام الفلّاحين في حقول القمح الذَّهبيَّة، وعلى رأس أبيه عِقالٌ كبيرٌ مقصَّب، يرتدي عباءته البيضاء المقلَّمة بالرَّماديِّ الدَّاكن، فينتصبون تاركين الفؤوس من أيديهم، ويُجاملون الصَّبيَّ وأباه بكلماتٍ عذبة، والصَّبيُّ ينظُر لهم بشموخٍ بريء.

ـ شهمٌ مثل أبيكَ!
ـ يسلَم وُلْدُكَ يا شَيْخ العرب.

والأب والابن يردَّان بإيماءاتٍ، ويمضيان في وقارٍ. ويغتمُّ عاصم للذِّكرَى، ويُقارِن هذا بما آل إليه أمره حيث يُقهَر من ابن سائسٍ بسيطٍ لا ريب أنّ أباه قبَّل الأيادي وذاق طعم السَّوْط على ظهره.

يدخل عاصمُ من باب البيت ذابلًا منكسرًا مخزيًّا، يصعَد السَّلالم الخشبيَّة بتثاقلٍ وهو يتَّكئ بيده على رُكبته كعجوزٍ، يتوقَّف، يتذكَّر الصِّور العارية البغيضةَ، يستندُ برأسه على (**درابزين**) السُّلَّم، يتقيَّأ، يمسحُ عن فمه، يصعد وهو يرتعشُ من الصَّدمة، يدخل الشَّقة وهو يحمل همَّ النظرةِ الأولى لأمّه بعد أنْ عرف.

تغيَّر مع أمِّه ونَفَر منها، لم يعدْ يسأل عنها أبدًا، وإذا كلَّمتْه ردَّ عليها باختصارٍ دون أن ينظر لعينيها، وعلَتْ وجهه ذِلَّةٌ، وأمسى معظمُ نظره للأرض. ولاحظتْ تغيُّره ولم تفهَم، وحاصرته بعد حينٍ حتّى ألجأته لأَنْ ينطِق، ولم يكن يرغَب في الكلام أبدًا.

ـ قد عَرَفتُ معنَى الكلام الذي قاله سعد.

ابتسمت ابتسامة مَن لم يفهم: كلام؟ أيّ كلام؟

قال وعيناه للأرض بصوتٍ خجولٍ واهن: يتَّهمكِ بأن لكِ رجلًا آخر.

صَرَختْ، وقالتْ مغلوبةً على أمرها، وهي تدقُّ بقبضتيها على السَّرير الممدَّدة عليه.

ـ مَن وضع على ظهركَ حِملًا آخر؟! مَن فهَّمكَ هذا؟

فقال بوجهٍ قاسٍ ينظر للأرض: أنا كبِرتُ، ولا بدّ أن أعرِف.. (**ثمّ فتح فمه مثل أي مقهورٍ مكسور النَّفْس**).

نظرتْ إليه فوجدته يائسًا منكسرًا، جامدَ الوجه، لا يعزِّيها على بشاعة التُّهمة، ففَهِمتْ أنه متشكِّكٌ، فبكتْ.

ـ لماذا تبكين؟ لماذا؟ (**وجَزِع؛ إذْ شَعَر بأنها ستنهار على انهيارها، وتعترف له بشيءٍ خطيرٍ مقزِّز**).

فنظرتْ له نظرةَ غضبٍ أفزعته لم يرَ مثلَها منها مِن قبْل، وصمتتْ ونظرتْ للسَّقف وهي مضطربة الأنفاسِ غيظًا قابضةً على الغِطاء.

ـ كلِّميني إذًا.

ـ ابعدْ عن وجهي.. حتّى أنت؟!... ربّنا يذلُّك يا سعد.

ـ أريحيني.

ـ سعد فرَّق بيني وبين ولدي! (**وانخرطت في بكاءٍ حادّ**).

أريحيني.

ـ ولم أُضْرَب إلَّا فيه، لوْلا ولدي وخوفي على حقوقه ما ضُرِبت.

فبكَى الولد: يا أمّي، أريحيني.. أنا تَعِبتُ تعِبتُ.. يا ربّ، خذني.

أخذ يلحُّ عليها، لكنّها لم تشأ أنْ تردَّ عليه، فصَعِد للسَّطح يبكي وحده، لاعنًا سعدًا وإخوته، ولاعنًا حافظًا، والدُّنيا.

خاصمتْه ليومين لا تردُّ فيهما على سؤاله عنها، ولا تعبأ بتمسُّحه فيها، ولا بهرولته لقضاء حوائجها التي لم تندبْه لها. وكان الجَدُّ متعجِّبًا من ذلك، وسألها وسألَه فلم يجد إلَّا إنكارًا وتهرُّبًا. وفي اليوم الثَّالث من مصارحته لأمِّه، وصدمتها فيه، كانت حالتُها قد تأخَّرتْ كثيرًا، وخيَّم شبح الموت في فضاءِ غرفتها، ورفَضَتِ الدَّواء وهي تبتسم ابتسامةً مرعبة.

وكان عاصمُ في الصالة مع الجَدِّ والأقارب في المجلس الحزين، يسمع لجَدِّه الذي أصْبَح مبحوح الصَّوْت، يسمعه وهو يحكي بمشقَّةٍ لأختِه عن هذا الحلم الذي رآه لزوجه المتوفَّاة أمّ صابرة: (**قد جاءتْ وعلى رأسها طَسْتٌ فيه إبريق، وعلى كَتِفها قُماشٌ أبيض، وأخذت تروح وتجيء أمام باب الشّقة متعجِّلة. وفتحتُ لها الباب، وانفزعتُ من رؤيتها، وقلتُ لها: ماذا تريدي يا مَـرَة أنتِ؟! قالت: أمهلني كي أحمِّم البنتَ يا صابر، وأخرُجُ بها؛ أهويِّها من هذا الضيق. قلتُ: اخرجي يا مَرَة يا ميِّتة من هنا، وابْعدي عن ابنتي. ووقعتُ على الأرض منهارًا. وقَعَدتُّ أنادي على صابرة: اجري يا صابرة.. أمّك جاءت لتأخذك.. اجري، اجري.... وأنادي، وأنادي، لمَّا بُحَّ صوتي**).

بكى وأبكى الحاضرينَ جميعًا، بلا صوتٍ كانوا يبكون، مراعاةً لمن بالدَّاخل ترقدُ واهنةً وحولها جماعةٌ أخرى من البلد. استسمحتْ معيديها جميعًا بأن يُدخِلوا ابنها، ويتركوها وإيَّاه، فأدْخلوه عليها وهو يمسَح دمعه. وقف الولدُ أمامها ملتبسَ المشاعر، حبٌّ جارفٌ وشفقةٌ على أمِّه التي تموت، شوَّشهما شكٌّ ذابحٌ، رغبةٌ في ألَّا يرهقها وألَّا ينكأ جرحَها مرَّةً أخرى، وأمنيَّةٌ بأنْ يعرف الحقيقة كاملة. كان يحسُد هؤلاء الذين يبكونها بكاءً حارًّا خالصًا، راضين عنها كلّ الرِّضا، ولا يشعرون تجاهها بغير الحبِّ والشَّفقة.

- تعال.

فاقترب ببطءٍ محرجًا لا يريد أن يرفَع عينيه فيها.

- سأموت رافعةً رأسي.. وارفعْ أنتَ أيضًا رأسَك، وعينَك؛ لأنّك أنت ابن مصبح.. ولعنة الله عليَّ لو كنت كاذبةً.. إذا كان يُسعِدكَ أنْ تعرِف أهلكَ، فأهلُكَ هم هؤلاء الذين طردوك.
- أنا من عرب (**مفلح**)؟.

ـ نعم، والله، أنت منهم.. ابنُ عائلتكَ وقبيلتكَ رغمَ أنْف الكلِّ.. منهم حتّى لو ماتَ مصبح.. أنت ابن مصبح.. والله، إنّكَ ابنُه، ولم أعرِف رجلًا أبدًا، والله شهيدٌ على ذلك.

ـ وأخٌ لسعد؟

ـ نعم.

ـ احلفي.

ـ هذه لا أحلِف عليها أبدًا.. شكَكتَ في أمِّك ـ يا عَفِن ـ ولم تشكَّ في أمِّ سعد؟!

فهزَّ رأسه يعلن فهمَه: فهمتُ.. ولكنْ لماذا قال سعد هذا الكلام الوَسِخ؟

ـ سعد جبَّارٌ وغاشمٌ وغَضوب، وإذا غَضَب لا يدري ما يقول، ثمّ يأنَف أنْ يعتذر. ألا تعرف ذلك يا عاصم؟!

ـ صَحَّ.. وأنتِ صادقةٌ يا أمَّاه؟

ـ والله، صادقة.

وابتسم، وأخذ يعصِر ذاكرتَه ليؤكِّد كلام أمِّه: وكان كثيرًا ما يغلط على الخلْق، فيشتكون لأبي.

ـ وكان أبوك يقول هازئًا حزينًا من أفعال ابنه البكْر لمَّا يعود للبيت.

فقال فرِحًا بعينين تلمعان: لا تكْملي. أنا سأقول: (**هذا ثَوْر بيت مفلح**).

ـ صَدَقتَ، وصَدَق أبوك.

فقبَّل يدَ أمِّه، وقد امتلأ قلبُه بحقدٍ طاغٍ على سعد، حقدٍ أكبر من سنواتِ عمره، وأكبر مما يتحمَّله قلبه.

- أمَا وقد كان سيغيِّرك عليَّ، ويشكِّك فيَّ قبل موتي، وأنت كلّ شيءٍ لي، فاعرف أنّ كُرهي له الآن أكبر ممّا تتخيَّل، وأكبر ممّا أحتمِل، ولوْلا إنّك أنت أنت لما كلَّمتُكَ أبدًا. واعلَم أنّني لا أسامحكَ الآن على هذا الشَّكِّ إلَّا بشرط: لن أسامحكَ حقًّا إلَّا إذا انتويتَ الثَّأر، ومن سعد خاصَّةً، تشِبُّ، يشتدُّ عودُكَ، تتصيَّده، وتنتقمُ لأيّامنا هذه السَّوداء.. انْتوِ الثَّأر يا عاصم.. بعزم رَجُل.

فقال بعزم: نوَيتُ الثَّأر.

- إذًا اصعدْ للسَّطح وأحضرْ أصِيص الصبَّار، ولا يدخلْ علينا أحدٌ، ولا جَدُّك.

- لم الصَّبار؟

- هو.. الصبَّار.. أقصِر.. يا عاصم.. فأنا..أنا أُودِّع.

وصَعِد وجَلَب الصبَّار معه. وكان سعيدًا رغم حالة أمِّه المنهارة؛ سعيدًا لأنّ غَمامةً رهيبةً قد انقشعتْ من سمائه اسمها الشَّكُّ، فمنذ دقائق كانت المظلومةُ ظالمةً، وفقدتْ قضيَّته أيَّ معنى، لكن الآن، سقطَ عن ظهره هذا الهمُّ المهين الذي حمَّله حافظٌ صائدُ اليمام، فنزل بوجهٍ جامدٍ يقبض فيه على الفرحة التي أضاءتْ أعماقه؛ حتّى لا تنكشف سعادتُه للحاضرين في هذه الأجواء الحزينة، آنَ له أنْ يحزن حزنًا كريمًا نقيًّا كالآخرين، لمَّا آمن أنّ أمَّه لم تتعرَّ قطُّ لغريب. ومرَّ من أمام الجالسين بجدِّيةٍ وسرعة، تمامًا مثل طبيب يمرُّ إلى حالةٍ متأخِّرةٍ، وليس عنده وقتٌ لينظر حوله، ودخل عليها وأغلَق البابَ خلفه، والنَّاس في الصّالة وباقي الحجرات في عَجَبٍ من جلبه للصبَّار لها.

وقَرَع الجَدُّ الباب، لكنّه لم يفتح له. وأمرتِ ابنَها بفتح النَّافذة التي تطلُّ على مَنْوَر البيت، وأن يطفئ الشَّمعِدان. فسار صامتًا كجنديٍّ مطيع وفَتَحَ النَّافذة، وأطفأ الشَّمعِدان، وقبَّل يدَها. واعتدلتْ واتَّكأتْ على ظهرِ سريرها بصعوبةٍ. ونظر الولد فزِعًا من ملامحها اليابسة العابسة؛ هذان الموت والثأر يعويان في عينيْها في ضوء النَّهار، ويدان مرتعشتان، وشَعْرٌ خفَّ كثيرًا، وتبسُّمٌ تحاوله فلا تطيعها الملامحُ البائسة. كانت ملامحُها تجسِّد الضَّعف والهوان، غير أنّها كانت ملامح مخيفةً بصُفْرة الموت، وبالألم الطَّاغي، كشبحٍ كانت في الخُصَل الهزيلة الباقية من شعرها الأحْمر، شبحٌ خائفٌ ومًخيفٌ..

- هل ستثأرُ حينما تشبُّ؟

فقال وهو يصرُّ أسنانَه: نعم.

- أعدَّ نفسَك منذ الآن لثأرنا، أعدَّ قلبَك، لا لهو ينسِّيكَ.. ولا شُغْل يشغلكَ.. عندي وصفةٌ ستساعدكَ على أنْ تظلَّ بمرارتكَ ونارك.. حتّى لا تنسَى.

- ولكني لنْ أنسَى.

- الحَسْ بلسانكَ هذا الصّبَّار كلّ يوم قبل أن تبيتَ في فراشكَ.. وقلْ: (**هذا هو المرُّ الذي أذاقنيه أَولاد مصبح**).

- كلّ يوم؟

- أجل، وًعاهدني على ذلك.

فقال وعيناه تقدحان بالشَّرَر: أُعاهدكِ.

- أرني الآن.. والحسْ بكلّ لسانكَ.

اقتربَ الولدُ من ورق الصبَّار ببطءٍ، وأغمضَ عينيه، وأخرج لسانه كلَّه، ولَحِس به الورقة.

- **(إع.. إع.. إع)**.

فقالت تستنطقه وعلى وجهها تفاعلٌ عظيمٌ وحثٌّ: ما هذا؟

قال وعلى عينيه شراسةٌ ممّا تذوَّق: هذا هو المرُّ الذي أذاقنيه أولادُ مصبح!.

فهزَّت رأسَها وابتسمتْ، وتاهت عنه، ونظرتْ للدّنيا نظرةً أخيرةً تجمع بين الانزعاج والفضول والتّخوُّف، كنظرة حديثِ الولادة، ثمّ أغلقتْ ببطءٍ أجفانًا متقرِّحة، ووقعتْ على جنبها ميِّتة، ووجهُها مغطًّى ببقايا شعرها.

الفصلُ السّادس

بعدَ أن دُفِنَتْ أمُّه، عاد مساءً للحجرة مستوحِشًا، يبحَث عن أنفاسها وصدَى صوتها، ويشمُّ رائحتها في ملابسها، ويضمُّ إلى حضْنه خُصْلةً من ضَفائرها التي قصُّوها لها إلى كَتِفها لمَّا بدأ شعرُها يتساقط.

وشردَ في وجهها الجميلِ البشوش في أيّام النَّجع ومرحها حتّى التمعتْ عيناه، ثمّ أفاق على ملامحها الحزينة البائسة في أيّامها الأخيرة، حتّى اعتصر الألمُ كبده. وبعد أنْ عذَّبته الذِّكرَى صَعِد إلى سَطْح البيت، وانزوي بركنٍ وفي يديْه أصيصُ الصبَّار، يلحسُ الصبَّار وقد انقبض وجهُه البريء، (**هذا هو المرُّ الذي أذاقنيه أولادُ مصبح**)، ثمّ نزل إلى الغرفة وأوَى إلى فراشِه محتضنًا خُصلتها باكيًا، وتوسَّد يتمَه والمخدَّة، بعد أنْ فَتَح النَّافذة؛ لعلّ هذا الموت الذي طار بحبيبه، ينفذُ إليه ويحتضنه حضنًا أبويًّا، ويحمله إليهما بين ذراعيه حيثُ راحا، غير أنّه استيقظ ووجد نفسَه مازال ملقيًّا بالدُّنيا، استيقظ على صبح اقتحمَ نافذته بشعاع كئيب، جاءه الصبحُ ضامرًا لاهثًا سمجًا، فأثار في نَفسِه نفورًا شديدًا جلَب عليه القشعريرة، كذلك النّفور الذي يعتري مَن يكره الكلاب إذا ما تمسَّح وتشمَّم فيه كلب.

وحَبَس نفسَه في البيت أيامًا مكتئبًا، وقد اكتملتْ عليه المواجع، لا يدري مَن سيكون هو، لا يدري ماذا ينتظرُه وماذا سيدقُّ بابَه، هل سيظلّ بصرُه حديدًا على هذا العالم الذي مضى بما فيه من شقاء وأشقياء، أمْ سينساهم وينسى المكان، ويرمي ما فاتَ وراء ظهره؟ هل تدبُّ فيه روح الوحشيَّة التي سرتْ في إخوته، أم سيرقِّق الحزنُ فؤاده ويمضي في الدّنيا هيِّنًا طيبًا كما مضى عثمان؟ كلّها أشياء مؤجّلةٌ في وعد الصبَّار المرير البعيد، الوعد الذي قد يعطي كلَّ شيءٍ، وقد لا يعطي أي شيء.

أمَّا الشّيخ عثمان فاختار أنْ ينسى، اختار الخروجَ بعد عشرين عامًا بما في الخروج بعد هذه المدّة الطّويلة من شعور بالألم والغصَّة والانتزاع، سيفارق أرضًا طرد العقاربَ منها، وشمَّر عن ساعديه في تعْميرها وزراعتها وجريان المياه فيها، عثمان خرج، عشرون عامًا قضاها وهو لا يدخل النّجع قادمًا من الرّيف إلَّا ومعه ولوْ ملء كفّيه من الطّين يرميه في أيّ مكان بالنّجع حبًّا وحرصًا، عادةٌ سيطرتْ عليه منذُ أيّام جلب الطّين من الرّيف على ظهور الإبل، وأهل النّجع جميعًا يتندرون منها تندُّر المحبِّ، ولقد قاوم عادته في دخولِه للنّجع هذه المرَّة الأخيرة عندما جاء وحدَه على بغلتِه بعد أنْ عاد بأهله إلى بلدِه الأصليِّ، دخل ثابتًا يكبحُ قلبه الطيِّب لا ينظرُ في عيون النّاس، ذاهبًا لبيع بيته وحقله الصغير، وفي خروجِه غمره الضّعفُ حينما أخذَ يملأ عينيه من مناظرِ البلد ويسمع للعصافير، هبَّت عليه العواطف والذّكريات، للعقارب تغادرُ البلد، للماء يجري في المصْرف، لحجر الرّحى يدور أوَّل مرَّةٍ في المعصرة، للدّرس الذي يلقيه عند بيتِه بعد صلاة العشاء، يتلفَّت حوله ليتأكّد من عدم وجود عين تراقبه، ينزل مِن أعلى بغلتِه، يُخرِج من جيبه كرةً من الطين جلبَها معه، ويفتتها تحتَ شجرة، فاستحت منه عينٌ كانت ترقبُه من فوق السّطح، سطح بيت مصبح.

في الأيَّام الأولَى التي توافد النَّاس فيها للعَزاء، جاء ضيفٌ في عمر جَدِّ عاصم ليواسي الجدَّ المسكين. والجَدُّ كعادته يتكلَّم وكأنّ جليسه بعيدٌ فيجهرُ بصوته، والرَّجل يهزُّ رأسه متأسِّفًا، ويردُّ ويُعزِّي بلَهْجةٍ بها مسحةٌ ريفيَّةٌ باقية. أخذ عاصم ينظرُ إليهما من خلف السِّتارة التي تستر الطرقة التي بين المطبخ والفَسَحة، هذه أوَّل مرَّةٍ يرَى فيها هذا الرَّجل. وخيالُ الولد على السِّتارة ظاهرٌ لهما، يشتِّت أفكارَ الضّيف الذي كان يبدو أنّه يرغب في الانفراد بصابر، ويحتمي بهذا الخيال الجدّ صابر الذي يبدو أنّه لا يرغب في الانفراد بالضّيف. اللِّقاء مرتبك، بين رجلين فقَدَا القدرة على التصرُّف على طبيعتِهما، صابر يحاول أنْ يبدو قويًّا، يعيدُ ويزيدُ في الكلام عن المرض المفاجئ الغامض الذي أصاب ابنتَه، فجاءتْ تُمرَّض عند أبيها، فاشتدَّ عليها، فتوفَّاها الله؛ الأمرُ مرضٌ إذن، لا طرد، لا إهانة، لا شيء آخر غير مرض مفاجئ. الجَدُّ يبدو كمَن يحاول أنْ يمنَع شَماتةً عن نفسه وابنته من هذا الضَّيف الثَّقيل على قلبه. والضَّيف ذو الرّقبة الطويلة والحنجرة البارزة والصّوت العريض حزينٌ حقًّا، غير أنّه يبالغ في التَّأثُّر وطأطأة الرّأس حتّى لا يُتَّهَم في زيارتِه، متورِّط في أداء الحزن الشاقِّ، له عين تكذِّب كلامَ صابر، وعين تتغابَى وتلتمسُ له عُذْرًا، ولم يعدْ يرغبُ في الانفراد، ولم يعدْ خيال عاصم يشتِّت أفكارَه، صار كلّ حينٍ يرنو إلى ظلِّ عاصم على السِّتارة يبحث فيه عن مخْرَج، يرجو لو توقَّف صابر قليلًا عن الكلام، حتّى يطلب منه أن يُرِيَه حفيده.

وبعد أنْ فَرَغ الجدُّ ممّا عنده سَكَت، وارتاحتْ عينا الضَّيف من التَّكذيب والتَّغابي، تبادلا النظرات طويلًا، حتّى اضطربت شِفاههما وصارا على حافَّة البكاء، حوَّلا نظرهما للأرض وساد الصَّمت، ثمّ قال الجَدُّ منفعلًا: (**تعال أحطُّ خَيْبَتي على خَيْبَتكَ يا إسماعيل يا دكروري**). وبكى الرَّجلان، وتأوَّها آهاتٍ طويلةً، وكلّ منهما في مكانه قد مدَّ

رقبته، كطائريْن يردَّان على بعضهما البعض من أعلى تلَّتين، فانفعل عاصم معهما من خلفِ السِّتار، وانثالتْ دموعه، ونَزَل مِلْحها إلى شفتيه، وانسحب إلى المطبخ ليبكي عندما أيقظَ الشَّيْخان أوجاعه، في قليلٍ من الضَّوء الشَّاحب، يشاركهما الآهات من الدّاخل. وبعد قليلٍ، أخذ يحدِّق في زجاجة الشَّربات أمامه، ولم يجد حرجًا في أن يعدَّ لنفسه كوبًا، فيشربه وهو يبكي مقرفِصًا على أرضيَّة المطبخ.

وفي نهار يوم قريب، ومازال في انقطاعه عن الشَّارع ولا يرَى إلَّا جَدَّه، استمع إلى جَلَبَةٍ من الشَّارع، فأخذ يحدِّق من خلال الفراغات بين برامق المشربيَّة، حتّى تأكَّد من أنّها معركةٌ حامية؛ ففتَح نافذة المشربيَّة، ولم يرَ إلَّا رجالًا أشدَّاء ملتفِّين على رجلٍ يوسعونَه ضربًا، وهو يكابد ليخلُص من تحت أيديهم كفأرٍ باغتته القِطَط، وأهلُ الشَّارع حولهم يتابعون، فجرَى ونزلَ إلى الشَّارع يدفعه فضوله. وعند بابِ البيت توقَّف مرَّةً واحدة، وقد صُدِم بالمعلِّم حافظ أمامه يبكي، ولم يشأ أن يُريَه أنه يراه، كأنّه يرفض أنْ يرى الدّمع في عين الطّاغية الصّغير، تجاهله وتحرَّك بعيدًا تجاه الصِّبيان، واستطلع الخبر منهم، وعرف أنّ أبا حافظ غازل جارةً جديدةً في ذاتِ البيت، وعَرَض عليها أنْ يكونا صاحبين، فذهبتْ لزوجها الحدَّاد وأخبرته، فجمع أقاربه وزملاءه من الطَّائفة، وتربَّصوا به على المقهَى الذي عند البيت حتّى عاد، وانقضُّوا عليه كالنُّسور.

ووقفَ عاصم في المسافة بين حافظ وأبيه الملقَى على الأرض، يبدِّل نظرَه بينهما؛ والرَّجل مشغولٌ بدفع اللَّكمات والصَّفعات قدْرَ طاقته، وينظرُ أحيانًا بحسرةٍ تجاهَ ابنه، ابنه الذي اتَّخذه مثلًا أعلى وعقيدةً وخيارَ معيشة، ابنه الذي رآه فارسًا لا يُقهر؛ والابن يبكي وينخي أباه:

- قمْ يا أبه.. قم اضْربهم بالجزمة.. قمْ.. قمْ.. قمْ.

حافظ منفعلٌ، وكَأنّه لا يصدِّق أنّ أباه لن يقوم، لا بدّ أنه سيعتدلُ الآن في اللَّحظة الأخيرة وينقضُّ عليهم، سيقوم، إنّه يحاول.. يحاول مرَّةً أخرَى.. اللَّعنة! وأخيرًا، استسلم تمامًا، ولم يعدْ حتّى يدفع الصَّفعات عن وجهه. ها هوَ زوج المرأة يضعُ حذاءه على خدِّ الطَّريح، والخدُّ الآخر ملتصقٌ بالتُّراب، وفي العين آهةٌ مكتومةٌ وخزيٌ رهيبٌ وإحساسٌ بالاغتصاب.

بحَّ صوت حافظ، وانطفأتْ جَذْوَة انفعالِه، وارتخَى أخيرًا حاجبُه المشاكس المرفوع دائمًا. وتجمَّع الصِّبيان أصحابُ الحقوق على المعلِّم حافظ، وسَحَبوه من قفاه، فمضَى في أيديهم بلا مقاومةٍ رغم قوَّته، مضَى مهزومًا من قبل أنْ يُضرَب. وعندما أرادوا أنْ يوقعوه أرضًا، وقعَ معهم بيسرٍ كأنه يسهِّل المَهمَّة، ووضعَ يديه بجانبيه، وضمَّ قبضتيه ليُضرَب بسهولة، واستغلَّ ضَعيفو اليدِ منهم والخوَّافون هذا الهوانَ، وعضُّوه في تقلُّبه في إليَتيْه.

عاصم متسمِّرٌ مكانَه في ذهول، لايصدِّق ما تراه عيناه، اختلطتْ عليه مشاعرُ الشفقة على حافظ الغائبِ أمامه في قلبِ إعصارٍ عتيٍّ هبَّ فجأة، ومشاعر الشّماتة في هذا الطاغيةِ الذي أذلَّه، والصَّدمة كانت عنده أشدّ من شعوري الشّفقة والشّماتة، الصّدمة من انهيار حافظ المفاجئ، ومن بسالة الصّبيان، وسرعةِ استجابتهم للتّداعيات، كأنّهم باتوا بالأمس وقد مرَّت عليهم ملائكةٌ في نومهم ثبَّتتهم، وهمست في آذانهم الغَفْلى بنبأ هزيمةِ الطاغية.

أنْهَى الصِّبيان مَهمَّتهم، وقاموا من فوقِه مبتسمين نافخين صدورَهم. وبعد ساعة، كان عفش البيت على ثلاثِ عربات (**كارّو**) بعد أنْ حكم عليهم شيخُ الحارة بالطَّرد. نزلتْ أمّ حافظ مستترةً وركبتْ في حياءٍ ورعبٍ وذهولٍ تعُضُّ على طرحتها، وركبَ زوجها المضعضَع، ووجهُه لا

تعبير فيه، فقد تورَّم بما يُخفِي أيّ تعبيرٍ. ورمتْ زوجة الحدَّاد قُلَّة ماءٍ من أعلَى؛ كعادةِ أهل القاهرة وقتها عند رحيل جار سَوْء.

وتحرَّكتِ العربة بهم، وعليها المفارشُ والمخدَّات والحصائرُ والأواني، بعد أن تحرَّكتِ العربتان الأخريان محمَّلتين بالأثاث. وحافظ في الخلف وجهُه للشَّارع مُدلدلٌ ساقيه، ينظرُ بعينين قاسيتين ومنكسِرتين معًا لعالمه الذي يمضي. لوَّح عاصمٍ بيدِه إلى حافظ، فلوَّح له حافظ بعد تردُّدٍ تلويحةً مُستَغربة، كأنّه غير متأكدٍ من أنّ تلويح عاصم له، لسانُ حاله يقول: لم أعدْ مخيفًا، فلم يلوِّح لي؟!

سرَّ عاصم بنهاية أبي حافظ؛ واستبشرَ بسقوط هذا الظالم، لكنّه كان مشفِقًا على طِفلٍ مثله انهار يقينه وتقوَّض عالمُه فجأة، وكان مثله عليه أن ينسَى أو يفكر في الانتقام، حتّى أنّه مسك نفسه عن البكاء، ولعلّه من تلك الفئةِ الغريبة التي تشمئزّ من الطّاغية، ثمّ تنفجرُ فيها مشاعرُ الحبّ والولاء له حينما يسقط ويذلُّ وينفضُّ عنه الناس.

أعطى حافظُ ظهرَه لظهور أبويْه وإخوته على نفس العربة، الأسرةُ ترحَل لعالم جديدٍ، وحافظ ينظر لعالمه، تمامًا مثلما أنّ أبوَي عاصم رَحَلا إلى عًالم الموتَى البعيد الغامض، وعليه هو أنْ يحدِّق في الماضي للأبد، ويلحس المرَّ من أجلِ الانتقام. فرأى نفسَه هناك على رفرفِ العربة الخلفيِّ مُدليًا ساقيه مكانَ حافظ، ينظرُ للإخوة الثَّمانية بعينٍ جمَّدها الغيظ، ورأى أبويه على الرَّفرف الأماميِّ في أكفانهما البِيض مُغمَضي الأعين، لا يهتمّان بشيء ممّا صار من خلفهما.

الفصلُ السّابع

لعلّه في مثلِ هذه اللَّحظات التي كان يودِّع فيها عاصمُ المعلِّمَ حافظ البائس، كان آلُ مفلح يستقبلون شيخَ عموم القبيلة الذي جاءَ ومعه جمعٌ غَفيرٌ من الوجَهاء في زيارةٍ غير مرتَّبة، كانوا قد جاؤوا من أجلِ عيادة مصبح بعد أنْ عرفوا أنّه في مرض الموت، ولمَّا نزلوا في أرض على مسيرة يوم من النجع أرسلوا مرسالهم يعلنُ عن الزّيارة، فرجع المرسالُ بخبر وفاةِ الشّيخ مصبح، وكذلك دسَّ معه البعض تفصيلَ ما حدث في يوم رحيل الشَّيخ، وفضائح أبناء مصبح مع الغجر. عندما وصلوا نصبتِ العائلةَ لهم خَيْمةً كبيرةً في البرِّ فوق الوادي، بعد أنْ رفضوا النزولَ في مجلس الضيوف ببيت مصبح المخصَّص لاستقبال ضيوف النّجع، متحجّجين بمناسبة الجوِّ للخروج إلى البرِّ ولحياة الخيام.

وفي الأيّام الأولى،لم يتكلَّم الشَّيخ مع الإخوة في شأنِ ما حدث، بل ولم ينفردْ بهم بأيّ حديثٍ، ولم يتعاملْ معهم معاملةً تليقُ بمن سيخلفون أباهم الذي كان واحدًا من خمسةٍ يحكمون في عموم القبيلة في برِّ مصر، ولم يكنْ يحييهم إلَّا بالإشارة لشبابهم: (**أهلًا بالشّباب، مرحبًا بالشباب**)، كأنّه يشير لضعف خبرتهم وقلَّة حكمتهم، ليمهِّد لهم خبرَ تنحيتهم عن

كرسيِّ أبيهم، حتّى صار كلّ ما يتمنَّاه الإخوة هو رحيلَ الشيخ ومَن معه مِن دون أن يتكلَّموا في شيءٍ، رضوا منه بالتّجاهل على ألَّا يتخطَّاه إلى ما هو أشقّ عليهم، فبوجود هؤلاء الوجهاءِ القبليين المحمّلين بروح التّراث والبداوة، وفي داخل خيمةٍ تمثِّل السكنَ القديم للآباء، وفي أسمار حكايات البطولة والمروءة، تخلَّصت نفوسُ أهل النجع من شيءٍ كثيرٍ مما ألمَّ بها من تغيُّر نمطِ حياتهم إلى الاستقرار والزّراعة، وتحرَّك الأعرابي المكبوت في كلّ منهم، وتأجّج فيهم الإحساس بالعزّة، وشعروا بشيءٍ من النديَّة أمامَ الإخوة، مما أصاب الإخوة بقلقٍ حقيقيٍّ.

وبعد مرور الأيَّام الأولى، وبينما كان الإخوةُ يكتمون أنفاسَهم منتظرين نداءً عن نيَّة الوفد القبليِّ للرّحيل، خيَّب الشّيخ رجاءهم، أرسل لهم بأنّه يريد أن ينفردَ بالثَّلاثة الكِبار منهم بعد العشاء في حديثٍ هامٍّ: سعد ومفلح وغازي. وأدركوا أنّ الجلسة لا بدّ وأنْ يُحسَم فيها أمر المشْيخَة بعيدًا عن سعد، وسيسمعهم فوقَ ذلك ما لا يحبُّون تغليظًا على أفعالهم.

وخرج سعد وغازي الموكّل لهما الحَلُّ والعَقْد في أمور الأسرة؛ البِكْر الشّديد، والدّاهية اللبق، خرجا وحدَهما، أمَّا مفلح ثاني الأبناء، فبعيدٌ عن هذه الأجْواء، يشغَفَه العزف على (**السِّمسميَّة**) والغناء، ويخرُج لأيام في رحلات لهوٍ وصيدٍ مع المترَفين من شباب الأحياء العربيَّة الأخرى، بينما يتململ ويتكدَّر وجهه إذا دُفِع لمجلس جدٍّ ساعةً من نهارٍ، وكان يبدو شكلًا ومسلكًا أصغر من غازي، وكان رأيُه أنّ المشيخة شيءٌ أبله لا قيمةَ له، وأنّه يمكنهم الاعتذارُ للشّيخ مانع بأيّ حجةٍ وعدم الذهاب له، ولا مشكلة في تجاهله كما تجاهلهم.

خرجَ سعد وغازي يتجوَّلان في الأرض بين أشجار الزَّيتون، وكلّ منهما يحمِل عصاه على كَتِفيه ويقبِضُها بكفَّيه، ووجهاهما للأرض يفكران ويُفرِغان ما شُحِنت به النفس.

سعد: صدِّقني ليسَ هذا فقط، أتريدُ دليلًا آخر على أنّه عاش عمره يفعل ما قد نهى عنه؟ لقد ذهب مع أحدِ وجهاء مِصْر إلى حفلٍ في قصر محمد علي باشا في (**شبرا**) وَسْط عددٍ من الصَّفوة، وتعرَّف حياةَ الرَّفاهة، والمسابح، والنِّعَم. ورجعَ لأهله هنا يداري اهتزازَه، وأخذ يهزَأ من التَّرَف والبَذَخ ونعومة المأكل والملبس، والزِّينة والخَميل والحرير وفَسْقيَّات الحدائق، وفي صوته شيءٌ، شيءٌ كان كالنَّزف. ثمّ إذا به بعدَ قليل يُحضِر رجلًا ليصنعَ له الفسْقيَّة. ولم يشعر بحَرَج لأنّه لا يُراجع من أَحدٍ هنا في حيِّ الأموات هذا، ومثلِ هذا الكثير. عندما كان يندِّد بشيءٍ لا نألَفه في حياتنا، كنتُ أنا ابنه البِكر ـ الذي يعرفه جيِّدًا ـ أرَى في عينيه رغبةً ورفضًا يتصارعان، ثمّ يستسلم للرغبة دون حرجٍ مما كان يقوله. حتّى أنّه عندما لم يتعرَّض للغجر ومجونهم في جلساته، أدركتُ أنّه لن ينزل أبدًا للعشش، وأيقنتُ أنّهم لم يثيروا إعجابه أبدًا.

ـ دعْنا وما نحن فيه.. رحمة الله عليه.

سعد: ماذا تظنُّ؟! أنا أحبُّه مثلكَ، لكني أكره حبَّ النَّاس له.

ـ دعْنا وشئون الحياة يا سعد، ودعْ أبانا في قبره.

ـ عندك حقٌّ.. أتراه سيفعلها الشَّيخ مانع؟

ـ أظنُّه سيفعلها. لقد تأكَّدتُ من أنّه قد وصلتْ لسمعِه أخبارُ ليالينا الملاح ورَواحنا لعشش الغجر، وما فعلناه بأمِّ عاصم وولدِها، وهذه وتلك معًا كفيلتان بخروج الأمر منَّا.

ـ ولكنْ لن تخرُج المَشْيَخَة منَّا بهذه البساطة!.. هي قميصٌ مفصَّلٌ علينا، ونحن وحدَنا أهل له.. نحن هنا النَّاس، وما هذا الوادي من حافَّته للثَّانية إلَّا بستانٌ لمصبح.

ـ كنتُ أستطيعُ أنْ أعتذر له عن رَواحنا للغجر، طالما أنَّنا نفسُق بعيدًا عن بيوتنا، ولكنّكَ...

ـ ولكنّكَ؟!

ـ أسْرَفتَ على المرأة وابنها، وسقتنا خلفضك، واعتدينا على الأرْملة، أرملة الشَّيخ، وبين العرب.. وهذه معرَّةٌ كبيرة!

ـ اسكتْ.

ـ أنا نفسي صرتُ متأكِّدًا من أنّ مصبحًا لم ينجب ابنًا مثله. كنت أظنّ أنّني وحدي مثله. أنت فجعتني في نفسي.

ـ سدَّ حَنَكك.. لقد فعلتُ هذا من أجلكم جميعًا، فلا تحاول أنْ تُظهِر الأمر وكأنّي سقتكم ورائي.. أتريدُ للغريبة الطَّامعة أن تشاركنا وَرْثنا من أبينا وأنت اللَّبيب؟!

ـ يا رجل، لقد اتَّهمتَ امرأةَ أبيكَ في شرفها! وما علِمنا عنها شرًّا.

ـ نعم، ما علمْنا عنها شرًّا. لكن ما ضرُّها إذا تحمَّلتْ تلك المهانة، وصَمَتتْ وانتهَى الأمر على مشيها بهدوءٍ؟ أنا لنْ أسامحها هذه المرأة أبدًا لأنّها اضْطرَّتني إلى ضربها وصفعها، لن أسامحها.. ما كان عليها إلَّا أنْ تصمُت وتبتلع المهانة.

ـ أيّ امرأةٍ شريفةٍ سترُدُّ، حتمًا.

فقال بحدَّة: ليس بالضَّرورة.. لو خافتْ ما كانت لتنطِق.. لكنّها لم تخَف! الشَّريفة الجبانة لن تنطق.. لكنّها لم تخف!

ـ ولكنْ يا سعد..

ولكنْ لا تدَّعوا الفضيلة.. وبلِّغ إخوانَك نفسَ الكلام نيابةً عنِّي، وقد رأيتُ في عيونهم شيئًا من اللوم منذ أنْ سمعوا بقدوم الشَّيخ مانع.. أنتم جميعًا وافقتم على خروجها، وكلُّكم رأيتم أنّه لا مقام لها بعد موتِ الشَّيخ، وهي صغيرةٌ وجميلة؛ فنحن نغارُ على أفراسنا أنْ تُسرَج لغيرنا، ولن نتحمَّل أن يطلب منها الزَّواج أيّ رجلٍ من الأهل بعدَ موت فحلنا. هذا كان رأيكم، وقلتم: عاصم سيرث جَدَّه صابرًا وحدَه، أمَّا نحن وأبناؤنا فسنرثُ مصبحًا، وستنقسمُ التِّركة على عددٍ كبير؛ وقلتم- وأنتم تعُدُّون على الأصابع-: عاصم سيرث معملًا ومتْجرًا وبيتًا وقطعة أرضٍ صغيرةً في بلد جَدِّه، أمَّا هنا فارتأيتم أنّ (**الدير لا ينقصُه رُهبان**) كما يقولون في المثل.

- أنا أكلِّمك عن الطَّريقة التي..

فقاطعه سعد: ما بكَ يا غازي؟! أبوكَ لم يقرَبها منذ عام. ورأينا في عينيه العجز، هذا العجز المهين، وتيقنَّا من بحثِه بين العشَّابين، فصار وجودُها تهمةً لأبيك، وصارتْ ورطةً لنا من بعده، فكان لا بدّ أن ترحل.

- ولكنّك تكرهها من قبْلِ عجز أبيك، من قبل حتّى أنْ يأتي بها من مصر إلى هنا.
- نعم، ولكن عندما عَجَز أبوكَ ما عدتُّ أطيقُ رؤيتها، كأنّها تخنقني يا أخي.
- والفظاظة..

قاطعه بحدَّة: الفظاظة.. الفظاظة! كنتم موافقين على طردها.

- الفظاظة هي التي ستُخرِج المشْيَخَة منَّا، وقد كنّا كِبار الجِهَة وبني كبيرها.. والفظاظة هي التي قد تدفعُكَ للرَّدِّ بلا تمهُّل على الشَّيخ الليلة فتسيء إليه.. وربما جمعَ علينا الجمْع ونكأً جروحًا.. انظرْ لرقابِ أهلنا وقد شمختْ، النّاس سخنوا من

وجودِ الوجهاء وحنُّوا للبداوة، أنت معك الكبريت الذي يمكن أنْ يشعل الأمر، فقط كنْ فظًّا معه اللّيلة، فيجمع الناس علينا، ونغادر النّجعَ بما تحمل البُعْران.. لنكون صعاليكَ بلا عائلة، حتّى تكون أسوأ رائدٍ لأهله.

- جاءك الهمُّ، سوَّدتها.. (**ثمّ أكمل بشيء من الاستسلام**) سأمسِك نفسي في مجلسه.
- يا ليت... (**ثمّ قال بأسفٍ**)، ولو كنَّا اصطبرنا عليها إلى عامٍ واحد!.
- أنا صَبَرتُ عليها تسعة.
- كانتِ الأيّام في صالحنا يا سعد، بعدَ قليلٍ ستطلُب هي الرَّحيل راضيةً لأنّه لم يعدْ لوجودها معنى. وكنّا جهَّزناها بجَهازٍ يليقُ بنا، وانتهَى الأمرُ من غير فَضيحة. الأمرُ تطلَّبَ صبرًا وسَعَةَ صدرٍ لأقلّ من عام وكفَى، ولكن غَلَبَتكَ قسوة طبعِك.

فقَعَد سعد على الأرض، وقَبَض قبضةً من طمْيها بكلِّ عنفٍ وهزَّ قبضته:

- الرِّجال القساةُ يعرفون النّعمة ويقدِّرونها ويحافظون عليها، ويورِّثون أبناءهم ميراثًا طيِّبًا.

ثمَّ ألقَى ما بكفِّه، وأكمل وهو ناصبٌ كفَّه:

- أمَّا الليِّنون الطَّيِّبون فليس لهم إلَّا قَبْض ريح.

ثمَّ قام، وأكملا التَّجْوال.

فقال غازي وهو يميل مُتفاديًا لغصنٍ ناشِز: ومن الجيِّد اليوم أنْ نخفِض رؤوسنا للرِّيح.

ـ أين الشَّيخ عثمان يا غازي؟ عاشَ الشَّيخ هنا سنواتٍ طِوالًا. وحمل بعضَ إخواننا بين يديه في صِغَرهم. وقادَه حظُّه العَثِر لأنْ يقف في طريقنا فآذينا نفسه. وأوصل الاثنين إلى القاهرة، وعاد ليعرِض بيته وحقلَه الصَّغير للبَيْع، فاشتريناهما بنصف الثَّمن، ورحل. هكذا الضُّعَفاء، كريشةٍ في مهبِّ الرِّيح، وكأنّه لم يمكث هنا دهرًا، ولم يهتمَّ أحدٌ!.. هل قلت لي أين الشيخ عثمان؟

ـ مضى، ولكنّه تحت كلّ شجرةٍ.

ـ ما شاء الله شاعر!.. إنّما مكان الرجال حيث يفرضون أنفسهم، أجدادنا لمَّا امتنعتِ الأمطار في برٍّ سيناء، ولم ينبتِ الحشيش: صَبَروا، ثمّ صَبَروا. ثمّ أخذوا حلالهم إلى حيث تُوجَد من بعد الرَّمل أرضٌ سوداء وماءٌ، حتّى وصلوا. وضحِك الأفقُ الأخضر لهم، ورحَّب بهم الظِّلُّ، وسال من أفواههم رِيالهم وهُم يمرُّون بجانب القُرَى كذئابٍ جائعة. وبُهِتوا لما رأوا الآدميّين يبولون في المياه التي كانوا قد نَسَوها، والزُّرَّاع يتمرَّغون في الوحل كتماسيح النِّيل على الشَّاطئ. وبحثوا عن نُجْعةٍ عند أطراف الخير، والتَمَسوها بقرب التّرعة بعيدًا عن سوادهم. ورغم ذلك، انتفض الفلَّاحون لطرد هؤلاء الأعراب الغُرَباء، الذين نزلوا في أرضٍ بجانبهم. ولم يكنْ يهمُّهم أنْ يتساقط هؤلاء هناك في شقوقِ الصَّحْراء ومغارات الجبال مثلما تنفقُ الثعالب الجائعة في الجحور، ولكن شدَّة أهلنا وآبائنا وأنيابهم التي كَشَروا عنها هي التي أسكنتنا هنا، وفرضت وجودنا.

في المساء قَدِم الرِّجال الثَّلاثة إلى خَيْمة الشَّيخ مانع، وكانَ لديه بعض النَّاس يسْمُرون عنده. كان الرَّجل فَطِنًا محنَّكًا خبيرًا بالتّعامل مع النَّاس، لم يكلّمهم في شيءٍ ودارتِ الجَلسة وكأنّه لم يستدعهم؛ حتّى يكبِت همَّتهم وإحساسَهم بذواتهم؛ ودارتْ فناجين القهوة، ودارت الحواراتُ التي لم يكنِ الإخوة نجومها، بل كانوا شاردينَ عنها، وتململ سعد، وهمَّ بالقيام وقد أَنِف أن يُستدعَى ثمّ يُهمَل هكذا، إلَّا أنّ أخويه مَنَعاه، فجلس مهمومًا، والحاضرون من أهل النّجع يزيدونه همًّا، يتوجَّهون بكلامِهم للضّيوف المرموقين، مشغولينَ بهم، لا يلتفتون لسعد أو أخويه أبدًا، وسعد ينظرُ لهذا الإهمال غير المتعمَّد كخيانةٍ ونذالةٍ وقلَّة أدب، ومشبُّ النار الذي يتوسَّط الجلسة، قد كشف لمعةَ الحسرة الوحشيَّة الشّاردة من عينيه إلى بعيدٍ، كأسدٍ فرَّت منه طريدة.

بعد مدّةٍ أشار لهم الشّيخ لينتحّوا جانبًا بالخيمة وينتظروه، فقاموا في ضيقٍ وفتورٍ، وأتاهم بعد قليل وأغلظَ لهم على ما فعلوه بأرملةِ أبيهم وأخيهم عاصم، وبانَ على وجهه الضّيق والاشمئزاز، وأخذ يردِّد بصوتٍ مؤنِّب: ما هذا؟!.. ما هذا؟!

فتصدّى غازي للردِّ، وحاول أنْ يلقي اللَّوم عليها، فابتسمَ الشَّيخ، وقال له وهو يشيرُ إليه بأصبعه

- أوَأنتَ الذي سمَّاك أبوكَ السَّفير إذًا؟!.

فطأطأ غازي رأسه، وأكمل مانع:

- ما فعلتموه مشينٌ جِدًّا، وعارٌ عليكم، ولا يصدُر ألبتَّة من أجاويد. ورغمَ هذا فهو يحدُث في كلِّ برٍّ.

فاطمأنُّوا لمَّا قال إنّ الأمر يحدُث في أيّ مكانٍ، إلَّا أنّه أكمل:

- وهذا لا يعني أنّه أمرٌ هيِّنٌ. إنّه عظيمٌ، عظيمٌ جِدًّا!. وهذا ليس كلّ شيءٍ.. يا حضرة السَّفير، أراكَ نسيتَ أنّه لو ظُلِمتْ صابرة

من حَضَرٍ ما كانت لتقولَ ويقول النَّاس عنها: صابرة ظُلمتْ من حَضَر.. ولكنْ إذا ظَلَمها أعرابٌ، فستقولُ ويقول النَّاس على عهدتها: إنّ عربًا ظلموا صابرة وابنها. هذا دَيْدَن النَّاس كلّ النَّاس مع مَن ليس منهم، يذكرونه باسمه إنْ أحسن، ويسمُّونه باسم جماعته كلها إنْ أساء. وكذلكم نفعل.. لكن أشياء كهذه لم تدُرْ بعقولكم، ولو كانت تدور ما كنتم من البَدْء ذهبتم لعششِ (**المراقيع**)، ولكنتم حافظتُم على ميراث أبيكم، واسمه المحترم واسم عائلتكم.

فأحبَّ مفلح أنْ يشارك، فقال وهو يتلجلج: إنَّ في سنِّ الشَّباب.

فأكمل الشَّيخ وكأنّه لم يسمعه: وأنا ضَرَبتُ كفًّا بكفٍّ عندما استمعتُ إلى قصةٍ عجيبةٍ أخرَى، نادرة!: فسعد عندما يريد أنْ يختصَّ نفسَه بعشَّةٍ عند الغجر، ولا يريد إزعاجًا من أحدٍ، علَّق عصا أبيه وعباءته على البابِ، فيعلم النَّاس أنّ سعدًا بالدّاخل لا يريد إزعاجًا، فيمتنعون. عصا وعباءة أبيكَ علامةٌ؟!

فردَّ سعد: حتّى لا يضايقني أحدٌ.

- ولماذا عباءة أبيكَ وعصاه؟

فقال ببرودٍ يوحي بأنّه ربَّما يخرُج عن طَوْره: لأنهما مميَّزتان.

فتدخَّل غازي متخوِّفًا من شِياطة الحديث بينهما:

- كلامكَ كلّه على الرَّأس يا شيخ مانع، لكن- فَدَيتُكَ- لا تُيئسنا من أنفسنا، ساعدنا على أن نبدأ مجدَّدًا، وسترَى منّا ما تُسَرُّ له نفسكَ، سنعمل على إصلاح ما أفسدناه قدْرَ طاقتنا... الغجر لن ننزل إليهم ثانيةً... أمَّا صابَرة فسأبعثُ لأبيها ليأتي، وبحضور عمِّنا (**حمَّاد**) سنعطيها قيمةَ إرثها وابنها، وزيادة، ولو علِمنا

أنّها تريد العودةَ لذهبنا الثَّمانية وأحضرناها، وأسكنَّاها معزَّزةً مكرَّمةً كأيَّام أبينا وأكثر... ولكن يا خَسارة!

ووافق الشَّيخ على ما عَرَضه غازي من أداء الميراث، بينما كان سعد يصرُّ أسنانه، ولكنّه كان يمنّي نفسَه بأنّ هذه التَّضحية، ربّما تمنحه المشْيَخَة فسَكَت.

ثمَّ لَمَعتْ عينا الشَّيخ، وقال لغازي وهو يحدِّق فيه كأنّه يقتحم أعماقه، متسائلًا عن عرض العودة..

ـ قلتَ عن العودة: خَسارة.. تقصد أنّها سترفُض؟ فهي لن تأمَن لكم على ولدها ونفسها، ولن يرسِلها أبوها معكم بعد ما حدث؟

ـ هذا أكيد.

فقال الشَّيخ وهو يعبَث بأصابعه بالرِّمال أمامه:

ـ إنّكم أولَى النَّاس بإنفاذ وصيَّة أبيكم.

ـ نعم.. نعم.

ـ وترون أنّ أمَّ عاصم وعاصم لن يعودا أبدًا.

ـ نعم.. واأسفنا.

ـ لا أمل في هذا؟

ـ أبدًا.. أبدًا.

ـ إذًا، لتعلموا يا أبناءَ مصبح الآتي: أبوكم قد أوصَى عمَّكم حمَّادًا، وبحضور شاهدَيْن من الأهل، وشهدَ الثَّلاثة أمامي البارحة بالوصيَّة، فلا يرث المشْيَخَة أيٌّ من ذريَّته، أبناؤه ثمّ الأحفاد من بعدهم، إذا ما أُخرِج عاصم من النَّجْعِ، لأجَلٍ مقداره خمسون سنةً من خروجه، ولم يترك الثَّلاثة إلّا بعد ما حَلَفوا له بربِّ البيت.

نظر الثَّلاثة لبعضهم متحسِّرين ذاهلين. وقد بانتْ على وجوههم آثارُ صفعة أبيهم التي لم يحسُبوا حسابها، ولم ينطِقوا.

ثمَّ أكمل الشَّيخ: ولو كانت غَلطَةً واحدةً لربّما ظننتُ أنّ على المرأة لومًا، وأنّ الشَّيطان دخل بينكم، فخرجتُم عن أطواركم جميعًا، ولكنتُ ذهبتُ إلى أبيها وأحضرتهما، وأخذتُ عليكم المواثيق.

فقالوا بحماس: افعلْ.

- لكن الأمر به بهلول وغجر وخمر، وأبناء شيخ كريم يحلُّون عمائمهم عند سرير المومسات. أنا لا أرضَى لها العودةَ إلى مُناخ كهذا وهي بلا أبٍ أو أخ معها. إنّ قصَّتكم مع الغجر والنِّسوانِ الفواجر تدلُّ على أنّ ما حدث منكم معها ومعَ أخيكم المسكين الصَّغير ليس نفخة شيطانٍ، بل له أصلٌ في طباعكم. تطردون أخاكم الطّفل وتودُّون قوَّادًا غجريًّا مرَّغ سمعتكم في التراب؟!

وخيَّم صمتٌ طويلٌ، فتثاءب الشَّيخ ثمّ قال:

- وسارعوا إلى إعطاءِ المرأة وابنها حقَّهما، بحضور عمِّكم حمَّاد. سأنتظر هذا الخبر، وسأسعد به.

فقال غازي: إذًا، سنردُّها وابنها. هي أيَّام وسأعيدُها. وليكنْ سعد هو الشَّيخ بعد أبيه.

فابتسم الشَّيخ: أجمعتم كلمتَكم على أنّها لن تعود أبدًا أبدًا.

فقال سعد: هناك شيءٌ مريبٌ: عمِّي يعرف وصيَّة أبي؛ لماذا إذًا لم يمنعنا من طرْدها؟ هل أراد أنْ يحقَّ علينا القوْل؟!

نظر له أخواه لائمَيْن، ورفع الشَّيخ مانع وجهه للسَّماء وقال:

- الحقّ أقول.. أنت يا سعد لا تصلح شيخًا.

- كان هناك يومها يا شيخ مانع.

- قال لي عمُّكم في حياءٍ إنّكم كنتم كالممسوسين وقتها، وخافَ منكم. لهذه الدَّرجة وصلتم. عمُّكم خافَ منكم. أهلُ النَّجْع أنفسُهم يخافون منكم جميعًا، أهلُكم. أيّ مَشْيَخَةٍ؟!

- ولكن...

- ولكنّ عمَّكَ رفض أنْ يتولَّى المشْيَخَة، وأصرَّ على ذلك، وقال: لا أخسر أبناءَ أخي وأنا آخرُ شقيق لأبيهم على قَيْد الحياة. لا تظنّه طَمِع فيها يا سعد.. ما المَشْيَخَة يا سعد؟ إنّها استقامةٌ وشرفٌ، وتواضعٌ للنَّاس، وكلمة حقٍّ.. ليس عندي تِيجان ولا أوسمة.. ماذا قلتم؟

ثمّ نظر إلى مفلح الذي شَرَد في انتظار نهاية الجلسة.

- ما رأيك يا مفلح؟

فانتبَهَ: ها.. على راحتكم.

- وأنت يا غازي ما رأيك؟

- إذا كانت خارجةً لا محالة، فعمّنا شقيقُ أبينا أولَى، وهذا لا حرج فيه لنا أمام العرب.

فردَّ الشيخ: هذا صحيح.. تفكيرُ صحيح.

واستُدعِي حمَّاد للجلسة، واستُدعِي الرِّجال من العائلة، وقُدِّم الأمرُ للنَّاس على أنّ سعدًا وإخوته يريدون عمَّهم شيخًا للعرب. وانتهَى الأمر، ورَحَل الشَّيخ مانع ومَن معه بعدها بأسبوع بعد أن ثبَّتوا العمَّ شيخًا.

في مساء اليوم الذي رحلَ فيه الشَّيخ مانع، كان سعد وغازي على الكثيبِ المنتصب أعلى الوادي، وَقَفا مُنتصبين في نسمة اللَّيل الباردة والهدوء، كشبحيْن طويليْن، غازي في تأمُّلٍ هادئ، وسعد في توتُّر.

يسأل سعد أخاه:

ـ أكلنا عليها ميراثَها، وضيَّعتْ علينا المَشْيَخَة، وأسمعتْنا على لسان الشيخ كلامًا لم نكنْ لنسمعه أبدًا. تعادلنا، فعلام نردُّ لها إرثها؟

فقال غازي بعد صمتٍ: عمُّكَ أغطش.

ـ وأغطش.. ما دخل هذا بحديثنا؟!

ـ يا سعد، إذا ابتعدَ عنه ابناه قليلًا تشابَها عليه، وما عَرَف ناصرًا من منصور. وقد شاهد حما أبيكَ منذ سنواتٍ طِوال، وقال عنه: رجلٌ أبيض أحمر كالرُّوم.

ـ أجل.

ـ من وقتِ أنْ حَكَم الشَّيخ حكمه، وكلّما جالسنا عمَّكَ أخذ يردِّد: (**نعم، أبيض أحمر كالرُّوم**)، وهو قابضٌ يدَه يهزُّها.. إنّه لا يذكر ملامحَه، فقط يذكر وصفَهُ له. وخائفٌ هو مَن الفشل في المَهمَّة الموكلة إليه.

ـ ليكن.

ـ سأبحث حتّى أجده. سأتّفق مع أيّ رجلٍ من أيّ بلدةٍ، أبيض أحمر كالرُّوم، ويأتي إلى هنا، على أنَّا سوَّينا الأمرَ وأعطيناه حقوقَ عاصم وأمِّه. وعمُّكَ ذاكَ أغطش وطيِّبٌ، وحسن الظَّنِّ.

ـ يلعن إبليسك!

ـ وقد جرتْ بعضُ الأمور على عكس ما توقَّعتُ. ولم يحسب الشَّيخ مُجوننا أمرًا لا يخُصُّ العشيرة ولا يخُصُّه. ومَن أسمعنا الكلام السُّمَّ هو بهلول. ولوْلاه لكان من السَّهل إقناع الشَّيخ بإصلاح ما انْكسر، وما تجرَّأ علينا الشَّيخ إلَّا بسبب بهلول ومخازينا عنده. لقد ضعنا بسببه. ضعنا وفقدنا احترام العرب لنا.

- نعم، لم يكنِ الشَّيخ في قرارة نفسه يحترمنا، وهذا- حقيقةً- ضايقني كثيرًا.

وأشارَ غازي بيده.

- ولكنِ انظرْ هناك يا سعد.. هذه الأنوارُ المضاءة عند العشش، هناك الحياةُ والمتعة وصنوف الحظِّ، والزَّمْر والصُّنوج، والبَذاء المثير، للعصافير المحنَّأة ذوات الخلاخِل.

- إي بالله!

ثمَّ التفتَ ونظر متأذِّيًا قليلًا:

- وانظرْ تحتنا. النَّجع النَّائم في العَتَمَة. أموالنا. أراضينا. المعصرة. النِّسوة المصونات. العائلة. السُّمعة. مستقبل أولادنا كأبناء أشياخ... ومن فوق هذه الكولة (**الجبل الصغير**) علينا أنْ نختار.

- ولم نختار وقد فقدنا المشْيَخَة؟!

- الأمر أكبرُ من ذلكَ. عندما تكبَر أكثر، ويعبُر الشَّيْب على فَوْديكَ ستعرف ذلكَ. علينا أن نختار حتّى تكون السُّنون القليلة القادمة كفيلةً بإرْجاع هيبتنا هنا وتحت بالرِّيف. وأنتَ أكبرنا والصَّارم فينا.. أرجوك: انْهِ الأمر.. ألَا تشكُّ ولو قليلًا في أنْ يكون بهلول هذا شَرَكًا قد نُصِب بمكرٍ في طريقنا، فسقطنا جميعًا كالعُميان؟

النَّاسُ هناك الذين كانوا يهابوننا مِن مُرتادي العشش تباسطوا معنا. ألم تلمَح في عيني أحدهم نظرة تشفٍّ لمَّا سَكِر أخوكَ الصَّغير، ورَقَص مثل لعوبٍ قديمةٍ فأضحكهم، وضَحِكنا نحن أيضًا ولكن ضَحْكة خِزي؟

فطأطأ سعد رأسه: نعم.

ـ اسمع، الأمرُ لا يَحتمِل المكابرة.. لقد أخطأنا.

ـ نعم، أخطأنا.

ـ ونودُّ قوَّادًا غجريًّا مرَّغ سمعتَنا في التراب وضيَّع علينا الـ...

قاطعه سعد وهو يشمِّر كمَّي ثوبه: بهلول.

ـ ما به؟

ـ هل يجيد السِّباحة؟

ـ لم؟

استيقظت القريةُ ذات صباحِ على جُثَّة بهلول، وقد طفت على سطح مياه التّرعة، يحلِّق حولها سِرْبٌ من الغِرْبان الذَّاهلة، وشعره الطَّويل مسترسلٌ على سطح الماء، وفي فمِه وقبضتيه وحول قدميْه طين التّرعة وعشب قاعها. وربّما بدا الأمرُ للنَّاس أنّ بهلولًا ربما سَبَح سَكران وأخذته دوَّامةٌ، وتعثَّرتْ قدماهُ في قاع التّرعة ووحلِها وعشْبها، والتفَّ العشب على قدميه فقيَّدهما.

وانطفأتِ الأنوار، وفرَّت العصافيرُ المحنَّأة الأقدام ذوات الخلاخِل من أعشاشها فزِعةً حزينة، وكان الرِّجال الثَّمانية حزينين جِدًّا أيضًا وهُم يتابعون من خلف سورِ حديقةٍ لهم بالرّيف سير العربة بالعصافير الذّاهبة في بلاد الله، إلّا أنّه ولا واحدةً منهنّ قد دلدلتْ ساقيها من خلف تحدِّق في عالمها الذي يمضي، أو تلوِّح ولو تلويحة مستغربة لعشيقٍ يكاد يبكي.

الفصلُ الثّامن

في هذا الصَّباح، كانت جُثَّة بهلول طافيةً على سطح مياه التّرعة، عند القرية وقُبالة مطلع النَّجْع، كأنها تقطعُ الطريق. ورغم قوَّة التيَّار إلَّا أنّها وقَفتْ هناك، عَلَقتْ بغصن شجرةٍ طويلٍ ملقيٍّ بين الشاطئ والماء، وقد حاول رجلٌ حلَّها من الغصن بعصا في يده، إلَّا أنها تمسّكت بالغصن. وقفت على بعد مائتي ذراعٍ ممّا حدثَ في ظلمة الليل هناك، بعيدًا عن المارَّة والمصابيح، هناك ليًلا كان بريقُ الفزع السّاحق في عين المغْدور لمَّا أدرك أنّه استُدرِج وأفاقَ من الخمر، ودخول الرَّجل على الرَّجل، وضرْبُ الماءِ باليد والسَّاق باستماتةٍ بحثًا عن الشَّاطئ، والشّاطئ صارَ بعيدًا جدًّا، كأنّه خيالٌ، غطسةٌ عنيفةٌ، استغاثةٌ محشرَجَةٌ من شَرْقَة الماء، وصرخةٌ مكتومةٌ متوسِّلة، كفُّ سعد الصّلبةُ على فم بهلول، بهلول يعضُّ كفَّه، ويفرُّ برشاقةٍ من بين ساقيه كأنّه فأرُ مصارف، سعد يمسكه ويصفعه حريصًا على ألَّا يترك الضَّرب علامةً ظاهرة، يفرُّ بهلول، يمسكه سعد مرّةً أخرى ويصفعه، ويفرُّ هذه المرَّة مجهدًا مترنِّحًا، فيمسكه ويصفعه، ودمٌ يطير من فمِه لوجه سعد، وانغمارٌ، ونظرةٌ ذاهلةٌ من تحت الماء، وارتخاءٌ،

وبَقْبَقَةٌ، وفَقاقيع، وحلاوة الرُّوح، ثمّ هذا الحَباب الواهن الصَّاعد عن النَّفَس الأخير.

اغتاظَ سعد لأنّ الجثَّة لم تنجرفْ مع الماء بعيدًا كما يحدُث لكثيرٍ من جُثَث الغرقَى، كأنها تغيظه، أو كأنها ـ بوقوفها قبالةَ مطلع النّجع تمامًا ـ تؤشّر لجهة القاتل. والقتيل لا ديَّة له، والقاتل لم يخشَ ثأرًا، إلّا أنّ التقاليد العربيَّة حرَّجتْ عليه أنْ يقتل رجلًا بغير عداوةٍ معلنةٍ وتربُّص، وتحرِّج عليه أن يقتل رجلًا ليس كفئًا له إلّا في هرجٍ ومرجِ المعارك، لكنّ غليله من ناحيةٍ أخرى حرَّج عليه أن يسلِّط رجلًا آخَرَ كفئًا للقتيل ليغتاله.

وازداد غيظًا عندما تذكَّر ذاكَ الحديث المثير للنّاس في مجالسهم عندما يدور الكلامُ على جرائم القتل الغامضة، عن عين القتيل التي يرتسمُ عليها صورة القاتل في النّظرة الأخيرة قبل خروج الروح، فعين بهلول إذًا قد تشهدُ عليه بين منتشلي الجثَّة، عندما يرتسم عليها ـ وهي تطلُّ من تحت صفحة الماء مباشرة ـ وجهه العصبيُّ وقد تلطَّخ بالدّم الذي تطاير من فم بهلول، لذا قرَّر أن يذهبَ وينتشل الجثَّة بنفسه، ويغلقَ العينين الذّاهلتين عَلى الرسمة السرّ.

الماءُ في الترعة فائرٌ وفحلٌ في هذا الصَّباح حدَّ التهوُّر، يندفع بطمْيه يخصِّب البلاد البعيدة، شفاءٌ وغُسْل، رحمٌ وكَفَن، ينشرُ شعر بهلول الطَّويل على سطحه، يتماوج الشّعر معه، كأنّ هذا الشّعر يدَا ساحرٍ تشَعْبذان على دُخَان البَخُور في هذا الصَّباح العجيب، ويفور ويفور، ويضربُ الطَّمي والعشب على فم الجثمان فيغسلُه، فتبدو الشَّفَتان متورِّمتين كاشفتيْن عن اللّثة بأكملهاَ، وتبدو الأسنانُ بيضاء ناصعةَ البياض، وهذا الفمُ وكأنّه يضحَك في الصَّباح العجيب.

وبينما كانتِ الغِربان ذاهلةً ترفرف فوقَ الجُثَّة العالقة الضّاحكة، كانت أسراب البطِّ الأسود تمرُّ مع التَّيار من جانبها بلا اكتراث؛ مِن هذه الزَّاوية، أعلَى قليلًا من سطْح الماء، كان البطُّ الأسود يمرُّ من جانبِ جثَّة ضخمةٍ ورديَّة اللَّون، ربّما لعجلٍ أو خِنزيرٍ ضخمٍ أو لأيّ شيءٍ آخر، إلَّا الإنسان. ولعلّه هناك مِن البشر الأَحياءِ أيضًا مَن تَراهم كائناتٍ عُلويَّةٍ أخرَى بهيئةٍ مفزِعة، على عكس ما نراه نحن حينَ نمرُّ بغَفلَةٍ بجانب هذه الجثثِ الحيَّة.

ينزلُ سعد على المطلع بحصانه، ينظرُ مِن أعلى لتجمْهر النَّاس حولها والغربان فوْقها، يصل إليهم غاضبًا.

- مرَحى.. ستتركونَها هكذا حتّى تصيرَ هيكلًا من العظام معلَّقًا إلى غُصْن شجرةٍ؟!

ولم يردّ عليه أحدٌ فأكمل:

- ادْفنوها.. إنّها هكذا لعنةٌ علينا وعليكم إنْ لم تُدفَن.

فارتجَّ النَّاس خوفًا من اللَّعنة، وقال له رجلٌ مسنٌّ:

- يا بن سيِّد النَّاحية، لقد نزل شابَّان.. ها هما يرتجفانِ تحتَ الشَّجرة.. لمَّا لَمَسا لحم الجُثَّة المنتفخ بأيديهما اضْطَرَبا وفَزَعا، وخرجا من الماء ضيِّقي النَّفَس. الأمرُ يحتاج إلى رجلٍ قلبُه جامد.

هزَّ رأسه بثقةٍ وضيقٍ يعلنُ فهمه لما يريدُ الرَّجل قَوْله، وخلع ثوبَه ورماه على حشائشِ التّرعة، ينزل الماء، يسبح إليه ببطء، تتهيَّج الرّائحةُ العفنة لمَّا حرَّك الجَثَّة ذات القبضتين المتكوّرتين على العشب والطّينِ، يصعد بالجثَّة بهدوءٍ وهو يحدِّق في وجْه بهلول الذي يبدو ضاحكا، والعينان على وشك أنْ يسيلا، كبيضتيْن لم يكتملْ سلقهما، يتحاشَى في مشْيه شفتي بهلول، كأنّهما ستقبِّلانه، وانشغلَ بما بيْن يديه عن تحيّات

المتَجَمْهرين له على شهامتِه وهمَّته. وسألهم بهيمةً تُحمَل عليها الجثَّة حتّى تُدفَن في الصَّحْراء، فتراجعوا خوفًا على بهائمهم من أن تحلَّ بها لعنةٌ، فأرسَل غلامًا أحضر له جملًا من قطيعه، ووضع الجثَّة بيدِه على الجمل. وأخذ الشَّابَّين المرتجفين معه، ومعهما فأسان وجاروفان وزنبيلان، واتَّجه بهما لمطلع النَّجْع، وتبِعتهم كلابُ القرية نائحةً ومتطفِّلةً. وبعد مسافة على المطلع، أشار لهما إلى حجرةٍ قديمةٍ مهجورةٍ عن يمين، حجرةٌ خَرِبةٌ، أحد جدرانها الأربعة متهدِّمٌ، ومعرَّشةٌ بعريشةٍ صفراء ذابلةٍ من سَعَف النَّخيل، واتَّجهوا إليها، وكان وجهه عابسًا ممرورًا وهو يسير إليها.

دخلوا الحجرةَ المتهالكة، يلفُّ حول نفسه فيها، يتَّخذ ركنًا بعيدًا عنهما، يشبِّك كفّيه مضطربًا، يسمعُ طنينًا في أذنيه، كلهاثِ وأنين امرأةٍ، يصْغي إليه وقد انفعلت كل قسماته، حتّى تعرَّق وتغيَّر وجهُه، كأنما يعاني من ضيق في التَّنفُّس.

أمرهما بالحفر في أرض الحجرة، وأسندَ ظهرَه للجدار متابعًا. عندما بَدَآ في الحفر، كانت كلاب القرية قد وَصَلتْ إليهم بعددٍ كبير، وبدأتْ تنبَح بتوسُّلٍ وأدبٍ في البَدْء طالبةً ترك الجثَّة في العراء، ولم يهتمُّوا بها، وانشغلوا بما هم فيه. ثمّ انقدح الشَّرَر من عيونها، مركِّزةً نظراتها في سعد وحده كأنها تعرِف ما لا يعرِفه النَّاس، كانت تتَّهمه وتهدِّده. صاح في الكلابَ، وأخذ يخسأها بالحجارة ويتهدَّدها بعصاه، فتخسّأ قليلًا ثمّ تتقدَّم تجاهه مرَّةً أخرَى بجُرأة، وفي أعينها إصرارٌ عجيبٌ ووقاحة مبتزٍّ، مستميتةً على أكل الجُثَّة.

- دعْنا وطعامنا هذا.. قتلتَ الرَّجل.. فاترك لنا الجُثمان.

بدا على سعد الاضطرابَ من جُرأة الكلاب عليه هو تحديدًا، وخاف أن تتمادَى، وتستهين به، وتجتاز الجِدار المتهدِّم الذي انتصبتْ على بقاياه بأذْرُعها، وتشدَّه من ثوبه، فينهار، فتتخطَّفه بأسنانها.

أمر الشَّابَّين بغِلظةٍ أنْ يشتدَّا في الحفر ويعمِّقا الحفرة؛ حتّى تيأس الكلاب. وتعفَّر جوُّ الحجرة، وتعفَّرتِ الوجوه، والكلاب في نباحها. والشَّابَّان في الحفرة متعجِّبان من عدم ارتياحه للعمق الذي حفراه وقد غابا فيها للصّدر. وأخيرًا ارتاح لهذا الحفير العميق، ونزل بنفسه ووضع الجثَّة، وأهال الشَّابَّان عليها التُّراب. وأمرهما بوضْع السَّعَف فوق السَّطْح، ففرشا السّعف فوقَ اللّحد. ونظر حوله، ولم يأمَن الكلاب التي بدتْ مستهينةً بما تمَّ إنجازه وتعرف كيف ستتعامل معه، فأمرهما بهدِّ الحجرة وبوضع لبِنها فوق السَّعَف المفروش. وتعجَّبا من ذلك، وتلكَّآ في البَدْء، فشدَّد عليهما اللَّهجة، فبَدَآ ينقُضان الجُدران على مَضَض، وأخذ يشرَح لهما أن ذلك التَّحوُّط أدعَى ألَّا ينبعث له عِفريتٌ في النَّاحيةً؛ فهو لم يمت مِيتَةً طبيعيَّة، ومن ناحيةٍ أخرَى لم يكن يعرِف مِلَّةً وكتابًا، فجديرٌ بمثله أن ينبعث له عفريتٌ. وتظاهَر بتِلاوة بعض التَّحصينات بتحريك شَفتيه، ولمَّا لاحظ الفضول والانبهار بما يتمتم بهِ على وجهي الشّابين السّاذجيْن، حدَّق في العصفور الموشوم على صدْغَيهما، واستخفّ بهما، وقال لهما بفخرٍ ورصانةٍ أنّ لديه من العلم ما لو اطَّلع عليه أحدٌ منهما هامَ على وجهه في البلاد كالمجذوبين، بلعا ريقَهما، واهتمَّا بالنَّقْض والرَّصِّ بعِنايةٍ بالغة، وكلَّما تكشَّفت الحجرة وانكشفَ الخلاء تحسَّنت أنفاسُه، حتّى لم يعدْ للحجرة أثر، وتوقَّفت امراةٌ عن أنينها في أذنيه، وأخذ نفَس رضا عميقًا بوجْهه المعفَّر، اكتمل الرَّديم إذًا، مصطبةٌ غبراء على حصيرةٍ من السَّعَف فوق القبر، لها ميعاد مع الرّمل والزّوبعة.

وانتقلتِ الكلابُ بعد التَّوسُّل والتَّهديد، إلى النُّباح الشَّاتم اليائس. وتحرَّك سعد بجمله وحصانه والرَّجلين، والشَّتائم تلاحقهم. ومالتِ الشَّمسُ للأرض، ففجَّرتْ دمًا في الفضاء؛ أمست الصَّحْراء والسَّماء والوجوه كلّها بلوْن الدَّم. وانقضَّتِ الكلابُ على النُّصْب الأسمر تحاول

أن تنقِّب فيه من هنا، ولا جدوى، بل مِن هنا، ولا جدوَى. في هذا الجوِّ الدَّمويِّ الحزين، يلتفتُ سعد خلفه، ينظر إلى الكلابِ العصبيَّة، وقد احمرَّتْ فراؤها، ثمّ نظر أمامَه وشَرَد، وأخذ يحْدو حداءً كالهذيان، ويقطِّع في صوته المكلوم الحائر بنظراتٍ زائغة، يا ويلاه.. ويلاه، ويذهب صدى الصوت في الأركان المدماة، لاه، لاه. وعندما فَشِلتِ الكلابُ في تنقيبها عن الوجبة الجِيفَة، تزاحمت في محفل شهوةٍ جماعيٍّ فوق النُّصْب وحوله، متعةٌ هذه لكنّ اللّهاث كالأنين كالزّفرات الممرورة، والعُواء كأنّه عواء لوعةٍ مطوَّلٌ ومقطَّعٌ ومنغَّم، وانسجم تمامًا مع ترجيعات سعد في حدائه.

بعد أيام، كان الثَّمانية أعلَى الكثيب في مساءٍ يتسامرون وقد جلسوا صفًّا، يحتلُّ سعد وغازي طَرَفي المجلس، ويتوسَّطه مفلح، الذي أخذ يندبُ بهلولًا

- آهٍ يا بهلول.. رَحلتَ ورَحَلتِ البهجة خلفَك.. لا قيمةَ للحياة هنا بعدك.. قتلكَ صديقكَ الخائن، السَّوداويُّ فاسد الأخلاط.

وقال غازي مخاطبًا سعدًا:

- ألمْ يذكِّرك الحباب الذي صعدَ عن أنفاسه الأخيرة بحبابٍ تصاعد على كأس خمرٍ تقاسمتماها معًا؟

فتباكَى مفلح لكلمات غازي، فضَحِكوا.

- علام تضحكون!، أسفي عليك يا غالٍ، هكذا نَكَالًا عن المشْيَخة الضَّائعة، بئس الصِّحاب!. وكأنّهم حُرِموا التَّاج والصَّوْلجان.. اعْكفوا على المحاصيل والأغنام إذًا، وافْنوا فيها أعماركم.

ورجع غازي يخاطب سعدًا:

- أتعلم يا سعد، إنّ أمرنا عجبٌ: كان الشَّيخ عثمان في الآونة الأخيرة قد ذاع صِيته، وبدأ يفرش خلفَ بيته للدَّرس. وعلَّق مِصباحًا، وأتاه النَّاس من كلّ بلدٍ قريبٍ ليسمعوا وعظَه،

وحديث الجنَّة والنَّار، والأنبياء والصِّدِّيقين. وكنتُ أظنُّ أنّ الملائكة يتدلُّون من السَّماء حافِّين حول مجلسه. وحدث ما حدثَ وتسبَّبنا في رحيله، فانطفأ مِصباحه، ثمّ إنَّا التفتنا لبهلول، وأطفأنا مصابيحه. أليس هذا يا بنَ أُمٍّ عجيبًا، ومقلقًا؟

يقول سعد وهو يقذفُ بحَصاةٍ في وجه اللَّيل:

ـ هذا هو!.. حتّى تكون الأرض خِلْوًا للبشر، بلا ملائكةٍ أو شياطين؛ فيفرَغ النَّاس لتدبير شئونهم بلا تشويش.

فضَحِكوا طويلًا، ثمّ صَمَتوا صمتًا مخيفًا، لا يقطَعه إلَّا نَقيق الضَّفادع من بعيدٍ، كأنّهم يتهرَّبون من أمر مصابيح الشّيخ التي أُطفِئت وارتاحوا لانطفائها، يتهرَّبون من أفكارٍ تواطؤوا عليها جميعًا، ولم يتكلَّموا فيها، فرضتها عليهم ميولُهم التي توارثوها، لعلّهم تواطئوا بغير كلام.. وبغير خطّةٍ على التخلُّص من الشّيخ عثمان مع أيّ حجَّةٍ ستأتي، يدفعُهم لهذا ميلٌ جارفٌ للعزلة عن الغرباء وحبُّ العيش في مجتمع مغلقٍ على الأقارب، شعروا بعداوةٍ لم يستطيعوا البوحَ بها تجاه دروس الشّيخ الدينيَّة التي يفد إليها الريفيُّون من حواليهم، وكانوا يكتفونَ بالتّعبيرات المستنكِرة، ينطقونها بحنقٍ شديد (**رِجْل داخلة ورِجْل خارجة**)، وهي ذاتها التّعبيرات التي استخدمها أهلُهم وأعمامهم عندما كان الجمَّالون الغرباء يحملون الطّينَ لاستصلاح أرضِ الوادي، حتّى حدثت حادثةُ الطّرد، فانفجرت في الشّيخ عثمان تلك الأشياءُ الكامنة في الصّدور والأصْلاب.

وبعد فترةٍ من غاشية الصَّمت اللَّيليّ، كانت (**عِيدَة**) المجنونة، التي تأتي من القريةِ المجاورة أحيانًا، لتأكلَ في أيّ بيتٍ ثمّ تمضي صامتة، كانت تحجِلُ بالقرب من الكَثيب، وهي خارجةٌ من النَّجْع. كان اسمُ شهرتها (**عِيدَة أمُّ جَرِيدَة**)؛ فهي تسيرُ دائمًا وفي يدِها جَريدة نخلٍ، وإذا بها وهي تحتَ الكثيب، تقبض على أصلِ جَرِيدتها، وتضعُها بين قدميها

وكأنّها تعتلي حِصانًا، وأخذت تُصدِر أصواتًا كوَقْع السَّنابك، وتضحك ضحكًا متقطعًا حادًّا منذرًا، له وقعٌ مشئومٌ كصوتِ أوّل المطر على سقفٍ من صفيح حينما يسمعُه رجلٌ مبتردٌ يرقدُ تحتَه بلا غطاءٍ، وأخذت تقول تجنينًا لا يُفهَم منه شيئًا، لكنّه خمشَ صدورَهم مثل الكابوس.. مثل الهمِّ المقيم.

فَزِع الرِّجال، ونَهَضوا ونظروا، فوجدوها أسفلَ منهم، على حِصانها الموهوم، فأخذوا يقذفونها بالحجارة حتّى تبتعد.

- طاعون.
- قبر.
- ضربة القولنج.
- يا وجه الغراب.

فأخذتْ تجري ضاحكةً هازئةً من فزعهم، كأنّها غولٌ تندفع من الصحراء إلى الريف.

بعد أيَّام قليلة، كان غازي قد اتّفق مع رجلٍ أبيض أحمر كالرُّوم ليقابل عمَّه حَمَّادًا. وأوصاه سعد بأنْ يُخرِجه هو مِن الأمر، سواءٌ مع عمِّه أو مع الرَّجل الذي سيأتي به، وأنْ يدخُلا معًا على الشَّيخ العمِّ، ويتحجَّج له بغيابِ سعد في بلدةٍ مجاورة، ولم يحكِ له الحكمة من ذلك. وقد حَبَكها بأنْ باتَ خارج النَّجْع ليومين. ثمّ جاء له أصغرُ الإخوة- حسب ما أوصَى به- يبشِّره بقُدوم الرَّجل مع غازي، فعاد إلى النَّجْع.

كان غازي والرجلُ قد دخلا على الشَّيخ منذ وقتٍ قليلٍ، حينما جاء سعد وانتظر خروجهما عند المعْصرة، وقد مرَّ الوقتُ ببطءٍ على سعد العَجول الذي لا صبرَ عنده. وعندما غادرَا بيت العمِّ خرج سعد بحصانه من النّجع مسرعًا، ثمّ استدار به عائدًا؛ ليبدو وكأنه جاء لتوِّه.

يخرج غازي مودِّعًا للرَّجل الذي يركَب جملَه باهتمام بليغ وامتنانٍ واضح، يتَّخذان الطَّريق إلى أسفل، يمرَّان من جانب سعدً الذَّي يبدو داخلاً للنَّجْع، يلقيان عليه التَّحيَّة ويمضيان، وبعد أنْ كانا خلفه نادَى بهما بحزم.

ـ قِفا.

يترجَّل من فوقِ حصانه، يشيرُ لهما ليأتيَا إليه، يستغربُ غازي الأمر، يسيران إليه، هذا على قدميه وذاكَ على جَمَله، يشيرُ سعد للرَّجل لينزل من فوق جَمَله، ينزل مضطربًا وهو ينظرُ لغازي متعجِّبًا متسائلًا.

يقول سعد: مَن هذا يا غازي؟

ـ أبو صابرة.

ـ كَذَبتَ.. ليس هو.

يتلعثم غازي ولا يردَّ مِن فرط إحْراجه، وأخذ ينظُر في عيني أخيه ليعرِفَ علام ينتوي.

ويكمل سعد:

ـ قُتِلتَ كيف فعلتَ هذا؟! قلت لكَ يا غازي: سنسوِّي الأمرَ، وندفع للمرأة حقَّها، فهل جننتَ إذن لتخدعَنا وتخدعَ عمَّكَ شيخ عربنا؟! لسنا أهلَ ذلك يا غازي.. لقد أخطأتَ خطأً عظيمًا.

قال الرَّجل وهو يحاول أنْ يخفي رعبَه من هيبة سعد:

ـ لا تؤاخذني يا ولدي، هذه أمورٌ عائليَّة. سوِّها أنت وأخوك، ودعني أمشي.

ـ اسكُتْ يا رجل. لوْلا شَيْبتك لقتلتُك. جئتَ لتخدعنا في أرضنا وتهزأ بنا!

(**ثمّ ينظر لغازي**): أاستأجرته يا غازي؟! أطابتْ نفسُكَ بخُدْعَة عمِّك، وأنَستَ بالغريب ليهزأ به؟! عارٌ عليكَ.. لا أصدِّق.. لن أنسَى لكَ هذا أبدًا.

وغازي لا يعرف ماذا دهَى سعد، ولا يعرف بماذا يردُّ.. يلتفت سعد ناحية الرَّجل مزمجرًا وعيناه تقدحان بالشَّرَر.

ـ هذه الخدمات لا تُؤدَّى مجّانًا، هكذا عرفتُ الناس والدنيا.. ردَّ المال لتنجو.

فأخرَج الرجلُ كيسًا من جَيْبه وقدَّمها له بيدٍ ممدودةٍ مرتعشةٍ وهو يقول: سامحني يا ولدي.

وعاد بخُطُواتٍ بطيئةٍ بظهره للجمل، وهو يشير بكفَّيه إلى صدره معتذرًا.

ـ لم آذن لكَ بعد.

ـ ماذا أيضًا؟

ـ انتظِرْ.

ينادي سعد غلامًا من النَّجْع مرَّ مِن أمامهم، يوسوسُ إليه في أذنه، ينطلق الغلام مسرعًا، يصيب الفزع الرجل..

ـ أرجوكَ.. لا تُخبِرِ الشَّيخ.. أنت قلت: ردَّ المال لتنجو. أقبِّل يديكَ واتركني.

ـ أنا عند كلمتي، لا تخفْ.

وأخيرًا ينطق غازي: علامَ انتويتَ يا سعد؟! الرَّجل معي، فلا تُخزني فيه.

ـ لا تخفْ، لن أخزيكَ فيه، وحسابنا بعد ذلك.

وبعد دقيقةٍ، عاد الغلامُ ومعه حِمارٌ، فدفع سعد الحِمار للرَّجل، ثمّ قال للغلام:

ـ اسحبْ هذا الجمل.

صُدِم الرَّجل: ما هذا؟!

سعد: حِمارٌ.. لقد جئتَ تغشُّنا في ديارنا، ولولا شَيْبتك لكانَ أدبًا لكَ أنْ تخرج بلا رَكوبةٍ، وبلا مَداسٍ أيضًا، هذا إن خرجْت.

سحب الغلامُ الجملَ، وأخذَ الرَّجل لِجامَ الحِمار صاغرًا متحسِّرًا يكاد يبكي، وهو ينظُر لغازي لعلّه يفعل شيئًا، بينما غازي بَلَع لسانه تمامًا، وعلى وجهِه احتجاجٌ صامتٌ يتحاشَى النَّظر في عيني الرَّجل.

ـ آتيكم بجملٍ فأغادر بحمارٍ؟!.. حمار؟!

ردَّ عليه سعد، وقد شبَّك يديه، وبصوتٍ وقورٍ يملؤه السَّكينة:

ـ تأدَّبْ يا رجل، إنّها مطايا نبيين وأولياء.

ورَكِب الرَّجل الحِمار، ومضَى أمامهما خافضَ الرَّأس، ومدَّ سعد يدَه ليمسك بساعد أخيه، فأبعد ساعدَه مخاصمًا.

ـ هكذا كالصِّبية يا غازي؟!

ـ الرَّجل أدَّى ما عليه وزيادةً. لماذا فعلتَ ما فعلت؟ أنتَ لا تخبره. رجل صاحب مجالس وظريفٌ.

ـ أدَّى ما عليه وزيادة. وخرجتَ تودِّعه لأوَّل النَّاحية كأنّه الوالي، ليعود لكَ بعد مدَّةٍ بعينٍ وَقِحة طالبًا إقراضَه بعضَ المال، فتقرأ ما في عينيه، فتدفع صاغرًا؛ خَشْية أنْ يسرَّ لعمِّك بالسِّرِّ. أمَّا الآن، فلن يفعل، بل لن يقلبَ وجهَه إلى هذه النَّاحية أبدًا. ثمّ إنّه كان سيتكئ في المجالس ويتندَّر لأعوام على خُدْعته لشيخ عربٍ مفلح، ويجعلنا أحاديث، أمَّا الآن.. فلن يحكي أيّ شيءٍ وقد خدَمَنا مجَّانًا واستبدلْنا جمله بحمارٍ، لن يتندَّر بما فُعِل به.

- لا أعرِف، ولكنّك صعبٌ جدًّا يا سعد.
- أنت تحسنُ المعاملة مع الأكارم، حتّى الشَّيخ مانع- لا ردَّه الله- أُعْجَب بكَ في الجلسة، وقد لَمَحتُ هذا في عينيه، أشهدُ لكَ بذلك. أمَّا اللِّئام، فأنا أخبرُ بهم منك: إنّهم لا يحِبُّون، ولا يؤلِّفون، ولا يُضمَنون.. إنّهم يطمعونَ ويَخافون، وما في صدورِهم غير هذيْن؛ الخوف والطمع. ذاك، ولا توادّهم أبدًا، إنّ توادّهم يعشموا فيكَ، وإنْ عَشِموا في كريم أضرُّوا به أو استخفُّوه، أكثر مما لو كانوا حتّى بِعادًا حاقدينً.

وعادا إلى داخل النَّجْع معًا، وقد بانَ على وجه غازي شيءٌ من التأثُّر بكلام أخيه، وإذا بابنة سعد (**هالة**) أمامَهما، تلوي وجهًا عنهما، فناداها أبوها:

- تعالي يا عنقود الفِضَّة، أراكِ متكدِّرة!

فاقتربتْ ببطءٍ، فقبَّلها على رأسها.

- ما بكِ يا مدلَّلة أبيها؟

فقالتْ بحزن ودلالٍ وبشَفَةٍ ممدودةٍ، وعينين تتجوَّلان بعيدًا عن وجهه

- امرأةُ الشَّيخ كانت تحفِّظني القرآن، وقد مشوا بسببكَ.

فتبادلَ الأخوان نظرةً قلقةً محرجة، ثمّ قال سعد لابنته: سأسأل لكِ عن مُعلِّمةٍ غيرها.. هم مشوا باختيارهم.

فقالتْ بسرعة: وعاصم والخالة صابرة؟

لم يردّ عليها أبوها، فأكملتْ: أنا كنتُ أنوي أنْ أتزوَّج مِن عاصم الذي طردتَّه عندما أكبر.

فاستحيا، ونظرَ لأخيه، ثمّ لها ثمّ قال: يا مخبولة، إنّه عمُّكِ، أخو أبيكِ، ولا ينفع لكِ زوجًا.

فقالت وكأنّها استدرجته: حسنًا! هو أخوك إذًا، فلماذا طردته؟!

فقهقه غازي، وخَبَط على كَتِف أخيه:

ـ صادتك أُمُّ الدَّواهي! زوِّجها يا سعد بسرعةٍ، إنّها ليستْ طفلةً.. والله، صادتكَ.

فقال مبتسمًا: ليسَ لها إلّا ابنكَ، وإن كان أصغرَ منها بعامين.

ـ بلِ اعْفنا من هذا النَّسَب؛ لن يقدر عليها المسكين.

وقام، وانطلقتْ هي فرِحَةً، فناداها من خلفها:

ـ واشتريتُ لكِ جملًا.

ونظر لأخيه مبتسمًا: ابنتي!

ـ عود قمح في أرض زُوانٍ.

فضَحِك سعدٌ وضربَه على ظهْره، وقال بعدَها بصوتٍ مخنوقٍ وقد تغضَّنتْ ملامح الضَّحِك: والولد لم يبلّ أيامي بكلمةٍ واحدةٍ.. آهٍ.

الفصلُ التّاسع

وهكذا مضتْ أيَّامٌ مثيرةٌ في نَجْع مفلح، بعد أنْ سكن غبارُ العاصفة، عاصفة الطرد، كانت الغايةُ في تلكَ الأيام هي الرَّدم، الرَّدم على عاصم وأمِّه، والشّيخ عثمان، وبهلول وجماعته. وشَعَر سعد بأنّه نَجَح في الرَّدم كلَّ النَّجاح، وفي وقتٍ وجيزٍ جِدًّا، وبدأ وإخوته يلتفتون لهذا النَّجْع النَّائم، يطلبون حياةً جادَّةً ناضجةً، قد عانوا في البدْء ممّا يعانيه مدْمنو الخمر والنّساء إنْ أقلعوا من خمولٍ وضيق. وكان سعد أشدَّهم معاناةً، وفي ذات الوقت أشدّهم حماسةً لهذا التغيُّر؛ لأنّه شعرَ بشيءٍ من الدّعة وراحةِ البال لتخلُّصه من صابرة، وصارَ أكثرَ تسامحًا مع النّاس والدنيا بخروجها من النّجع، وأقلّ حاجةً لأنْ يفرِّغ همّه في الخمر والنّساء، وازدادتْ حماسته لمَّا بدأ في التغيُّر؛ لأنّه وجد في عيون الناس المكافأةَ الحاضرةَ على ما بدأ يبْديه من الحلم والصّبر، وبدأ يستمتعُ بهذا النّوع من التّقدير والتشجيع الذي يقدّمه النّاسُ ببذخٍ للجبابرة إنْ أبدوا شيئًا من اللّطف واللّين، فالناس يحكون في مجالسهم وقد انتفختْ عروقُ رقابهم من الفخْر والغبطة عن سعد الذي لا يغادر النّاس أماكنَهم في مجالس العزاء في أثناء تواجدِه

فيها، يحكون كيفَ ألقى ثوبه ونزل التّرعة بنفسه ليحمل جثَّة بهلول ويدفنها، وعن سعد الذي لم يكنْ يجرؤ أحدٌ على حمْل روثِ حصانه ليسمِّد به أرضَه، إلَّا بعد أنْ يغيب عن الأنظار بحصانه، يحكونَ كيف أنّ غلامًا جائعًا ضُبِط وهو يسرقُ بطيخةً من حقله، فتركه سعد يحملها ويذهب، وسعد، وسعد، وسعد؛ وهكذا بدأ النّاسُ يحكون عن مواقفَ نبيلةٍ، بعضها حقيقيٌّ، وبعضها أصابه ما يصيبُ الأحداث من مبالغاتِ القصّاصين، وبعضها لم يسمعْ به سعد نفسه، وإن سمعه استحسنَه وقبِلَه.

ولم يلقَ سعد عناءً كثيرًا في ضبْط إخوته على وضع الرّشد الجديد، خاصَّةً وأنّ الإخوة الخمسة الآخرين- وعلى رغم مهابتِهم أمام النَّاس ومضاء عزمهم- كان لهم شأنٌ آخر بين يديه هو تحديدًا: إنْ بغَى بغوا، وإنْ سالمَ سالموا، وإنْ عَطَس شمَّتوا، بادي الرَّأي؛ لم يلقَ عناءً، اللَّهمَّ إلَّا من مفلح الذي أراد أنْ يستقلَّ بنفسه عن هذا الضَّبط والرَّبط، غير مصدِّقٍ أنّ الأمر أكثر من أثرٍ لن يبقَى لزيارة الشَّيخ مانع وتعنيفه. إلَّا أنّه رأى وجهًا آخر لا يجدي معه المضاحكة والخِفَّة، عندما كان يغازل إحدَى الفتياتِ من القرية القريبة، وسمَّاها وهو يغنِّي ويعزف على (**السِّمسميَّة**)، فاشتكى أهلها لسعد، فاعتذر لهُم اعتذارًا مُقتصَدًا، بعد أنْ مات الأبُ الذي كان يعتذِر، وهدَّد أخاه بأنْ سيجزُّ له شعره الطَّويل الذي يتمالح به إنْ عاد لذلك، فآلمه أنْ يُهدَّد بهذه الطَّريقة المهينة، وهو زوجٌ وأبٌ، إلَّا أنّه آثر السَّلامة ووحدةَ الصَّفِّ، وعَرَف أنّ الأمر جدٌّ، فاكتفَى بالمغامرات البعيدة التي لا يصلُ خبرها لبلدته.

ومرَّتِ الشُّهور، وما عادَ النَّاس يذْكرون الشَّيخ عثمان إلَّا عَرَضًا عندما يأتي ذِكْر الشُّيوخ والعُبَّاد والفُقَهاء، ولا يُذكر بهلول ونساؤه إلَّا قليلًا عندما يأتي حديث الخمر والمشي في الحرام، وما ذُكِرتْ صابرة وولدها أبدًا؛ مراعاةً للرِّجال الشِّداد.

ثمَّ مرَّتْ سنون وراءَ سنين، انكسرت فيها قطعةٌ من فوّهة جرَّة الفسقيَّة، وشاهدُ قبرِ بهلول بين قبضتين للرّمل والرّيح يُدفَن ويُكشَف، والرّجال الثمانية يمشون بين الناس في هيبةٍ، قد اعتادوا على الجديَّة، ويتحرَّجون من سيرة الغجر إنْ أتت، وقد قطعوا علاقتَهم بمَن رفعوا الكلفة أمامهم ممن كانوا يشاركونهم أعشاش العشق والشّبق، وهالة ابنة سعد تشبُّ في نعمة الله، وتتقدَّم في حفظ القرآن، وصغير سعد مازال في بسمتِه لا غير، يكبر دونَ أن ينطق بكلمةٍ واحدة؛ والطفل الذي يودِّع عربة حافظ ها هو يستديرُ إلى معمل المخلّل في السَّادسة عشرة، استطال عوده ونُحِتَ وجهه، شخصيَّته وجسده يسبقان سنَّه، قريبُ الشَّبه بأبيه ربما أكثر من باقي إخوانه، وإن كانت ملامحه بنصيبٍ أقلّ من الخُشونة البَدَويَّة في ملامح أبيه.

حتّى هذه المرحلة من العمر، لم يبهت لون ما حدث في ذاكرة عاصم، كلّ شيءٍ ينزف في الذاكرة، كلّ شيءٍ حيٌّ وحاضرٌ، البكاء، المطر، الوجوه الصّارمة، الغيوم، وضفيرتا هالة مازالتا تتأرجحان من خلفِ عربته، ووجه أمِّه الشّاحب؛ وعربة الحياة والموت تمضي به، يلعق الصبَّار قبل نومه كلّ يوم، ومازالت اللَّعقة تشعل غضبَه وأحزانه، ميعاده اللَّيليُّ لا يمنعه عنْه أيّ مانعٍ. وفي ذكرى الطّرد من كلّ عامٍ من الأعوام الماضية،

يُخرِج عباءة الشَّيخ عثمان من خِزانة الكنبة، ويرتديها أمامَ المرآة. وفي هذه الذِّكرَى الثَّامنة تأمَّل نفسه.

أذكرني وأنا أتعثَّر بها على سلالمِ البيتِ مبلول الجسد كالفَرْخ الواهن في الشِّتاء.. وها هي قد صارتْ قصيرةً عليَّ كثيرًا.. لقد استطلتُ يا سعد.. وأنا عائدٌ يا سعد يومًا ما.

ها هو الجَدُّ الذي شاخ كثيرًا من يوم ماتتِ ابنته، يعود من زيارة للأهل في القرية، فيجد عاصمًا الذي صار مساعدَه، وقد وقف محتدًّا وأمامَه كلّ عمَّال المعمل والمتجر خاضعين مهمومين وجوههم للأرض.

- الشُّغل شغل، لسنا في ملجإٍ هنا، مَن له حاجة في الشُّغل أهلًا به وسهلًا، ومَن أراد الرَّاحة فليذهب لبيته.

ولمّا رأوا صابرًا ارتاحوا وتنفَّسوا الصُّعَداء، وارتبك عاصم..

- جئتَ؟ حمدًا لله على السَّلامة يا جَدِّي.

أشارَ لهم الرَّجل للانصراف داخل المعمل:

- ما هذا يا عاصم؟!

- يا جَدِّي، هُم مدلَّلون.. إنْ ضَغَطنا عليهم أكثر أنتجوا أكثر ورَبِحنا أكثر.

لَعِب الرّجل في لِحْيته البيضاء، وقد احمرَّ وجهه، وعيناه على الأرض

- أنا لا أريد أن أضغَط أكثر.

- على راحتك.

تأمَّل الرَّجل وجهَ عاصم وجسدَه الفارع، وابتسم ابتسامة تعجُّبٍ

- يا بن ابنتي، قَلِقٌ أنا منْكَ على هذه الصُّورة، هذا ما تفعلُ برجالي وأنت في السَّادسة عشرة، فماذا تفعل في العشرين؟!

وَجَم عاصم ولم يردَّ، كان ذاهلًا من كلمة (**قَلِق**). وبدأ يتلمَّس مَقصِد جَدِّه، وطافتْ على خاطره صورةُ الجَدِّ النَّادم على الزِّيجة، يوم أنْ تمسَّك بكفِّ أمِّه من تحت أغطية الشِّتاء ليضمَن الأمن.

وأكمل الجَدُّ: بَيْضة مصبح التَّاسعة.

يخرج منها رُخٌّ آخر!

انهارَ الفتَى: لا يا جَدِّي، أنتَ فهمتني خطأً.. ليس بنيَّتي شيء، جَرَحتني.. جَرَحتني!

- يا عاصم.
- أتساويني باللّصوص الثمانية؟! أنا فقط عارفٌ أنّهم يستطيبونكَ، فرأيتُ أن أحزم معهم.

وأكبَّ على يد جَدِّه يقبِّلها بكثيرٍ من الحبِّ وشيءٍ من الغضب

- لا تقلِّد مَن ظلموكَ يا عاصم، حتّى مَشيتكَ التي تمْشيها الآن لا تعجبني تمامًا. إنّها- والله- مشيتُهم.

وازدادَ غضبُ عاصم ووجعُه، وهو في انكبابه على يد جدِّه، فجدُّه يرى وجهَ شبهٍ بينه وبين إخوته لا يراهُ هو، ولا يريد أَنْ يراه، لكنّه مِن يومها توقَّف عن مَشْيته المختالة التي بدأ يمشيها منذُ بلوغه، وهو لايعرف إنْ كان قد اختارها أم هي اختارته.

وهيَّأ له جَدُّه التَّعرُّف على (**حسَّان الدّكروري**)، فتى يكبُره بثلاثِ سنواتٍ تقريبًا، متعلِّمٌ بالأزهر وطيِّب الأخلاق ومهذَّب، حفيدٌ لرجلٍ ورَّاق، متجرُه في حيِّ الأزهر، حفيدٌ لـ (**إسماعيل الدَّكروري**)، هذا الرَّجل الذي رآه عاصم أوَّل مرَّةٍ من خلف السِّتار قد جاء لواجبِ العزاء في وفاة أمِّه، ثمّ

رآه مرَّاتٍ بعدها مع جدِّه صابر، والحفيد حسَّان يعمَل خطَّاطًا من خلال متجر الوِراقة الذي يمتلكه جدُّه.

لقد أنِف عاصم من هذه العلاقةِ التي رعاها الجَدَّان معًا؛ وخاصَّةً لما لَمَسه من أدب الشَّابِّ وتديُّنه، فغاظه أنْ يتكلَّف جَدُّه إقامة هذه الصَّداقة بكلِّ حماسة، وكأنّه اختار له قدوةً يقتدي بها، واحتجَّ في أعماقه على هذه الأفضليَّة التي يشعُر بها جَدُّه تجاه الشَّابِّ، جدُّه الذي يهينه بغير قصدٍ، بوسواسه العنيد من أنْ يتحوَّل عاصم بحكْم الوِراثة إلى نسخةٍ أخرَى من إخوته بعد أنْ طال عوده وقويت شخصيَّته، وظهرتْ فيه نزعةٌ واضحةٌ للقيادة وممارسةُ النّفوذ وإسداء الأوامر، ولطالما اختنق عاصم عندما يتسلّل جده إليه ليلًا، ويكشف وجهَه وهو نائم في فراشه، كأنّه يخشى من أن يجده وقد تحوَّل إلى سعد تحت الغطاء.

هذه الأنَفَة من تلك العلاقةِ التي رعاها الجدَّان، ضاعتْ في رحلةٍ عائليَّةٍ جمعتهما والجَدَّين إلى قرية (**بولاق الدَّكرور**)، بلدة إسماعيل الدَّكروري. ضاعتْ في أمسيَّات اللَّيل وهما يتمشَّيان على ضَفَّة النيل، أو يجلسان عند ساقية (**بيان**) [قرية بولاق الدكرور القديمة كانت عند موقع المتحف الزراعي حاليًا، وكانت تطلّ على فرع للنّيل، وتحوّل من بعد ذلك موقع القرية وكذلك مجرى النيل]، وهما ينظرانِ صباحًا لحقول الكُرُنْب والقُنَّبيط والفُلفُل وغيرها الممتدَّة أمامهما إلى هضبة الأهرام، وهما يرقُبان العربةَ الفارهة التي تجرُّها أربعةُ خيولٍ، المتَّجهة إلى استراحة الأسرة العَلويَّة في زِمام القرية، ويجري بجانبها الخَدَم بألبِستهم المزركشة. وهما يقتربان ويتجسَّسان الاستراحة، بينما يحلُم عاصم بأميرةٍ تجلس بالدّاخل ساعة الشّروق بفستانها الزّهري على شجرةٍ منبطحةٍ على بحيرة ماءٍ في قلب الاستراحة، تعملُ في أشغال الإبرة وقد وضعتْ بجوارها زهرَ القرنفل وبكراتِ الخيط الزاهية الألوان، سيمضيان معًا، فوق العشبِ

النديِّ النّاعس الذي تربّت عليه الشّمس حتّى يقوم، هي تغنّي له، وهو يجمع لها التوت في سلَّةٍ تعلِّقها في يدها.

أمَّا حسَّان فتمنَّى أن يسأل الأمراء النازلين بهذه الاستراحة عن خطَّاطٍ فيدلُّوهم عليه، فيزخرف الاستراحة بالخطوط الجميلة، فيتحصَّل على عطاءٍ جزيل، ويخرج بظهره مثلما يغادر العامَّة مجالس السّادة.

لقد زالتِ الجَفْوة التي كانت من طَرَفٍ واحدٍ، رغم أنّ عاصمًا تأكَّد أنّ الفتَى النَّحيل الرَّقيق الملامح البشوش الوجه لا يحلم مثله، بل يريد السَّتر من الرِّزق أو يزيد قليلًا، وليس به صخبٌ وطلبٌ مثله، بلْ بداخله سكينةٌ عجيبةٌ وقناعة. ورغم هذا الاختلاف إلَّا أنّ عاصمًا أحبَّه، واقتنصه، مثلما اقتنص أبوه الشّيخ عثمان. وقد نمتْ بَذرة الحبّ هذه بَدْءًا من أيَّام الرِّحلة الرِّيفيَّة هذه لسببٍ وجيهٍ أغرَى عاصمًا بالمحافظة على تلك الصَّداقة: وهو هذا الأدب الجمُّ الذي يعامله به حسَّان رغم أنه يكبُره. كان يضحك في أعماقه من هذه المعاملة غير المبرَّرة، ولكنّها أعجبته وهو في سنِّ العُجْب. هذه المعاملة نفخت الحياة في تلك الصَّداقة في بدايتها بين نقيضين، لكنِ رغبة عاصم في هذه الصَّداقة استغنتْ بعد ذلك عن هذا الدافع. وإن ظلَّ شيءٌ من الأدب باقيًا في تعامل حسَّان مع صديقه عاصم، يبدو معه حسَّان وكأنه لم يرفع كلَّ الكلفة.

وقد أحبَّ أمَّ هذا الشَّابِّ التي رآها في القرية في أوّل زيارة، وارتاح لاستقبالها الكريم، وابتسامتها الجميلة، وخفَّة ظلِّها، وسعِد بهذا الرَّجل الطَّيِّب الخجول الذي كان يوَدُّ أن يحمِله وجَدَّه من على الأرض حملًا، ولا يكفُّ عن سؤالهما عمَّاذا يريدان كلّ قليلٍ. وعرَّفه حسَّان أنه زوج أمِّه، وأنه من أبٍ وحده وإخوته من هذا الطيِّب، ثمّ صرَّح له بصوتٍ خفيضٍ مرتبكٍ، ووجهه للأرض أنّ أمَّه مطلَّقةٌ من أبيه منذ زمنٍ بعيدٍ، ولم يزِدْ عن ذلك شيئًا. ولم يكنْ من الصَّعب أن يفهَم عاصم أنّ والد حسَّان من نفس

عائلة جَدِّه لأمِّه؛ لحمل حسَّان لنفس الاسم: (**الدَّكروري**). وعاصم بطبعه ليس فضوليًّا، ولا يحبّ أنْ يعرف عن النّاس أكثرَ ممّا يصرِّحون به، وصاحبه الجديد لم يشأ أنْ يحكي عنْ أبيه شيئًا، لذا لم يسأله ولن يسأله.

قد نَمَتْ عَلاقةٌ قويَّةٌ بين الفَتَيَيْن، وعاصم الذي لم يقصَّ سرَّه لأيِّ صاحبٍ، والذي لم يسرَّ لجَدِّه كافله بعهْد المرِّ بينه وبين أمِّه، قد حكى كلَّ ذلك بلا أيّ إلحاحٍ أو فضولٍ من صاحبه الحسَنِ الإنصات الحَنون. وحكى له عنْ هذا الكابوس شبه اليوميِّ، الذي يستيقظ منه مفزوعًا من لَطمةٍ على وجه أمِّه من سعد، عذابه وعذاب صابرة، وهذا النَّهار المريع الذي فَقَد فيه أباه وبلدَه وأمنَه وكرامته، كلّها أشياء عُرِضَتْ على حسَّان بلا إخفاءٍ أو اختصار؛ حتّى التُّهمة الشَّنيعة حكاها، وحكى عن العذاب الذي عاشه مع ما أفاض فيه حافظ تبيانًا مُقززًا للجنس والخيانة والشَّهوات.

حسَّان كان دائمًا ما ينصَحه أنْ يداوي قلبَه بالنّسيان لا بالصبَّار، النّسيان أسهل، ووعده صادقٌ وحاضر، والصبَّار ليس كذلك، فقليلٌ من البشرِ هُم مَن تساعدهم الظُّروف على إنجاز الثّأر، وقلةٌ منهم تنعم بعدَ ذلك بسلام النّفس، ولا يستيقظ فيها الوَحْش المقيَّد في الصّدر؛ ويا عاصم، لعلّ هذه الأميرة التي على شجرةٍ تطلُّ على بحيرة، وتعمل في أشغالِ الإبرة وقد وضعتْ بجوارها زهرَ القرنفل وبكرات الخيطِ الزّاهية الألوان؛ لعلّها الدّنيا، وأظنّها لا تميل لمن يلحسون الصبَّار.

يضحكُ عاصم: وهل تميل إليكَ؟!

كان عاصم قد حَذَق كلَّ فنون صَنْعة جَدِّه وأسرار تجارته، لذا أثبتَ كفاءةً في إدارة هذه التَّرِكة لمَّا مات جَدُّه وهو في التَّاسعة عشرة، واعتدل كثيرًا مع العمَّال في المعاملة، وتخلَّى عن الشِّدَّة التي مارسها عرضًا؛ ومِن قبلها بعامٍ مات جَدُّ حسَّان وترك له متجرَه في الأزهر، وازداد تمسُّك الشّابين ببعضهما بعد أن فقد كلٌّ منهما جدَّه سنَدَه.

وقد علَّمه حسَّان مبادئ القراءةِ والكتابة والحساب في تلك الفترة، ولم يبدِ عاصم ميلًا للاستزادة، وتوقَّف عند قراءةٍ مُجهَدةٍ وخطٍّ مضطربٍ ساذج. وحاول هو مِن جانبه أنْ يغري حسَّانًا بأن يجترئ على عالم التِّجارة ويشاركه في أيّ نشاط، ولكنّ حسَّانًا كان دائمًا ما يردِّد له بعدَ عرضه لأيّ مشروع: افرضْ أنّه لم يأتِ أحدٌ ليشتري، ما العمل إذًا؟ حتّى كان يسمّيه مداعبة: الشَّيخ (**افرِض**).

ومع هذا، ففي تلك السَّنوات الأولَى من عشرينيّات عمره، وقعت حادثةٌ أثبتتْ له أنّ جَدَّه قد أحسن اختيارَ صاحبٍ له، وأثبتتْ له في الشّيخ (**افرضْ**) شيئًا أعظم من جُرأة التُّجَّار:

تنزَّهَا في النِّيل بقاربٍ صغير، ووقف عاصم وهو يسندُ قدمَه على حافَّته ناظرًا لفترةٍ طويلةٍ لصاحبه الجالس في سكينةٍ وابتسام، كأنّ سكينته استفزَّته، وفجأةً، يمثِّل الاختلال ويطيح بنفسه من القارب، يصرخ مدَّعيًا الغرقَ طالبًا من صاحبه أنْ ينجدَه، يصرخ حسَّان الذي لا يجيد السِّباحة، يرمي نفسه وراءه، يغطس، يطفو ويسْتغيث، يغطس ثانيةً، يظهر رأسه وقد تعبَّأتْ عيناه بالرُّعب الرَّهيب، يدركه عاصم المازحُ الذي يجيدُ السّباحة منذ طفولته، يطرَحه في القارب مبتلًّا فزِعًا مجهدًا متشنِّج الأطراف، وأخذَ يضغطُ على بطنه يخرج منه الماء.

- آه يا عاصم؛ رأيتُ لك من تحت صفحة ماء النيل مباشرةً وجهًا غير وجهك، رأيت وجهًا قاسيًا جدًّا، يملؤه الغضب.

ومِن يومها يمنُّ عليه بها حسَّان ضاحكًا، إنْ تطلَّب الأمر مِنَّةً، أو دليلًا على الإخلاص والحبِّ..

- اذكرْ جميلًا لي عندكَ يوم أنقذتني من الغرق.

حسان بوابةٌ خضراء ظهرتْ أمامَ عاصم في وقتٍ ما، دخل منها متلكِّئًا في البدْء كأنّه يُدفَع من ظهره، دخل إلى عالم هادئٍ مطمئنّ، عاش فيه بجزءٍ من روحه، وترك جزءًا هاربًا شاردًا، يحثُّه على العودة للذات وهاجس صابرة المزمن؛ سحبه الصاحبُ الجديد بعد العودةِ إلى القاهرة العتيقة برفقٍ إلى ركعتين في صحن الجامع الأزهر بالأسْحار، وإلى التّواشيح بعد العشاء في حيّ الحسين، وإلى جلسات أصحابه المشايخ الشّباب، يستمع للمواعظ والرَّقائق، يذوب قلبُه حينًا، ويستبشرُ حينًا، وتدمع عيناه أحيانًا كثيرةً، ويمضي مطمئنًّا. لكنْ أحيانًا ما تحدثُ له انتباهةٌ وهو ينفضُ نعْليه وينتعلُهما عند باب المسجد، يمضي مضيَّ الهاربِ الذي يستشعر خطرًا هادئًا كالنّسيم، خطر الالتفاف، ليعتذرَ عن جلسةٍ وجلستين بعد ذلك. لم يذبْ في هذا العالم، ولم يقتربْ من هؤلاء المشايخ مثْلما اقتربَ من حسَّان؛ استطاعَ بذكائه وانكفائه الغريزيِّ أنْ يضبُط علاقته بهم، فلا هي تفتُر حدَّ الانْقطاع، ولا هي تنضَج حدَّ الحميميَّة، تبدو إلى حدٍّ كبيرٍ كقَبولٍ لأصحاب الصَّاحب، لا يريد أنْ يتركه لهم، ولا يريد أنْ يكونَ منهم؛ وهم طيِّبون ومهذَّبون مثلَ حسَّان، لكنّه أبى أن يتعلَّق بهم مثْلما تعلَّق به، فانكشفَ له بعد أنْ تعرَّف إليهم أنّ حبَّه لحسَّان لا علاقة له بتقواه وورعِه، حبٌّ عميقٌ يستعصي على فهْم الناس وفهمِه.

جلسَ إلى هؤلاء كلَّما سنحتِ الفُرَص، متأثِّرًا بالأحاديث الوعظيَّة والقصص كلَّ التأثُّر؛ فهي جذَّابةٌ وسهلةُ الفهم، يحكيها لخيالِ صابرة المريضة إنِ انفرد بها ليلًا يواسيها ويخفِّف عنها آلامها. وأحيانًا ما يدافعُ عن نفسه بينهم ضدّ الشّعور بعدم الفهم والاستيعاب، شاردًا إذا تدارسوا كتبَ العلم القديمة الثَّقيلة عليه، وقد غلبه الشّعور بالغُربة والنّفور، وميلٌ حادٌّ للانكفاء على النفس، فيغيب فترةً عنهم يلعق جرحَ الجهل، ثمّ يعودُ وقد داوى نفسَه بنفسه؛ وقد كانت هذه الخصلةُ تعمل عملها في إخوته هناك في البريَّة في ذات الوقت، فهُم جميعًا لديْهم جرثومةٌ أصيلةٌ تدفعهم للنّفور ممّن يمتاز عنهم بشيءٍ، وتدفعهم لتفضيل العيش مع مَن هُم أدنى؛ لذا أخذت الخيوطُ التي مدَّها الأب مع كبار المعارف من أهل المدينة والرّيف وعواقل العرب تتقطَّع؛ الإخوةُ هناك يخسرون الناسَ بغير وعي، مكتفين بمَن حولهم ممّن يرونهم أثْرى الناس، وأجَّلهم شكلًا، وأعرقهم أصلًا، وأكبرهم عزوةً.

وقد مشتْ تجارةُ حسَّان على وتيرةٍ طبيعيَّة، أمَّا النَّماء المثيرُ فكان حظَّ عاصم وموعده، لقد كان مرزوقًا بطريقةٍ تدعو للعجَب، يسمع عن أيّ فكرةٍ فيضعُ فيها بكلّ التفاؤل بعضَ المال فتعود عليه بأرباحٍ وفيرة؛ جرَّب حظَّه مرَّةً واثنتين وثلاثًا فرَبِح، في الفحم والأجبان والعسلٍ وغيرها من بِضاعة؛ وقاربا الصَّيد الصَّغيران اللّذان اشتراهما ليجرِّب حظَّه، أخذا يجمعان أكثرَ ممّا تجمع قوارب من نَصَحه بهذا المجال، حتّى تملَّكت من قلبِه عقيدةٌ راسخةٌ بأنّه إنسانٌ مرْزوق، وأنّ ما به من نَعْمَةٍ هي مِن رعاية الله له، ومن استجابتِه دعاء شيخ في الطَّريق عندما كان تحتَ الخِباء بليل الصَّحراء، شيخ طيِّب قد نسوه في غمرة الأحزان، فشَرِب النَّعْناع ومضَى،

وأنّ هذا المال عطيةٌ مِن الله يمهِّد له به الطريق الطويل الصعب إلى ثأره، فإنْ شرد عن ثأره وتناساه، رفعَ الله عنه حظَّه وتركه عرضةً للمكاسب والخسائر كأيّ تاجر، ومن يوم أنْ تمكَّنتْ منه تلك العقيدةُ قويتْ دوافعُه للانتقام، وصار لا يفرِّق في كوابيسه بين الإفلاس والعفو عند المقدرة.

وحالُ عاصم مع الحظِّ أصبحَ مُلفتًا للانتباه بين تجّار الحيِّ الذين يعرفونه، حتّى أنّ تاجرًا كبيرًا كان عاصم يحترمه ويقدِّره، قد أتاه مرَّةً ليحتسي القهوةَ معه بغير ميعاد، ثمّ مدَّ رقبته، وضيَّق حَدَقتيه، وحكَّ بسَبَّابته على وَشْم العُصفور على صُدْغه، وسأله إنْ كان ممّن يدفِنون (**عِرسةً**) مذبوحةً تحت عَتَبات أبواب رزقهم؛ استجلابًا للرِّزق الوافر وأقدام المشترين، فضَحِك عاصم، وفَرِح بأنْ يكونَ حاله ملفتًا لرجلٍ غنيٍّ كهذا، ثمّ أنكرَ وسخَّفَ من مثل هذه الأفكار والظُّنون، فانكفأ الحاج (**غنيم**) بمرفقيه على الطاولة يغري عاصمًا بأنْ يتشاركا في تجارة، بصوتٍ هادئٍ وبإلحاحٍ، كأنّه وقع على فرصة عمره، فصارحه عاصم بشيءٍ من الارتباك، بتعجُّبه من هذا العرض الذي يأتي ممّن لا ينقصه المال ليتموَّل به، وله في السوق عددَ سنين، فردَّ الرجل مندفعًا: يا أخي، (**مَن جاور السَّعيد يسعد**).

وعندئذ، يتخلَّص عاصم من ارتباكه، ويبتسمُ ابتسامةً حجريةً لا يعرف مِن أين أتى بها، ويحدِّق طويلًا في العُصفور على صُدغ الرَّجل، ويعرض عليه بلا مبالاةٍ أنْ يشاركه بالمال على ألَّا يسأله عن أيّ شيء، فقط يأخذُ أرباحه وكفَى، وألَّا يخبر أحدًا بأمر الشّركة، وإنْ خالف تنفضّ الشركةُ بينهما؛ مدّ الحاج (**غنيم**) صاحبُ الأموال الطَّائلة الذي يفتقدُ الخيال والقدرةَ على التَّجديد وجُرأة الشَّباب، والباحث عن مجاورة السّعيد، مدَّ يدًا متحمِّسةً لقراءة الفاتحة.

ومِن هنا، كان الصُّعود الثَّاني لعاصم، الذي استغلَّ أموالَ الرّجل الطّائلة- بجدارةٍ وأمانة- في الحصول على عقود تعهُّدٍ من الباطنِ مِن المقاولين الكبار، الذين حصلوا على عقودٍ ضخمةٍ جدًّا في عصر الخديوي إسماعيل الذي شَهِد طَفْرةً عُمرانيَّةً كبيرة، ذلك من بلوغه الرَّابعة والعشرين من عمره، وكانت محدودةَ الحجم في البدء. وفي جوّ الثّقة التي نالها من حُسن أدائه، ورغبةً منه في الحصول على عقودٍ كبيرة بدأ يعلنُ بين مَن بدأ يتلمَّس طريقَه بينهم من السّادة والمقاولين والمقرَّبين من القصر؛ بدأ يعلن أنّه ابن المرحوم شيخ العرب مصبح من زوجته القاهريَّة، الشيخ مصبح الذي شرف بزيارة للوالي محمد علي باشا بقصره في شبرا، وقد كانت أوَّل مرَّةٍ يستخدم فيها اسمَ والده؛ تأخَّر ذكره لوالده في عالم الأعمال، خوفًا منه أنْ يصل خبرُه لإخوته، حرص على أنْ ينساه هؤلاء حتّى يعود إليهم، ولمَّا علم أنّهم قد انكفئوا بعد موتِ الوالد على عالمهم الضّيق شيئًا فشيئًا، وخسروا في نهاية الانكفاء المعارفَ والصلات التي كوَّنها أبوهم في المدينة كلّها، ولم يبقَ لهم إلَّا النّجعُ والرّيف القريب، عندئذ تكلَّم عن أبيه، وتمنَّى لو كان معه تلك الصّورة الزيتيَّة التي رسمها فنّان مالطي لأبيه في مجلس الوالي، والمحفوظة في بيت أبيه.

الحاج (**غنيم**) بوابةٌ صفراء ظهرتْ أمام عاصم في فرصةٍ خيالية، دخل منها مندفعًا يكادُ ينكفئ على وجهه، لمَّا تعرّف إلى الحاج (**غنيم**) وقرأ الفاتحة على الشّركة، صار خلف هذا العجوز البسيط يتعرَّف إلى التجَّار الكبار، يلتقط بوعي حاضر الأخبارَ والخبرات والصَّفقات، ويعزِّز مكانته شيئًا فشيئًا في مجتمع القَّاهرة، سعيدًا بهذه الطّريقة التي بدأ يتعلَّمها منهم في الحُكم على الأمور، وبجوِّ الترقُّب المثير لنتائج الأعمال وصراعاتِ العمل، وما إنْ يتملَّكه الشّعور بأنّ هذا العالم هو عالمه الذي خُلِق له، حتّى يغمره إحساسٌ بالغربة العميقة والضّياع إذا رأى اثنيْن منهم

قد كشّرا عن أنيابهما كذئبيْن، إذا اختصما في المال ولو كان قليلًا، أو رأى أحدهم يتمسَّح في آخرَ كالقطِّ الأليف وهو يعرف مقدَّمًا أنّ هذا يمهِّد لتجارة، كلّ هذا العالم لا يفكِّر أهلُه إلَّا في جمع المال، ولا يجتمع أهلُه إلَّا على المال، الحبّ والبغض، النشاط والسّعي، النّسب والمصاهرة، كلّها في المال؛ ضاقَ بهذه الرّوح الجشعة التي ترغب في امتلاك كلّ شيء، حتّى امتلاكه هو نفسه، وضاقَ بهذه الابتسامة اللّزجة الطّامعة، وبالاقتراب المثير للقرف من بعض التجّار الذين رغبوا في تزويجه مِن بناتهم أو أخواتهم، واحتقرَ هذا التغيُّر الفوريَّ والتوقُّف عن التبسّم اللّزج والاقتراب المثير للقرف إنْ جاء للبنت أو الأخت نصيبُها، ولم يعدِ التّاجر بحاجةٍ لتدبير عريس. وبشكلٍ عام، فقد اتّفقوا، سواء هؤلاء الذين كانوا يبحثون فيه عنْ عريس أو العابثون فيهم الذين حاولوا جذبَ هذا الشّاب الوسيم للنّساء والخمر والأفيون، وفشلوا في ذلك، اتّفقوا على أنّه ابنُ ناس ومحترمٌ جدًّا، لكنه معقّدٌ لا يقدر على معاشرة النّساء، بغضّ النّظر عن نوع النساء.

الفصلُ العاشر

في بدايةِ فترة الصُّعود الثّاني، وجمعه ثَمَر جُرأته في اقتحام السُّوق، أتَى إليه أحدُ رجاله يستعطفه؛ ليوظِّف لديْه شابًّا صغيرًا هربَ لتوِّه من محلِّ عمله، بعد أنِ انتقم من رجلٍ آذاه انتقامًا رهيبًا، وهو يخشَى أنِ يعود لبلدتِه الرّيفيَّة التي يعرفها أهلُ حارة هذا الرّجل، الذي من المؤكَّد أنّه وزُمرته يأتمرونَ به الآن، وسيبحثون عنْه، فأمرَه عاصم بأنْ يأتي به فورًا.

وجاء الرَّجل بالشَّابِّ الصَّغير (**سيِّد**)، جاء به يمسكه مِن يده. كان مرتبكًا لفوتًا بشكلٍ كبير، نظر لعاصم نظرةَ لاجئٍ مترقِّبٍ ضاقتْ به السُّبُل، نزلَ به من القلقِ ما يعوِّقه عن حسن الرَّجاءِ والتَّملُّقِ، ونظر له عاصم بتقدير وإعزاز. وطلب الشَّابُّ منه أنْ يكلِّفه بأيّ عملٍ بعيدًا عن النَّاس ومخالَطتهم؛ لأنّه يخاف أنْ يُرصَد، والدُّنيا صغيرة، كما أنّه يريد أنْ يبتعد عنهم لأنّه لا يثق بهم ولا يودُّ معاشرتهم؛ فقد جاءَ من بلدةٍ في الرِّيف يُعامَل فيها باحترام، ووجد نفسَه بين بشرٍ يفرضون عليه فرضًا أنْ يكون الهُزْأة المضحِك كي يقْبلوه، هذا أو يُهان ويُضرَب، فهزَّ عاصم رأسَه طَرَبًا، وأخذ يربِّت على كتفِ هذا المنتقم. وقد اعتبرَ هذا النّحيف بقلقه وكبتِه

وحكايتِه علامةً مرسلةً إليه، مثلما ينظر الإنسانُ لطيرٍ ضامرٍ نزل إليه من نافذةِ الحجرة.

وتسلَّم الشَّابُّ عملَه في مخزن الفحْم، مملكة العتمةِ التي لجأ إليها، وارتدَى شوالًا من الخَيْش ثوبًا له، وغابتْ ملامحه في سُخام الفحم؛ هنا يمكنُ للشّاب الذي كره الكلامَ أنْ يعتزل، وأنْ يقتصدَ وينطق بالقليل فقط، مع الذين يدقُّون حلقة بابِ المخزن من تُجَّار التجزئة، فيفتح البابَ ببطءٍ، ويقبض على الخطَّاف المعلَّق خلفَ الباب، ويضرب به شوالَ فحْم، ويحمله على ظهرِه إلى العربة، وهكذا إلى أن يغلق البابُ مرَّة أخرى بوجهٍ متعرِّقٍ وأنفاسٍ متقطِّعة. والتجَّار معجَبون بهذا النّحيف شديد العَصَب الذي يحمِّل عربةً في دقائق قليلة، وعاصم معجَبٌ بهذا الذي انفجرَ وتركَ خلفَه أجرَ شهرين ادَّخره لدَى صاحب العمل السَّابق، معجَبٌ بهذا الكائن الانتقاميِّ النَّحيف، طويل الشَّعر ملطَّخ الوجه، يخرج إليه من ظُلمة المخزن في شوالٍ من الخَيْش بلا كمٍّ، يغطِّي قليلًا بعد ركبتيه.

ولم يعدْ لسيد من متنفَّسٍ إلَّا الصُّعود إلى سطح المخزن؛ حيث يتشمَّس ويفلِّي شعره الذي طالَ، وينظر قليلًا إلى المارّين في الحارةِ وقد دارى نصفَ وجهه، يجرِّب لنفسه نطقَ الكلمات بعد أنْ ثقل لسانه.

وكلّ سنة، في ميعادِ زيارته السريَّة لأهله، التي يذهب فيها ليرتمي بين أحضان أبويه وإخوتِه الصّغار ويزوِّدهم بالمال، ويمكُث عندهم قليلًا متخفِّيًا عن الأنظار، يستحمُّ الشَّابُّ في عشَّةٍ فوق سَّطح مخزن الفحْم، وهو ينظرُ للطّيور والسّحاب وهو يبكي، ويخلع الشّوال ويلبَس ثوبه، ويذهب للحلاَّق ويحلِق شعرَه، وتنحلُّ عقدةُ لسانه وهو ينظرُ في وجهه النّظيف الذي بانَ في مرآة الحلَّاق التي بين يديه. ويشعُر عاصم بالضِّيق عندما يراه في نظافتِه هذه وقد خرج للضَّوء والهواء، وينقدُه النُّقود ويؤكِّد عليه بألَّا يغيب، وإنْ نظر له سيد متعجِّبًا من إلحاحِه على العودة ومِن

تمسّكه به، ذلك التمسُّك الذي يثير في نفس سيد مشاعرَ مختلطةً من السّعادة والاحتجاج- وفي كلّ سنة تقلُّ السّعادة ويزيد الاحتجاج- يبرِّر عاصم ذلك الإلحاح بخوفِه عليه من القتلِ الذي ينتظرُه إنِ استقرَّ بالبلدة، ولا يتركه إلَّا وقد دبَّ في قلبه الخوف، وأكَّد نيَّته على العودة القريبة.

تمرُّ الأيّام، وأصبح (**السَّيد عاصم**) من كِبار تجَّار الحيِّ، ومعدودًا- وهو في الثَّامنة والعشرين- من تُجَّار القاهرةِ البارزين دونَ رتبة الأساطين فقط، حين اشترَى لنفسه دارًا واسعةً عتيقةً غامضةً بناها في الأصل أحدُ كبار المماليك منذ قرْن، وباضتْ فيها الثّعابين، وتغوَّلت أشجارُها حتّى اقتحمت أغصانها وأوراقها الغرف محمَّلةً بالتّراب المتراكم وملاءاتٍ من نسيج العنكبوت، فأحيا حولها حديقةً من أشجار الفواكه والزّعفران والأزهار والرّياحين، ووضع الصبَّار فوق السَّطح ليلعَق المرَّ قبيل النَّوم. وأصبح لديه عبيدٌ في بيته يخدُمونه والكثيرُ من المساعدين في تجاراتِه المتنوِّعة، فيما كان حسَّان الورَّاق الخطَّاط في نَجْاحٍ معقول، سترٌ من الرِّزق أو يزيد. وقد تعجَّب حسَّان من تغيُّر مزاج صاحبه في تلك الفترة التي جلب فيها العمَّال لتجديدِ وترميم بعض نواحي الدّار، عندما طالت بهم المدَّة ليلًا ونهارًا وهم يملئون أرجاءها، هذا يحمل الغراء، وذاك يخرِج بالركام، وآخرون افترشوا الأرضَ يأكلون، وذاك على السقَّالة ينشُد، كان حسَّان خلفَ صاحبه الذي يطلُّ عليهم من شبّاك غرفته الصّغير بشيء من التوتُّر مستعجلًا انتهاءهم من أعمالهم وخروجَهم من بيته، ولـمَّا سأله عن سبب تأفُّفه من وجودهم ردَّ عليه مستنكرًا بأنّ البيت صار وكالةً من غير بوَّاب، (**رِجل داخلة ورِجل خارجة**)، قالها بحنقٍ شديد.

في هذه السَّنة، لم يعدْ به أيّ حاجةٍ لأموال الشَّريك القديم السِّريِّ المثاليِّ الذي لا يسأل عن طبيعة النَّشاط، ولا يتعجَّل صرفَ الأرباح، ويثقُ به ثقةً عمياء.لم يعدْ به حاجةٌ إليه على الإطلاق، ولكنّه لا يستطيعُ أن يفعلها، فهناك جزءٌ من نفسِه خارجَ عالم التّجارة وقوانينه الباردة. إلّا أنّ القدر الإلهي أعفاه من الحرَج، ومات الرَّجل، وله مالٌ في ذِمَّة عاصم. ذهبَ للعزاء ومعه حسَّان، ثمّ انتحَى هو وحسَّان بابنه البِكر جانبًا، وأطْلَعه على ما لأبيه عندَه مِن رصيد شَراكةٍ قديمةٍ بينهما، فشكره الرَّجل، غير أنّه استدرك بعدَ الشُّكر وشيءٍ من الصَّمت، وطلبَ منه أن يُثبت– لا مؤاخذة– أنّ هذا فقط هو المستحقُّ، فردَّ عليه بلهجةٍ غاضبةٍ أنّ عليه أنْ يُثبت أنّ له شيئًا في ذمّته أصلًا، وتركاه ومضيا، عاصم في خطى قويَّةٍ، وحسَّان في خطى متردِّدة، ينظرُ في وجه صاحبِه الذي صار مخيفًا. وأخذ الرجلُ لشهرين يعتذر، ويوسِّط النّاس، ومنهم حسَّان ليأخذَ المال وعاصمُ يأبى.. يهديك، يرضيك، ولا فائدة، حتّى اعترض حسَّان على عاصم، وأخذَ يرجوه أنْ يفيق ويتركَ هذا العناد الذي يجعله يشعرُ بأنّه يقف أمام رجلٍ آخر صعبٍ جدًّا لا يعرفه، فتذكَّر عاصم يدَ جدِّه التي كانت تكشفُ الغطاءَ عن وجهه، وبيضة مصبح التّاسعة التي كان جدارُها يُشرَخ ويتخوَّف الجدّ من خروج الرخِّ التّاسع منها، فاحتدَّ على صاحبه جدًّا متَّهمًا إيَّاه بالتجنِّي، وأخذَ يدافع عن نفسه بحرقةِ المظلوم، وهو يمسكُ بساعده، يذكِّره بأمانته مع الشّريك ووفائه له وعدم قطعِه للشّراكة بعد أنِ استغنى، وقال له إنّه حبيسُ الكُتُب لا يجيدُ التّعامل مع الأنذال، ولو لانَ مع الرّجل وصبرَ على سوء ظنِّه لظلَّ الرجلُ يطلب إثباتًا على أنّ هذا المال هو كلّ ما لأبيه الحاج (**غنيم**)، أمَّا الآن فلنْ يطلب إثباتًا؛ بل سيقبِّل الرأسَ للمرَّة العاشرة، ويضع على نفسه الخطأ أمام الناس، وقد كان.

لمّا نزل هذا الطيرُ الضّامر (**سيد**) إليه بقلقِه وإعيائه وإلهامِ انتقامه، اعتبره إشارةً له بالولوج في عالم الفتوَّة والدّم، بوابةٌ سوداءَ إلى هذا العالمِ الذي يراه من بعيدٍ برجاله الأشدّاء وأهوالهم، فالتجَّار وأصحاب حسَّانَ الطيّبون يؤجِّلون ثأره، والثأرُ يحتاج لشيءٍ من الفوضى والعناد وحدَّة الذاكرة، ويحتاج لمن يؤجِّج النّار في الصّدر، ويقلِّب المواجع، وهؤلاء الفتوَّات كفيلونَ بتأجيج نار ثأره بإلهامات حِكايات اقتصاصهم وانتصاراتهم، إنّهم بلسمٌ للَّيل، حيث يعود لأمِّه واللَّوعة. لقد نظر إلى الثأر الذي وعد به أمَّه كمهمَّةٍ مقدَّسة، ومصاحبته لحسَّان والمشايخ كمباركةٍ من السّماء له، وأنه يُصنَعُ على عين الله، ونظر إلى عمله بالتّجارة وأرباحه الوافرة منها كمددٍ من الله لثأرٍ كبيرٍ يحتاج للمال والعدَّة. وبظهور سيد لم تتغيَّر نظرته لعالم حسَّان وعالَم غنيم كجزءٍ من مسيرة الثّأر، ولكنّه شعرَ بالغيرة من سيِّد الذي أنجز ثأرَه، فأخذ يتقلَّب على سريره ليلةَ أنْ عرفه عازمًا على ضرورة البدْء في شراء سيفِ الثّأر بعد أنِ ادَّخر ثمنه.

وأجَّل هذا الولوج الأمنية إلى أنْ يجدَ مدخلًا كريمًا يليقُ بمثله، وأجَّله إلى أنِ اشترَى البيت الواسع؛ حتّى يكونَ له من الوجاهة ما يجعلُه في حَصانةٍ ما في أثناء ولوجِه في هذا العالم الغريب المثير من جُرأة متحامقٍ، أو جهالة رجلٍ ليس له نظرةٌ في النَّاس.

دخلَ إلى عالم الفتوَّات وهو يقدِّم رِجْلًا ويؤخِّر الأخرَى، لمدَّة سنتين، حتّى فَهِم عنهم وعَرَف طباعهم، وعَرَف كيف ينتقي منهم، ويفرِّق بين معادنهم. وعامله الفتوَّات بكلِّ تبجيلٍ؛ فهو عينٌ من الأعيان، ولقد أطفأ هذا فيه نارًا شبَّت في الطفولة من فتوَّةٍ صغيرٍ لم يحسنْ معاملتَه اسمُه حافظ، عاصم يقف الآن أمامَ الوحوش ثابتًا بغيرِ لجْلجة.

وقد اضطربتْ علاقتُه بحسَّان في بدايةِ اقترابه من الفتوَّات؛ عاقبه حسَّان بشيءٍ من البُعد والنفور، متوقِّعًا أنْ ينسحب صاحبُه طوعًا من تلك الغابةِ المخيفة التي فاجأه بدخولها، وقد خابتْ توقُّعاته وأصابه الإحباطُ وهو يراه ينجحُ نجاحًا جديدًا غير نجاحِه السّاحق في عالم التّجارة، ويُكتَب له القبول مرَّةً ثانيةً في حياتِه، ومن وحوش هذه المرَّة، فسيطرتْ على حسَّان نفسُ الهواجس التي سيطرت على جدِّ عاصم، فرأى أنّ صاحبه تشمَّمهم وتشمَّموه فتعارفوا وتآلفوا، وأنّ صاحبه لبَّى شعورًا غريزيًّا عميقًا فيه دفعَه للميلِ لهؤلاء، كما يميلُ الوحشُ المستأنس لقطيعٍ وحشيٍّ من نوعه إنْ رآه فيذهب معه.

لكنّ هذا الاضطراب لم يدمْ طويلًا، إذْ سلَّم حسَّان بالأمرِ الواقع، خاصَّةً لمَّا رأى أنهم لم يتركوا فيه علامةً ظاهرة، وعرف أنّ صاحبه اليقِظ الذي يتخوَّف من خطرِ الالتفاف، أدارَ علاقته بهم كما أدارها مع المشايخ من قبْل، وجعل جزءًا من روحه خارجَ هذا العالم أيضًا.

انخرطَ بلباقةٍ في هذه الممالك الصَّغيرة للفُتُوَّات في الحارات، هذا العالمُ الذي يحيا على الغريزة.. والغريزة فقط، في الموالاة حدَّ التَّواطؤ، وفي العداوةِ حدَّ الجهالة. هذا العالم الذي يدفعُ الحبُّ والكراهية أهله للكذب الجماعيِّ، ذلك عرفه عاصم منذ بداياتِ دخوله هذا العالم، عندما حضر حفلة فرح، وها هو (**سلامة**) الفتوَّة يدخلُ الحفلة. سلامة الذي افتتحَ منذ شهرٍ مجزرًا متواضعًا، لا يسلَخ فيه من المعز إلَّا اثنين يوميًّا، ينادي عنه منادي الفرح حين دخوله بثوب العمل الملطَّخ بالدّم، مرحِّبًا بـ (**السِّكّين والمستحدِّ**) عُدَّة ملك اللَّحمة، وسلامٌ لملك اللَّحمة، هذا والكلُّ يعرف أنّه ليس ملكًا للحمة، وبينه وبين ذاك المسافة. وبمرورِ

الزّمن تحسَّنتْ تجارةُ سلامة شيئًا ما، وانشغل بها، وعزَّتْ خُطوته إليهم، فجرَّدوه من لقَبه، فصار (**سلامة الجزّار**)، ثمّ إنّها اتّسعتْ كثيرًا، وشغلته عن الفتوَّة والأَفراح؛ وبغريزته التي لم تتعطَّلْ أحسَّ منهم عاطفةً غير الإخلاص، فتجنَّبهم تمامًا، ولم يعدْ يُذكَر إلَّا وقيل: (**أبو ماعزين جزَّار الحَمير**). وحَمِد عاصم ربَّه أنْ عَرَفهم غنيًّا؛ فشتَّان ما يُسْر النَّاس مع الغنيِّ سلفًا وعُسْرهم مع مُحْدث النَّعْمة، حتّى وإن تواضع.

وتشابه عليه الفتوّات الذين مرُّوا عليه في تلك السِّنين، إلَّا بعض الذين أثاروا إعجابَه أو استعجابه بشخصيَّاتهم المميَّزة، وقد ركَّز تركيزًا خاصًّا على عَلاقته بالرُّؤوس منهم. وقد عَرَف في مبتدأ الحال، ذلك الرَّجل الرَّشيق الجادَّ قويَّ الشَّخصيَّة الذي يدعى (**حيدر**)، القويّ دون ضخامةٍ، والمهيب بلا بشاعةٍ، والذي كان له احترامٌ وتبجيلٌ خاصَّيْن في دنيا الفتوّات، والذي من السَّهل أن يُميَّز بين كثيرٍ من الفتوات؛ فهو قليلُ الكلام، كتومٌ، حذرٌ من النَّاس، غير شتَّام، لا يعرفُ الخمرَ والحشيشة، لا يحبُّ المباهاة، وأفعالُه تفوق أقوالَه، وغير مغرقٍ في التّفاؤل، يأخذ كلّ عدوٍّ مأخذَ الجدِّ مهْما قلَّ شأنه، كأنّه يتوقّع لنفسِه هزيمةً على يدِ فسلٍ لا وزنَ له. وقد ارتاح له عاصم كثيرًا، ربّما لهذا التّشابه بينهما في الحذر من النَّاس وعفَّة اللِّسان والتَّرفُّع عن تتبُّع أخبار الآخرين، ومثلُه لا يشرب الخمر.

أمَّا هذا الذي يتوسَّط الجلسة فهو (**إبراهيم**)، الأنيقُ المتعلِّم المستعرِض، الذي يأسر النَّاس بحديثه الظَّريف، والذي يعدُّ الفُتُوَّة بديلًا متواضعًا لما كان يجبُ أن يكون عليه حالُه كقائدٍ عسكريٍّ. ولطالما كلَّم الرِّجال الملتفِّين حولَه عن معارك عسكريَّةٍ معروفةٍ خاضَها (**إبراهيم باشا والي مصر**) أو (**سليمان باشا الفرنساوي**) أو (**نابليون**)، متصرِّفًا في

أحداثِها كيف يشاء، كما يتصرَّف في نبرة صوته في أثناء السَّرد تصرفًا باهرًا يشدُّ الانتباه، ولا يعرِف أحدٌ مصادرَه التي ينتقي منها المعلومات الصَّحيحة ويزيد عليها من باب التَّشويق، يحكي ويقول ويتقوَّل وهو يراقب نظراتِ الإعجاب المحيطة به. وهو بشخصيَّته الاحتفاليَّة هذه ليس حذرًا من النَّاس مثلَ صديقيْه عاصم وحيدر، وثقته بنفسه تزهده في التوغُّل في عقول مَن حوله. وعاصم ـ كتاجرٍ شهيرٍ ومحترمٍ ـ رأى فيه رجلًا لطيفًا لا يُحرَج مَن يماشيه بين النَّاس؛ فهو متأنِّقٌ ولَبِق؛ لم يحبّه عاصم كحُبّه لحيدر، وهذا شيءٌ لاحظَه إبراهيم ولم يزعجه.

وهذا المكوَّم هناك في الرّكن، وأفاقَ من نعاسه بين الجالسين، وأخذ ينظرُ لهم كأنّه يستغربهم، هو العمُّ (**جمعة**) المهزوم. عَرَفه عاصم في بداية تجْواله في عالم الفتوَّة وهو في منتصف الخمسينيّات من عمره، لم تتبقَّ علامةٌ من علامات الفُتُوَّة فيه إلَّا بقيَّةً من خيْر، لا يلحَظها إلَّا متعاطفٌ. منذ خمس سنواتٍ تقريبًا خرج العمِّ (**جمعة**) الذي كان يتمتَّع بصحَّةٍ جيِّدةٍ من عالم الفُتُوَّة خروجًا مأساويًّا مدوِّيًا، بقصَّةٍ خاطفة:

بالقرب من آخرِ الحارة التي يسكنها العمّ جمعة، كان هناك ساقي المقهَى الشَّعبيِّ، ذلك الفتَى الرِّيفيُّ السَّاذَج الصَّغير النّحيف الذي ترك ريفَه إلى المقهَى مباشرة، ولا يُحسن بعد التَّعبير عمَّا يريد بطريقةٍ مهذَّبة، مثلَ أهل قريتِه المعروفة بجَلافة اللَّفظ. جرَّ عليه لسانُه بعضَ المشاكل، وآخرها وأعظمها أنه تعرَّض للضَّرب المبرِّح والصَّفع على يدِ أحد الفتوّات من الحارة؛ لأنّه لم يجدْ ما يقوله له ليقوم من كرسيِّه وهو ينظِّف أرضيَّة المقهَى إلَّا (**قمْ فِزّ لأنظِّف تحتك**). لقد انضربَ ضربًا مبرحًا وأهين، وأخذَ يبكي يومها وحدَه على أرضيّة المقهى بعد غلقه دونَ أن يجد مَن

يخفّف عنه حزنه، واستيقظ في اليوم التالي على ارتفاع حرارة جسمه، وعلى سخرية الحارةِ من كلماتِه الغليظة التي جلبت عليه الضّرب.

وفي نهارٍ بعدها بأيام قليلة، وهو يحاول أن يتخطَّى ما حدث، وعيناه دائمًا على الأرض من الذلِّ والألم، حدثتْ مُلاسنَةٌ بينه وبين أحدِ الزَّبائن الغاضبينَ بسبب لفظٍ غير مناسب تفوَّه به أيضًا، وحاول أنْ يستدرك الأمرَ بسرعةٍ فاعتذرَ وقبَّل رأسَ الزّبون، وكلُّه رجاءٌ أنْ يساعدَه الزّبون على تخطّي ما حدث، فهو به ما بِهِ مِن تأنيبِه لنفسه في الأيّام الماضية، وقد ظنَّ أنّه لن يخطئ ثانيةً، إلَّا أنّ الزبون لم يلتفت لكلّ هذا، وأخذ يرفعِ صوتَه ليفضحَ زلَّته الجديدة بين النّاس، وعيَّره بالهزيمة المرَّة تعييرًا ثقيلًا، وذكَّره بخدَّيه اللّذين لم يشْفيا من التورُّم بعد، وتركه وحدَه.

وجَلَس السَّاقي على كرسيٍّ خارجَ المقهَى وقد خَلا مِن الزَّبائن في ساعةِ القيلولة، وقلبُه يرسِّب القَطِران، ودمُه يغلي كما يغلي سطلُ الماء فوق النّار أمامَه، وعذَّبته الوساوسُ إلى حدِّ أنّه فكّر في أن يشعل النار في نفسِه في وسط الحارة. وعندما جلسَ العمُّ (**جمعة**) على المقهَى الذي على بُعد خطواتٍ من بيته بعد وقتٍ قليل، كان السّاقي الجالس على الكرسيِّ هو أخطرَ رجلٍ في الحارة، ولو لم يدرِ النَّاس. وعندما أرادَ جمعة أن يُثبِت بلا داعٍ أنّه مازال موجودًا، كتلك الأعراض المزاجيَّة التي تصيب الفتوات في السَّنوات الأخيرة من سنوات عطائهم، وافتعل مشاجرةً مع السَّاقي، مدَّعيًا أنّ شجاره الذي كان منذ قليلٍ قطع عليه نومه، ووضع طرفَ عصاه على صدره مهدِّدًا إيَّاه بالسَّحل والـ..، وقبل أن يكمل تهديده، أخرج السَّاقي كلَّ سُعاره وقَطِرانه، وبُهِتَ المحنَّك جمعة من الشَّجاعة المباغتة التي كانت مثل خروج عن النَّص، من هذا الخُفَّاش اللَّعين الذي التطمَ بوجهه، وعضَّه في رقبته. يقعُ جمعة على الأرض خائرًا منذهلًا، يجثم الشابُّ على صدره، يقبضُ على رقبته وهو يعضُّ على شفتِه من الغلِّ، يلكمه

لكمةً قويَّةً فقأتْ عينه اليُمنَى، يصرخ جمعة، يحاول أنْ يتمسَّك بعصاه، والسَّاقي يصارعُ لينتزعها وهو يُصْدر أصواتٍ كزمجرة ذئبٍ، حتّى أفلتَها منه، وضربَه بها، فانفجر الدَّم من صَلْعة جمعة ولطَّخ وجهَه، وغاب عن الوعي، وأخذ يشخرُ من تردُّد الدَّم في حلقِه. وأفاق الشَّابُّ من الوحشيَّة التي تلبَّسته وانطلق فزعًا، وأُتبِع لعنةً وتهديدًا، وسؤالًا: أين تذهب؟! أين تذهب؟! سيؤتَى بكَ حتّى وإنِ اختبأتَ في بطن أُمِّكَ، بصوتٍ أجشّ عظيم الصَّدَى، وجرَى كأنّه لن يتوقَّف أبدًا. والتمَّ النَّاس على الرَّجل الممدَّد، وامرأةٌ من الجيران نزلتْ مسرِعةً فشقَّتِ الزِّحام عليه، وأوقفتْ نزيف الدَّم بحَفنةٍ من رمادِ فرْنها. وحمله الرّجال من أطرافه الأربعة، ومضوا به لبيتِه، ولحمُه يهتزُّ كعجلٍ مذبوح.

وأفاق بعدَها بأيام بعينٍ مشوَّشة الرّؤية على الذّهول والوجع والانْكسار، وعلى جيرانٍ يزورونه وهو في سريرِه، كلّ حواسّه شبهُ معطَّلة، إلَّا حاسَّة الشمِّ التي عرف منها أنّه بال في فراشه، فاغتمَّ وأغلق عينه على دمعةٍ، ثمّ بعدها عرفَ أنّ تبوُّله في فراشه أقلّ الخسائر بجانب عينٍ عوراء وورمٍ في أعلَى صَلْعته مثل بيضةٍ، فأشاح بوجْهه عن المرآة للأبَد. وبدأ يقومُ من فراشه ويتحرّك، واتّفق الناس على أنْ لا يحدِّثوه في أمرِ معركتِه الأخيرة بتاتًا، ويبدو أنّ الحلَّ أراحَه فلم يتكلَّم عنها هو أيضًا ولا عن علاماتها الظّاهرة فيه، ولا يمرُّ على المقْهى إلَّا خارجًا من الحارة، حتّى يكون ناحيةَ عينه العوراء فلا يراه.

والضَّربة المشئومة التي أخذَها على رأسه كانت تشتُّ بعقلِه أحيانًا، فيتكلَّم في أشياءَ غريبةٍ، فيثير الأسف الصَّامت فيمَن حوْله، ثمّ يعود طبيعيًّا بعدَها بدقائق. وعِلاوةً على كلِّ هذه الخِرَب، كان أحيانًا ما يسير

في أثناء نومِه، يخرجُ في هدأة اللَّيل، مثل شبح عجوزٍ، فيأخذُه المشي أثناءَ النوم في الغالب حتّى المقهَى الذي وقعتْ عنده الحادثة، يقفُ ويلوِّح بعصاه حينًا، وهو يصدرُ أصواتًا مثل دابَّةٍ تحتضر، ثمّ يعود لمأواه وهو يهزُّ عصاه في يدِه. هذه الحادثةُ التي لا يذكرُها بتاتًا وهو يقظٌ، ولا يذكِّره أحدٌ بها، تفرِض نفسها عليه في منامه.

ولم يعدْ لجمعة ـ بالطّبع ـ قوَّةٌ على الفُتُوَّة، وإنْ ظلَّ نشِطًا في أنديتِها ومجالسها، عضوًا غير عاملٍ. وفي أمورٍ كهذه، فالفتوّات مع المنْكسرين من أحبَّائهم وحاشيتِهم واسعو الصّدور حقًّا، فلم ينبِّه أحدٌ منهم قطُّ هذا الحطامَ على أنّه لم يعدْ ذلك الرَّجل الفتى، ولم يذكِّره أحدٌ بالعينِ العوْراء ولا بالورم فوق رأسِه، ولا بالمعركة الأسيفة، ولم ينبِّهه أحدٌ إذا تكلَّم وخلطَ علىَ أنّه بدأ يهذي ويخرف، ولم ينهره رجلٌ منهم لو أساءَ في هذيانه إلى أحدٍ من الجالسين؛ وعاصم ـ ككلِّ مَن يدخل عالمًا بشريًّا جديدًا بشيءٍ من القلق ـ تحمَّس لتلك الملاحظة ليطمئنَ نفسَه بأنّ مَن انخرط فيهم ودودون وقلوبهم بيضاء، انبهرَ عاصم بما بدا له مِن رقَّةٍ ورحمةٍ فيَّاضةٍ في سلوكِهم تجاهَ جمعة، ومع مرور الوقت، وبمزيدٍ من الفهْم والعِشرة، وبذهاب قلقه منْهم، نضجتْ رؤيته ومشاعرُه، وعرف أنّ صبرهم هذا هو ثخانةُ جلد وضعفِ شعورٍ أكثرَ منه رحمةً ورقَّة، كصبر الخراتيت على الطّيور التي تعتلي ظهورها.

وهذا الطّير الذي على ظهْر الخراتيت، أو العمُّ جمعة، هو الذي بَحَث عنه عاصم أوَّل ما دخلَ من بوابة الفتوَّة، وتعمَّد أن يتعرَّف إليه عندما عَرَف مكانه وأصحابه، ضحيَّة (**سيِّد**) رجل الفحم.

ليلةَ أنْ تعرَّف عاصم إلى جمعة، وشاهد آثارَ العدوان، وحدَّثه أحدُهم بتفاصيل المعركة المباغتة، وبينهما جمعة يغطُّ في نومه، وأفاقَ جمعة بعد أنْ فرغ الرجلُ من الحكاية، فقلَّب نظرَه بينهما وهو يمطُّ شفته السّفلى،

ثمّ نام مرَّةً أخرى، ليلتَها ذهبَ عاصم مسرعًا إلى سيِّد، ودقَّ عليه الباب، فأيقظه من النَّوم، ليتناول سيد الخطَّافَ مِن وراء الباب ويفتحَ للطّارق، فيفزعان، هذا من الخطَّاف وهذا مِن الزيارة المفاجئة ليلًا، ويقدِّم له عاصم الحلوَى، وأخذ يتابعه مبتهجًا، وهو يأكل أمامَه في ظلمة المخزن جالسًا على الأشْولة، بعينٍ لامعةٍ جاحظةٍ كعين حِصانٍ يأكل السُّكَّر، ولا يردُّ على سيِّده الذي أخذ يردِّد بصوتٍ مخيف..

ـ كُلِ الحلوَى يا سيِّد.. كُلْ.

ومضى عاصمُ مشحونًا بالثّأر وشهوةِ الفوضى، ونام سيد في مكانِه يلعق السّكَّر المسحوق حول شفتيه، غيرَ متأكِّدٍ إنْ كانت تلك الزيارة حقيقيةً أم أضغاث أحلام.

وعاش عاصم يشعرُ بنوعٍ غريبٍ من الإثارة، مِن كوْنه يعرف الجاني والمجنيَّ عليه ويجالسهما كُلًّا على حدةٍ في خُفيَةٍ منهما ومن الكلِّ، إثارةٍ من نوعٍ غريبٍ كوْنه يربِّي عنده الخفَّاش الذي شوَّه الرَّجل. وازداد عاصم تمسُّكاً بسيد، وازدادَ ضغطًا عليْه في الأجازة السنويَّة بألَّا يغيب، وازداد احتجاج سيِّد في داخله.

وظلَّ عاصم هكذا على صرامتِه وشدَّته على نفسه، واحتضانِه لثأره في أعماقه، وابتعاده عن معانقة الحياة عِناقا حارًّا، وظلَّ موفَّقًا في الحفاظِ على وجوده في العوالم الثّلاثة بين التجَّار والمشايخ والفتوَّات، وظلَّ ـ في ذات الوقت ـ هذا الرّجل الذي لا يحبُّ أنْ يقتحم أحدٌ عالمه الخاص، ولا يحبُّ أن يتطفَّل على دواخلِ الآخرين. وظلَّ كما هو ثريًّا بلا سقطات؛ روحه ملتفتةٌ إلى ألمٍ عتيقٍ لا يسمَح له بالاستهتار والنّزوات، يؤمن إيمانًا عميقًا بالمهمَّة المقدَّسة الَّتي يمدُّه الله من أجل القيام بها بأسباب القوَّة.

ظلَّ عاصم على هذه الحال إلى أنْ بلغ الثَّانية والثَّلاثين، حينما تعرَّض لغَوَايَةٍ من نوعٍ غريبٍ، ندهته ندَّاهة المدينةِ التي كادتْ تسحبُ أباه من قبْل بعد زيارته لقَصر شبرا، سار عاصم غربًا لمسافة مِيلٍ واحدٍ لا غير، ليلجَ إلى عالمٍ آخر جديدٍ قريبٍ من قاهرته الفاطميَّة، حيثُ فَتَنَته قاهرةُ الخديوي إسماعيل الجديدة ببهائها الأوروبيِّ، فنزل في فندق (**شبرد**) بشارع (**نوبار باشا**)، مدَّعيًا لمساعديه والتجَّار والمشايخ والفتوَّات أنّه يُجري صفقاتٍ كبيرةً مع بعض الأعيان والباشاوات، تحتاج منه للتفرُّغ من كلِّ شيءٍ. واندمج في عالمٍ جديدٍ بدأ يثبُتُ وينمو من الأفنْديَّة والبَكوات والأجانب المتفرنجي الأزيَاء، والذين يعملون في وظائف محترمةٍ وبعض أنواع التِّجارة، ونالوا قِسطًا جيِّدًا أو وافرًا من التَّعليم الحديث. ولبس البذلة الإفرنجيَّة واعتمر الطَّربوش وأحيانًا القبَّعة، وفتَلَ شاربه.

في هذه الأجواءِ الجديدة، وفي السَّير والتَّجوال في الشَّوارع الواسعة الممهَّدة المنارة، وبالاختلاف إلى أماكنَ فاخرةٍ، وبالتَّعرف إلى أشخاصٍ أنيقين يختارون ألفاظهم بعِنايةٍ، ويتصرَّفون بلطفٍ، أخذ شيءٌ ما قديمٌ وكريمٌ ومسيطرٌ يتواضع يومًا بعد يوم، حتّى صار مثل الذِّكرَى لا إلهام بها ولا حضور؛ لعلّه التاريخ، أو المهمَّةَ، أو الحقيقة. شيءٌ فيه يبرُد رغمًا عنه، ويضمُر، وينحدر إلى أسفل في بئر النِّسيان.

وقد زَهِد في الحميميَّة والعشوائيَّة المبهجة، وروائح التَّوابل والعِطارة في الأزقَّة، والجدران التَّاريخيَّة؛ وتطلَّع لأنْ يحيا فردًا لا غير، في عالمٍ جديد، فيه الودُّ والنُّفور هادئان. وها هو التَّاريخ يمرُّ من ها هنا زائرًا حذِرًا، ويعود من حيث جاء، في عباءته الوبريَّة وعِمامته الصُّوفيَّة والخرز، ليرتقي على السلالم الحجريَّة، ويمرُّ من البوَّابات الأثريَّة، وينعطف مع الحارات الملتوية، ويتفقَّد أبناءه القُدامَى كلّهم ويحتضنهم، ويتأسَّف على مَن تفلَّتوا إلى المدينة الفاتنة.

وهو قد تفلَّتَ من ضمن الذين مروًّا ولم يعودوا للبَيات في المدينة القديمة. وقد كان كالمسحَّر على ظهر زوْرق الحداثةِ يبتعد عن ساحله، ويشهد على السَّاحل وجوه الذين خرج منهم: هذا يجلس القُرفُصاء يقرأ في كتاب (**ألفيَّة بن مالك**) وهو يتمايل:

ومثـــل كان دام مســـبوقًا بمـــا
كأعطِ ما دمت مـــصيبًا درهمَـــا
وغيـــر مـــاضٍ مثلـــه قـــد عمـــلا
إنْ كان غير الماض منه استعملا

وهذا رجلٌ يحكُّ في عصفورٍ على صُدْغه، وهذا رجلٌ نائمٌ وقائمٌ يلوِّح بالعصا بعد منتصف الليل عند مقهى مغلَقٍ، ومن ورائهم ثمانيةٌ مثل جلاوذةٍ يقفون، في أول الصَّحراء يدقِّقون في وجوه العابرين؛ يحرسون بستانًا لهم خفيًّا لا يراه إلَّا الله والطَّير.

والزّورق يمخُر حتّى غابتْ وجوه النَّاس، والزورق يمخُر حتّى تحوَّل السَّاحل إلى خطٍّ بين الماء والسَّماء. وهو سعيدٌ بالسَّفر، وقد ملَّ وجوه معارفه كلّهم، ملَّ وجوه الشُّيوخ الأزهريّين والتُّجَّار البلديّين، والفتوات. وإذا به- ولأوَّل مرَّةٍ- يشعر أنّ هؤلاء الشتَّى جميعٌ، فريقٌ واحدٌ حَجَر على عقله وقلبه وضميره وذوقه، وأنّه ها هو في فَكاكٍ من التعوُّد لا يشعر بأسفٍ لابْتعاده عنهم، بل يشعر بأسفٍ على الوقت الذي أضاعَه بينهم. طارت روحُه بكاملها خارج كلّ العوالم الثلاثة وحطَّتْ في هذا العالم المدنيِّ المنمَّق، وهذه المرَّة لا يخشى الالتفاف، بل يطلبه. ولأوّل مرَّةٍ يمتنعُ عن الدَّواء الذي كان يلحَسه ليلًا منذ أربع وعشرين سنةً بوصفةٍ من أمِّه، وتتوقَّف صابرة عن زياراتها له في منامه، ولم ينزعج من انقطاع الزيارات.

أكثرَ من شهرين، لا يكاد يخلو في هذه المدَّة إلى نفسه إلَّا وقت النَّوم، مشغولٌ بالتَّعرف إلى النَّاس الجُدُد أهلِ العالم الرّابع، يلتقط الكلمات الأجنبية الذائعة، وآداب الصَّفوة وكيفيَّة إدارتهم للأحاديث، يصرف بكرم ملحوظٍ ليعوِّض الشعور بعدم النِّدِّيَّة، ولم يدبِّر خلالها أمر صَفْقةٍ واحدةً، ولم يسعَ لذلك. وفيما كان جالسًا في بهْو الفندق يتجاذب أطرافَ الحديث مع بعض الوجهاء وهو يشرب القهوة، دخل عليه أحدُ مساعديه بلطْم الوجه والوَلوال، يزفُّ إليه خَسارةً كبيرةً من جرَّاء حِيلةٍ نَصبها محتالٌ على عاصم، فاصفرَّ وجهه تمامًا، وأمره أنْ ينتظره في الخارج. وصَعِد إلى غرفته بالفندق، وأخذ ينظر لنفسه في المرآة ويبكي، وخَلَع ملابسه الغربيَّة، وجعل يقول ويردِّد: (**سَماح.. سَماح.. حرَّمتُ.. حرَّمتُ**)، وهو يعقِد تِكَّة السّروال ويرتدي (**الصديري**) والجِلباب ويلفُّ عمامته متعجِّلًا.

والنُّزلاء في بهْو الفندق يتطلَّعون باستغرابٍ للنَّزيل الشَّابِّ الأنيق، تخلَّى عن بذلته الإنجليزيَّة من أحدث طِراز، ويغادر الفندق متكدِّر الوجه في ملابس بلديَّةٍ، يكاد ينكفئ على وجهه من الاضطراب.

ركبَ الحنطور وقد لعبت به الهواجس، وتخيّل الدنيا وقد أقفلتْ في وجهه، وشردَ في البَوار الذي ينتظره عند كلّ عتبةٍ من عتباته، وأنّ شؤم المعصية ـ معصية الحداثة ـ يتفتَّق عنه الآن خرابٌ بطيءٌ لا يصدُّه شيء، خراب لعلّ براعمه تتفتَّح الآن في حديقة البيت، لعلّ حيَّةً تزحف الآن من الخرائب إلى الحديقة لتضعَ بيضًا في التراب الرّطب، وأفرع الأشجار تنمو قليلًا قليلًا باتّجاه النوافذ، بداية لرحلةٍ طويلةٍ تمتدُّ قرنًا، ستتوَّج بملاءات العنكبوت.

وعادَ لبيته الواسع الغامض المقبض، بروح تَطهُّريَّةٍ معذَّبةٍ تشعرُ بالذَّنب، ينتظر الشّؤم بشَيءٍ من الإرادة والرّجاء الخَجول، فهذَّب الأَشجارَ القريبة من النّوافذ، ونشر الشّيحَ في الشّقوق حتّى يردّ الثعابين، وأكثرَ مِن الصّدقات والذّبائح للفقراء. ولم يرفع رأسَه الخائف إلَّا أنْ تأكَّد من مرور ريح الخسارة الفائتة وليس وراءها ريح، فسرُّ سرورَ المعتذرين بالعفو، سرورًا مشحونًا بالنّدم العميق والإعياء، وأطلق من جديد في جوٍّ هذا البيتِ الحزين روحَ ثأره القلِقة، وعاد إلى المزاج القابض للصّبر الطَّويل، يتقلَّب في الغرف العديدة على أسرَّة وَحدتِه اللَّيليَّة، وإنْ سأله النَّاس– أيّ ناس– عن حياة المدينة الجديدة التي أخذته منهم وقتًا سخرَ منها ومِن نعومة أهلها، بصوتٍ فيه شيء، شيءٌ كان كالنزف.

الفصلُ الحادي عَشَر

إذًا.. عضَّ عاصم على ثأره ونمطِ حياته تحتَ تأثير النّكسة العابرة في مدينة الخديوي، ولم يسمحْ لنفسه من بعدها حتّى أنْ توسوس له بتكرارِ النّزوة مرَّةً ثانيةً ولوْ ليومٍ واحد، إلى أنْ مرَّ على حادثة الطرد ثلاثون عامًا وبلغَ الثامنة والثلاثين، ومرَّ عليه إذًا في دنيا الفتوَّات عشرُ سنوات، عامرةٌ بالحكايات الغريبة والمشاهداتِ المثيرة التي خفَّفتْ عنه الشّعور بالوحدةِ وصرامةِ تكريسه حياته للهدف العظيم، وهو كما هوَ بعقله اليقِظ، يستحسنُ من الفتوَّات مَن لديه مروءةٌ ونُبْل، ويتجاهل السُّرَّاق والسَّفَلَة المغرقين في الشَّرِّ؛ حِرصًا على اسمه كتاجرٍ كبيرٍ شريف.

أدرك أنّه في عالم يعيش أهلُه بغرائزَ بدائيَّةٍ قويَّةٍ يعتمدونها وحدَها في تحديد الحبيب والعدوِّ بغضِّ النَّظر عمَّا تنطقُ به الأفواه، أو تشيرُ إليه المواقف، شيءٌ غريبٌ يشبهُ حاسَّة الشَّمِّ، وإنْ كان أعمق منها وأكثر بدائيَّة؛ إنّهم يشمُّون الحبَّ والكراهية والخوفَ والغدر والأمْن، لا يشمُّون، بل هو ذلك الشَّيء ما بعد الشَّمِّ، لذالم يكن أمامه إلَّا خلعُ عباءة التّاجر عند أعتابهم، وأنْ يشعر بالرّضا والحبّ تجاههم، فهذا هو الضّمانُ الأوّل للأمن والولاء بين مَن تلتقط حواسُّهم البدائيَّة مشاعر الناس.

فترةٌ طويلةٌ تمكَّن فيها مِن تعميق تلك العَلاقة بأقلّ الخسائر والمخاطر والندم، همُّه فيها أن لا يحتاج إليهم قدرَ الإمكان، تأكيدًا على محبّةٍ خالصة، يخشى أنْ تلتقط حواسَّهم الهائلة ما في أعماق أعماقِه من الغَرض، وكلَّما مرَّ به الوقتُ معهم خلالَ العشر سنواتٍ كان ينفي بينه وبين نفسِه هذا الغرض، حتّى كادَ يصدِّق أنّه لا يطلبُ منهم شيئًا، وصورتُه وهو صغير تحتَ الخباء يقترح على أمِّه والشيخ عثمان الاستعانةَ بالخفراء من أجلِ الانتقام، تأتيه كلّ حينٍ وتشاغبه وتكشفُ ما ينكره، فيبذلُ المزيد من الحبِّ والعطاء ليشوِّش على صخَبِ هذا الصّغير المشاكس؛ ويضع مالَه دائمًا في خدمةِ هذه العلاقة، فيقيم جلساتِ صلح عنده، ويذبَح ذبائحها من حُرِّ ماله، ويتحمَّل عن المخطئ (**غرامة الأدَب**) التي يحكم بها المحكمون إذا ما كان مُعسرًا لا يقدِر على دفعها. وفي كلِّ مرَّةٍ كانوا يدفعونه فيها للتّحكيم بين غريمين يرفضُ ويعتذر عنْ ذلك طالبًا منهم أنْ يبحثوا عن غيره، رغبةً منه في ألّا يخسر أحدًا. وحاسَّتهم السحريَّة العميقة تؤكِّد لهم أنّه يحبُّهم حقًّا، لا يعرفون سببًا لهذا الحبِّ الذي لا يرون من خلفه منفعةً.

عَرَفهم عاصم إذًا معرفةً حقيقيَّةً بغير أوهام، وعاملهم بما يضمَن له أنْ يجمَع القلوب. وجمع القلوب رغبةٌ توارثها من صلبِ مصبح؛ وأُجهِد في ذلك حتّى أتقن وتخلَّص من ارتباكه الأوّل، وساعده حظُّه في ذلك، حظُّه الذي وفَّر له رفيقين جيِّدين هما حيدر الجادُّ وإبراهيم المتأنِّق، ساعداه في السَّير في هذا الطَّريق البدائيِّ بلا عثراتٍ حقيقيَّةٍ وبلا مفاجآتٍ جادَّة. وحسَّان يقف على مسافةٍ يتابع باندهاشٍ ذلك القبول الذي كُتِبَ لعاصم، ذلك القبول الذي دفع هؤلاء الغِلاظ لوضع عاصم الذي ليس منهم وبعد عقدٍ من الزّمان والعطاء في مكانةِ الكبير، مُتباهين به وبمعرفته وبكرمِه، عاصم إذًا صنع عشيرةً له أو صنعته عشيرةٌ كانت تحتاجُ لمَن

يجمع أشتاتها، صار فيها كمصبح في أهل الوادي، غير أنّ شُغل مصبح كان مجد عائلةٍ، بينما شغلُ عاصم الشَّاغل هو ذلُّ هذه العائلة نفسها.

واليوم من ربيع العام ١٢٩٦ الهجريِّ الموافق للعام ١٨٧٩ الميلاديِّ، ها هو حيدر الفُتوَّة الجادُّ المحبَّب إلى عاصم؛ ينعم بالحريَّة بعد أنْ أفرِج عنْه بالأمس بعد أنْ سُجِن عامًا جرَّاء مشاجرة، وقلبه مليءٌ بالحبِّ لعاصم الوفيِّ الذي تطوَّع بالإنفاق على أسرته طيلةَ شهورِ سجنه، وكان يرسل ـ أيضًا ـ مع عبيده خزينَ البيت من أرزٍ وزيتٍ وسكَّرٍ وغيرها.

واليومَ أرسل عاصمُ إلى عشيرته من الفُتوَّات يدعوهم لمأدبةٍ عامرةٍ في حديقة بيته؛ بمناسبة خروج حيدر من السِّجن. وفي أُمسيَّة المأدبة، دخل حيدر حديقةَ البيت وعيناه دامعتان مأسورًا لجميل عاصم، وقبَّل رأسَه. وأخذ المعزومون يتوافدون، ويتقاطرون عليه يباركون له الخروجَ من السّجن، ويتقدَّمهم العبيد إلى الجلساتِ التي تحيط كلّ منها بماعونٍ كبيرٍ عليه الأرزُ والضَّأن، حتّى اكتظت الحديقةُ بالمدعوّين النخبة وعَلا فيها صخبُهم. إنّهم نخبةٌ حقًّا، وليس في الأمر علامةٌ من علامات العشوائية إلَّا العمّ جمعة، إنهم أنهضُ النَّاس الذين عُرفوا بالشَّجاعة والقوَّة والخبرة في المعارك في أحياء القاهرة المختلفة، إلَّا الأرداياء الذي كان يتجنَّبهم وينحيِّهم في فرزٍ دائبٍ دقيقٍ فلم تسعْهم الحديقةُ كما وسعتْ غيرهم. وبدؤوا يتناولون الطَّعام ويتبادلون التَّحيَّات، والعبيدُ طوَّافون عليهم بماء الورد وبالبَخور وطلبات الجلسات.

كان حولَه ستةٌ من الكِبار المحنَّكين مسموعي الكلمة، أعمارُهم بين الأربعين وأوائل الخمسين، إلَّا العمّ جمعة الذي صارَ في الخامسة والسّتين، ومازال يُكابر، ومِن بينهم حيدر الذي أقيمتِ المأدبة ابتهاجًا

بخروجِه من السِّجن. ودار الحديثُ على طبيعته، من سؤالٍ عن أخبار النَّاس والبلد، وبعض النَّوادر والمواقفِ التي شاهدها بعضُهم وأضحكته، وأخبار الحمقَى، ومصارع الفُتُوَّات.

وبعد فترةٍ من الصَّمت، بعد حديثٍ عن حفل عُرْسٍ قد أُنهِي وخَرِب بمعركةٍ حامية، سأله حيدر بهذه المناسبة: لا تؤاخذني يا سيِّد عاصم، سؤال محبةٍ إنْ تأذن.

- تفضَّلْ.
- لماذا لم تتزوَّج حتّى الآن، وأنت– ما شاء الله– جميل الصُّورة، وفي سَعةٍ من الرِّزق، ووفرةٍ من الصِّحة، وتشتهي مثلك بناتُ العوائل؟

نَخَس إبراهيم حيدرًا في جانبه معاتبًا.

ابتسم عاصم وقد لاحظ النَّخسة: لا.. لا ليس بي علَّةٌ.

ثمَّ سَكَتَ فترةً، وكأنّما يستجمع إرادتَه للنَّطق، ففاجأه العمُّ جمعة:

- احكِ لنا عن السِّرِّ إيَّاه.. عن سرِّ البيت، (**ثمّ استأنف بتحنُّنٍ**): من أَجل خاطري.
- السِّرُّ؟!.. أيّ سرٍّ؟!
- قيل إنّ أحدهم كان عندكَ في الجُنينَة هنا وحده في ليلةٍ شَتويَّة، فماءتْ قططٌ من قلب بيتك، فتركتَه مسرعًا، فغَلَبه الفضول وتَبِعكَ.. وذهبتَ إلى خلف بيتكَ، وحملتَ شيئًا من أعلى النَّافذة المغلقة، وجلستَ ودخلتَ من باب مظلمٍ ضيِّقٍ منخفض، تستُره شجرة شِيح.. وأنت.. أنت متزوِّجٌ.. لكَ زوجةٌ من تحت الأرض.. يجعل كلامنا خفيفًا عليهم.. في غرفةٍ في سرداب.. دخل وراءكَ. ووجدكَ على أرض الغرفة، تأكل ومعك بناتُكَ

القطط السَّبع من طَاجِن سمكٍ، فجعلن يشممنه لمَّا دخل، ويتمسَّحن فيه، فغِرتَ وأمرتهم بالدُّخول في غرفةٍ أخرَى، أشدّ ظلمةً، لا يظهر في سوادها غير أعينهن الملوَّنة.

- كلّ هذا؟!

- نعم.. وقلت له: اكتمْ، ولا تُخبِر أحدًا.. (**وأكمل بتوسُّلٍ**) بربِّكَ، أرنيهنَّ وهنَّ يأكلنَ معكَ.

ولم يتأفَّف الحاضرون تأفُّف العصبيّين ممّن يشتّت أذهانهم، ولم يبتسموا ابتسام المستخفِّين، وكأنه يحكي ما يمكن أنْ يكون حقيقةً.

وعدَّل حيدر صيغةَ السُّؤال إلى صيغةٍ لا تتجاوز حديث الرجل وتهمله:

- غير هذه التي من تحتِ الأَرض. لماذا إذًا لم تتزوَّج من إنسيَّةٍ؟ فبنْتُ حوّاء أولى بك من بنات الجنِّ.

فقال عاصم: لا بدّ من شيءٍ مهمٍّ قبل أنْ أتزوَّج من إنسيَّة؟

فقال جمعة: أجل، قلْ بربّك ما هو؟

تنهَّد تنهيدةً عميقةً، ثمّ رفَع كفَّ يمينه وفتحَها، وابتسم وهو يتجوَّل بعينيه بين عيونهم، ثمّ ماتتِ الابتسامة.

- لا بدّ من حِنَّاءٍ ليدي.. قبل الزِّفاف.

تبادل الرِّجال النَّظرات: حِنَّاء؟!

- تشِيل همَّ حِنَّاء!

- نعم، دم رجلٍ ظالم لا بدّ أن أُحنِّئ كفِّي به. (**وأخفض يده إلى جانبه ثمّ أكمل**): وعائلة أريد لها الذُّلَّ.

وثبَّت نظرَه بشدَّةٍ إلى عين العمِّ جمعة العوْراء، والعمُّ في سلام لا يشعُر أنّه مرمَى لبصرٍ؛ فعاصم عن يمناه المظْلمة. وأستأنف كلامه: ولي غرفةٌ في سرداب، بها امرأة تولوِل، لم أستطعْ أن أفكّ أسرها أبدًا.. في صدري.. وهي أمِّي.. أمِّي (**وأخذ يدقُّ على صدره، حتّى مَنَعوه**).

رمَى حيدر قطعةَ اللَّحم من يده في الماعون؛ وقد أخذته النَّخوة:

ـ عجبًا.. ألكَ كلّ هذا الجمْع من الفُرسان وتبيتُ على ظلم؟! سترتَ بيتي سنةً ولم تشْكُ لي همَّكَ؟!.. لم تحكِ لي أبدًا أنّ لكَ ثأرًا قديمًا.

ـ أكملْ أكلَك.

ـ والله لا آكلُ طعامكَ إنْ لم تحكِ. (**ولوَّح برغيف خبزٍ**) ولا أكسِر عندكَ نَعمةً (**خبزًا**) أبدًا.

شَرَد عاصم، وابتلَّتْ عيناه بدمعٍ رقيقٍ كالنَّدَى، وتغيَّر صوته، وبدا السيِّد الوجيه كطفلٍ ضعيفٍ حزين.

ـ ظُلِمتُ أنًا وأمِّي.. منذ ثلاثين سنةً.. وماتتْ كمدًا.. وأنا مِن يومها شارب المرِّ.

فقال رجل: هوِّنْ عليكَ.. المرُّ لعدوِّكَ كؤوسٌ.

وقال آخر: اطلبْ رأسَ مَن تريد ودمَ مَن تريد.

فردَّ بحيرةٍ وتلعثم: ولكنّي خفتُ أن تظنُّوني قد عرفتُكم من أجل هذا. أنا لم أعرفكم من أجل هذا... أبدًا.

والطّفل الصغير هاجمه بالعربةِ والخباء والحلِّ البسيط، فأعاد كلمة (**أبدًا**)، حتّى ربَّت حيدر على كتفه:

ـ اسكتْ يا رجل اسكتْ.. أنا عن نفسي أنتظرُ فرصةً لأخدمكَ، وها قد جاءتْ.

ابتسمَ عاصم، ومسَح يديه في منديلٍ، وأخذَ يضغَط على يد كلّ منهم، ويربِّت على أكتافهم، ويحدِّق في وجوههم مملوءًا غبطةً وفخرًا وتقديرًا، يشعر وكأنّه يحلم.

ويقول حيدر: احكِ كلَّ ما عندك.

فحَكَى لهم القصَّة التي حدثتْ في شتاءٍ حزين للعام ١٨٤٩ الميلاديِّ، وهو مخفضٌ رأسَه، وحزين النَّبرة. فطمأنوه بأَنّهم معه وسينال ثأره، وأنّهم سيطلعون الفُتُوَّات الجالسينَ على الأمر، وأنّهم لا محالة معه أيضًا.

فقال لهم: يكْفيني موقفُكم هذا.. أنتم أهلي وإخوتي.. ولنْ أنساه أبدًا.

- العفو.
- وأرَى لديكم النيَّة للحديثِ مع باقي الرِّجال الآن.
- نعم.. هذه فرصةٌ.. كلّ الأحبَّة مجتمعون.
- لكنْ قد يكونون عندَ غير رأيكم.. وأنا لنْ أنقِم على أحدٍ غيابَه عن نُصْرتي.. خاصَّةً وأنّ أعدائي ليسوا بهيِّنين، وفي الأمر خطورةٌ.. غير أنّي محرجٌ من سؤالكم النَّاس نُصْرتي أمامي.
- صحيح.
- لذا أنا سأصعَد للسَّطح، وسأنزل بعد قليلٍ، وأرجو ثمّ أرجو ألَّا تُلِحُّوا على أحدٍ، اعرضوا عرضةً واحدةً، ولا تسمعوا المعاذير.. هي: نعم أو لا. وأنا لنْ أنزل لأستمع لمعاذير، مَن رفَض فليمشِ بلا ملامة.

وصعِد للسَّطح، ولعِق المرَّ ككلِّ يوم. وقد ضجِر من طعمِه كلّ الضَّجر، وخاطبه كمَن رغِب في التَّخلُّص منْ صديق سَوْءٍ: ربّما يكون هذا آخرَ عهدي بكَ.. حيًّا أو ميِّتًا.

وعندما نزَل من سطحه، وجدَهم في انتظاره جميعًا أمامَ باب البيت الدَّاخليِّ، يبتسمون وقد شمَّروا أكمامَهم كاشفين عن السَّواعد القويَّة، والأذرُع الصَّلبة الموشومة، ورفعوا العِصِيَّ يهزُّونها. وتحلَّق حولهم عبيدُه فرحين يمسكونَ المصابيحَ؛ لينيروا له المشهدَ البديع، لرجالٍ كشفوا أفواهًا واسعةً للنُّور، فالتمعتْ أسنانٌ من ذهبٍ وفِضَّة، والتمع الدمعُ في عيني عاصم.

المحصِّلة كانت رائعةً، فقط انسحبَ واحدٌ بعد أنْ أكل ولم يشأ المشاركة، ولم يبالِ عاصم. لم يستفزَّه إلَّا شابٌ صغيرٌ، أصرَّ على أنْ ينتظره ليبلِّغ معاذيره.

- عندي كلمتان.
- أنا لا أريد أنْ أسمع.. وكان بإمكانك أنْ تمشي قبل نزولي مثل مَن مشَى.
- يا سيِّد عاصم، الأمرُ يحتاج إلى قضاة عُرْفٍ وليس لفُتُوَّاتٍ.. من الممْكن أنْ نذهب معك ونعرِض الأمرَ على شيوخهم في أيّ مكانٍ، ونأخذ معنا قضاةً محترمين مِن أيّ بلدٍ بالقرب منهم. نقتلُ لكَ أهلكَ وإخوتك!.. صعبةٌ هذه!.. أنا لا أحبُّ أنْ أنصُر رجلًا على أهله، والأمرُ فيه دمٌ لا محالة.. صدِّقني، أنا لستُ خائفًا.. ولكن.

فقاطعه عاصم: أنا لا أحبُّ اللَّيلة سماعَ المعاذير.

- كما تحبُّ.

ومشَى الضَّيف بهدوءٍ وبطءٍ رافعًا رأسه، محاولًا التَّماسك؛ حتّى يمنَع عن نفسه التَّأثُّر بنظراتِ الاستهجان وبالكلمات القاسية التي تضرب أذنيه، حتّى أنّ عاصمًا افتقد حلمَه المعهود، ورمَى بكلمةٍ ثقيلةٍ لاَمزًا بالمأدبة.

ـ بالهناء والشِّفاء.

فالتفتَ الشابُّ الفتوَّة الذي عرفه عاصم قريبًا، ونظر لعاصم نظرة لوم جريحة، وأخرج منديلًا كبيرًا وفرشه على الأرض، وضرب أصبعَه في حلقِه، وتقيَّأ كلّ الأكلِ في مِنديله، وصرَّه وأخذه ومضَى.

والتفَّ الرِّجالُ حول عاصم، وأصرُّوا على أنْ يكون السَّفرُ في صباح الغد، وأنْ سيعدُّ كلّ منهم عُدَّته ويأتيه صباحًا. وطلبوا منه النَّومَ قريرَ عين لأنّه سيتخلَّص من حِمله الثَّقيل للأبد. وسألهم إن كان في أنفسِهم شيءٌ بسبب معذرة من سمَّاه تهكمًا: (**المتقيِّئ**)، فنفوا، غير أنّهم أخذوا عليه المواثيق بأن لا يحمِل في نفسِه شيئًا عليهم إنِ اقتصُّوا له من أهله.

ووقفَ العمُّ جمعة يحمِّسهم ويشجِّعهم، وهو في انتشاءٍ عجيب، وتكلَّم وأنهَى خطابته بالوعيد:

ـ ولا يأتِ أحدٌ بعدَ ذلكم ليقول لي: راحتْ بي نَوْمةٌ، واضحٌ؟ حذارِ ثمّ حذارِ.. والذي لن يأتي صبحَ الغدِ من أجل هذا الرَّجل، فهو نَجسٌ وابنُ حرام.. ودواء الأبعد عندي.

وتكلَّم عاصم، وطلب منهمً أنْ يأتوا بأسلحتِهم من السُّيوف والنّبابيت والكرابيج، وألَّا يستلفوا بندقيَّاتٍ أو يُطلِعوا أحدًا من خارج الحضور على الأمر، وهو مِن ناحيته سيوفِّر من وقته لصبح الغد بندقيَّةً جدَيدةً لكلِّ واحد منهم، كما أنّه سيرسل رجالَه لاسطبلي الخيل القريبيْن ليوفِّر لهم أحصنةً جيِّدةً للسَّفر، وما عليهم إلَّا أنْ يمرُّوا ويأخذوها.

وبينما مازال العمَّ جمعة في انشراحه، يقفُ ملاصقًا لعاصم، إذا بحيدر يكلِّمه ليزيده سعادةً:

ـ يا عمّ جمعة، انتبه -الله يرضى عليك- لعلّ الله أن يوصل مقطوعةً بين هذا الرَّجل وأهله، ونحن سنبدأ بالضَّرب، حتّى يُنزل عاصم حكمَه فيهم، فيا ليتك تخفُّ يدكَ، وتضرِب ولا تقتُل.

فابتسمَ عاصم، بينما أخذتْ سليمة الرَّجل ترمش رمشاتٍ سريعةً، وقد فاضتْ حبورًا وامتنانًا:

ـ أجل، من الجيِّد أنْ نبَّهتني.

وودَّعهم عاصمُ إلى خارج البوَّابة، وعاد للحديقة يضحكُ ضحكًا هستيريًّا، ويركل الحشائش بقدمه، لقد فاجئوه بالموعدِ العاجلِ جدًّا الذي اتَّخذوه، تلك العجلةُ التي اختطفته وأربكتْه، كانت رائعةً حقًّا، غير أنّها كانت لا تتناسبُ مع صبره وتضْخيمه للأمر؛ وهو أيضًا اختطفَهم، وبغير أنْ يربكهم، فقد نزل إلى مخبإٍ سرِّيٍّ في البيت، وأخذ ينتشلُ بندقياتٍ جديدةً، ويحملها إلى ركنٍ في الحديقة، كان مستعدًّا إذًا.. واشترى السلاحَ من قبل.

الفصلُ الثّاني عَشَر

عاصم الذي نامَ نومًا خفيفًا في الأُرجوحة في حديقةِ البيت لساعتين، فتح عينيْه مبتسمًا، لصبح جاءه كوردةٍ قرمزيَّةٍ ناعمةٍ يبلّلها النّدى، أوراقها السّحُب، صحا على صِياح الدِّيك الذي قَفَز من فوق السَّطح على العشب المبتلِّ، وآذنَ بالفجر الجديد بحماسةٍ بالقرب منه.

ـ أصبحتَ وأصبحَ خيركَ.. فألُكَ النَّصر!.

أحضرَ له خادمٌ إبريقًا ليغسلَ وجهه، وجلس في مكانه مسرورًا ينتظر كوبًا من الشّاي يعدُّه له على الكانون، وعليه خليطٌ من النّعاس والحماس، كالأطفال في فجر العيد، وخدمه أخذوا يجمعون له حاجاتِه وملابسَه، ووضعوا له في جِرابه عباءةَ عثمان. وأخذ يشربُ الشّاي مسرعًا، متشوِّقًا لميعاد الفتوّات الذي اقترب، يكاد يتحمَّس للذِّهاب لإيقاظهم!

وقامَ لفرسه الشَّقراء الرَّشيقةِ الجديدة التي اشتراها قريبًا لهذا اليوم، وأخذ يروِّضها في الحديقة، بينما مجلي كبير العبيدِ الضَّخم الجثَّة عند الحظيرة يسقي الحصان. يحمحم الحِصانُ لمّا رأى الفرس، وأخذ يضرب برجليه مِن خلفه متذمِّرًا محتجًّا.

ـ يا مجلي.

ـ أمرُكَ يا سيِّد عاصم.

وخفَّ إليه بجسده الفارع، وبوجهٍ طيِّب.

ـ ألا زال هذا الفحلُ متيَّمًا بالفرس الشَّقراء؟

ابتسم مجلي: نعم يا سيد عاصم.. عينه عليها منذ أن جاءتْ.

ـ اذهبْ بها له، وتعالَ.

وسحَبَها مجلي للحِصان في مربطه، الذي هشَّ بها، وارتفعتْ حمحمتُه، وضحِك عاصم ملء قلبه ضحكةً سرتْ في هدوء الفجر بعيدًا. وعاد مجلي مبتسمًا.

ـ أنا سعيد يا مجلي حتّى أنِّي على وشْكِ البكاء.. والفجر جميلٌ اليوم، يبشِّر بانزياح غمَّةٍ معمِّرةٍ من حياتي يا مجلي.. حتّى المال لم يكن له طعمٌ.. لم أنعم بشيءٍ أبدًا.. ها قد بدأتْ تحلو.

ـ حلَّى الله أيَّامكَ يا سيِّد عاصم.

ـ أتعلَم أنِّي عندما صعدت للسَّطح بالأمس، وفكَّرتُ فيما أنا قادمٌ عليه، ندِمتُ على أنْ ليس لي ولدٌ يرثني إذا ما متُّ في هذه الرِّحلة؟

ـ كفَّ اللهُ الشَّرَّ يا سيِّدي.

ـ كانت حياتي جافَّةً جدًّا كأنِّي عطشان لم يشرب من زمنٍ طويل.

ـ سقاكَ الله.

ـ أطلق كلّ شيءٍ يا مجلي.. دعْ كلّ شيءٍ يشاركني فرحي، اذهبْ للنِّسناس وأطلقه ليلهو خارجَ قفصه بين أشجار الجُنَينَة، ويلعبُ بالثِّمار، ويزعجكم بلهوه.

ـ وإنْ هرب؟

- وإن هرب. واصعدْ للسَّطح، وأطلق الحمام من البنِيَّة (**بيت الحمام**)؛ حتّى يتمتَّع بحريَّته، ولا تصفِّر له تتعجَّل عودته. دعْه يعود وحدَه مبتهجًا.
- وإنْ أَلِف على حمام الجيران ولم يعد؟
- وإنْ لم يعد.

فقال بعينٍ لامعة: لا.. مزاج سيِّدنا رائقٌ!

- أنا فوق السَّحاب. قلبي أخفّ من الحمام في طيرانه.. وخذْ هذه: إنْ عدنا سالمين فأنت حرٌّ، إن أحببتَ العملَ معي عملتَ، وإنْ أحببتَ أنْ تمشي فامشِ. عمَّا قليل لن يبقَى في مصر عبدٌ واحد.

ظنَّها مداعبةً، فابتسم..

- هذا صحيحٌ يا مجلي.

فقال بحياءٍ وفرحة، وكأنّه يَوَدُّ لو انقضَّ على الوعد حتّى لا يعود فيه..

- ولكن.
- وأطلق (**ولكن**).

سَكَت قليلًا، ثمّ قال وهو ينظر للسّحب القرمزيَّة التي بدأت الأشعةُ تتخلّلها، وقد صار في بهجةٍ كبهجة سيِّده: إذن، سأذهب معك يا سيِّد عاصم.. نعم.. فأنا بثلاثةٍ من رفاقك الذين سيذهبون معك.

فقال مبتسمًا: لا، أرجوكَ لا تبالغ، بل باثنين أحدهما جمعة. لا تشكِّكني فيِ رجالي.. الحمدُ لله على نَعمةِ الوفاء، كان نصيبي منها كثيرًا... تعال.

بدأ الرِّجالُ يتوافدون ويربطونَ الأحصنة إلى سورِ الحديقة. واكتملوا، وأخذوا يراجعون عتادَهم، وما يمكن أنْ يأخذوه معهم، وما يمكن شراؤه من الطَّريق.

وأخذَ شابَّان من صِغار الفُتُوَّات مِن الذين لايعبئون كثيرًا بالتَّقاليد المرعيَّة في معاملة المتقاعدين من كِبار المجال، يضاحِكان عاصمًا، فيقول أحدهما: يا عمّ عاصم، شَخِيره يوقظ الميِّت، وأخذنا نناديِ وندقُّ على الشُّبَّاك ولا فائدة، وفتحنا الشبَّاك بالسِّكين، ونَخَسناه في كِرشه بالعصا، وأيضًا بلا فائدة.

ويقول الثَّاني: لن يستيقظ قبل الظُّهر، سيعلم ظُهرًا مَن النّجس ابن الحرام الذي لم يأتِ من أجل هذا الرَّجل.

كان قد مرَّ ساعةٌ بعد الفجر، عندما خرج الرَّكب أو الكتيبةُ الرّهيبة على الأحصنة، قرابة السَّبعين، خرجوا مدجَّجين بالبندقيَّات والسُّيوف والنّبابيت والسِّياط، وعاصم شامخُ الرأس في المقدِّمة.

يفسح النَّاس الطَّريقَ للرّكب المهيب، ويلمُّ أصحابُ البضائع بضائعهم حتّى لا تضايقه، وتزعَق النِّساء بأولادهنَّ من المشربيَّات لئلَّا يحتكُّوا بالخيَّالة، والبسمةُ ثبتتْ على وجْه عاصم كأنّها شيءٌ من ملامحه، ولا يعبأ بشيءٍ من معالم الطَّريق؛ مشدود الفؤاد إلى مُبتغاه، لحلمه الذي بانتْ ملامحه.

ولم يكن الرَّكب قد قطعَ مسافةً كبيرة، حينما كان حسَّان يسأل المشاةَ في الأَزبكيَّة عن جماعةٍ مسلَّحةٍ لعلّها مرَّت من هنا، فأُشير له للأمام، وانطلق حتّى رآهم، وأخذ يهتف: يا سيِّد عاصم.. يا سيِّد عاصم.

فيلتفتُ الرِّجال في آخر الرَّكب ناظرينَ إلى مَن ينادي مِن خلفهم، وتوقَّفت المسيرة، وتمتم عاصم في نفسه مِن غيظه: ما الذي رماني به في هذا الصَّباح؟ أفراسة مؤمن، أم تكلَّم الخدمُ؟

حتى حاذَى حسَّان صاحبه. فنظر عاصمُ لجماعته ثمّ إلى حسَّان مبتسمًا.

- هذا ليس يومكَ يا حسَّان.

ثمَّ أومأ للرِّجال فتحرَّكوا، فكلَّمه حسَّان لائمًا:

- اثنتان وعشرون سنةً وأنا أتكلَّم وآخذُ منك وأردُّ عليك، وبالأخير، أعددتَ عُدَّتكَ خفيةً، وكأنك تأخذُ النَّاس على قدْر عقولهم، وكأني ساذجٌ ينفخ في قِربةٍ مقطوعة، وأنت كما أنت لا تتعب أبدًا في المضيِّ بما في دماغك!
- لهجةٌ خَشِنةٌ اليومَ يا حسَّان.. لم أعتدْها منكَ.
- يا عاصم، لقد مَنَّ الله عليك وعوَّضك خيرَ العوض.. انْسَ.. إنّها ثلاثون سنةً قد مرَّتْ على الحادثة، وضَحِكتْ لكَ الدُّنيا بعيدًا عن واديهم، ولم تكنْ لتحلُم بما أنت فيه لو بقيتَ هناك.

ردَّ عاصم متململًا: سمعتُ كلّ هذا مِن قبل.. ولم أقاطعكَ أبدًا.. ودعوتني للنِّسيان كثيرًا. منذ أوَّل يوم عرفتكَ فيه وأنتَ تدعوني لهذا بلا كللٍ، وأنا لم أستطع.. لم أنسَ. لماذاً جئتَ اليوم تُفسِد بهاء عُرْسي؟!

- عُرْس الدَّم.. وقطع الرَّحِم.
- بل عُرْس الهُزْء من الظَّالمين ووضع رؤوسهم في التُّراب، وسكب زيتهم تحتَ سنابك الخيل الجامحة، وإتلاف أثمارهم وزرعهم بتلك الخيْل حينما تنفشُ في البساتين بعد الهزيمة والدَّمار. البساتينُ التي باعوا أخاهم بها خرابًا تُخرَب.

- (**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ**) كما في كتاب الله؟
- كَظَمته لثلاثين سنةً.. المرجَل يكادُ ينفجر..
- (**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**) في كتاب الله؟
- أمِّي يا أيّتها المعذَّبة،لم تغفري أبدًا، وأنا على عهدكِ باقٍ. وهذا أقرب النَّاس لي مازال يحضُّني على أن أُولِّي بوجهي عن مأساتك. أنا وحدي أحمِلُ مأساتكِ على ظهري، ولا أحدٌ يشعُر بي، لا أحد يا صابرة يعرف جُرْحكِ الدَّامي سواي.
- (**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) في كتاب الله؟
- أاستقام النَّاس كلّهم على الطَّريقة ولم يتبقَّ غيري؟! والذِّئب يرعَى معِ الغنم؟ وأنا بقيتُ وحدي آخر المسلَّحين؟ أنا لم أستدعكَ لهذه الرِّحلة. ما رأيك في أنْ تفارقنا؟ (**وكان صوته عاليًا قليلًا**).

صُدِم حسَّان: أخفضْ صوتكَ يا عاصم، أو يأكلوني أصحابك.. أهذه آخرتُها؟!

وألوَى بعُنُق حِصانه مجروحًا، فمالَ عاصم على آخره حتّى قبض على اللِّجام، وأعاد الحصان مرَّةً أخرَى، وبدا على وجهه الأسفُ الشَّديد من غلظته مع صاحبه.

- أنا يا حسَّان كنتُ معذَّبًا.. حيران.. أريد أن أصرخ صرخةً مهولةً، وأريد أنْ أبكي كما الأطفال.. واليوم أنا قبل أنْ تأتي- لا تؤاخذني- كنتُ في أحسن حالةٍ.. لم أعشْها أبدًا.. هؤلاء الرِّجال أسمعوني ما أريدُ استماعه.. ايْأسْ منّي يا أيّها الحبيب.. ودعْنا صديقين خارجَ هذا الأمر.. أسرفتَ على نفسك وعليَّ في العِظات.. لماذا كلّ هذا الجَهد لتمنعَ عنهم غضبي؟! بل أراك متحمِّسًا كأنّها النصيحة الأولى.

ـ لأنّك اليوم في قوَّة، والقوَّة تغري بالشرِّ، إذًا هناك شرٌّ واقعٌ لا محالة وأنتَ محاطٌ بهذه الكتيبة.. ولن أسامحَ نفسي إذا لم أستطع أنْ أمنعه.. إنّهم هناك في حقولهم وبيوتهم وتجارتهم يَحْيَون، وأطفالُهم يرتعون، ولا يعرِفون أنّك قادمٌ لتدمِّر كلَّ شيءٍ.. لكنّي أعرِف.. ومعظمُ مَن سيتصدُّون لكَ هم رجالٌ لم يولدوا يومَها أو كانوا أطفالًا.. معظمُ مَن ستجدهم هُم بشرٌ لا يحملون وِزرَ ما حدث.. وأنتَ تعرِف ذلك.. ولا تريد أن تفكر فيه بعقلك.

ـ وبعد؟!

ـ وبعد.. إنّك صاعدٌ برغبتكَ إلى قمَّةٍ شاهقةٍ حَرجة، إمَّا تربَّعتَ عليها، وهذا صعبٌ جدًّا، ولا يوجد ما يبشِّر به؛ لأنك لنْ تستطيع أن تضبُط نفسكَ أبدًا وأنتَ في غِلِّك هذا وقوَّتك هذه وتحكم بالعفو أو بالعدل.. إمَّا تربَّعت عليها أو تخرّ للنَّاحية الأخرَى وتنتقم انتقامًا بربريًّا، وتفتقد حنانَ الله إليكَ. هذا المظلوم المبعَد سيموت. إذا ما أسلتَ الدَّم وعدتَ سالمًا عدتَ بدونه. تذكَّر جيِّدًّا أنّك كنتَ بينكَ وبين نفسكَ تحتمي في إحساسكَ بأنّك مظلومٌ، وتشعر أنّك مرعيٌّ من الله لكونكَ مظلومًا.. أنت ذاهبٌ لتفقِدَ هذا الشَّيء الجميل الذي كان يبشِّرك بما لم تبشِّركَ به السيوف.. صدِّقني.

ـ لنرَ.. (**ثمّ أكمل متوتِّرًا**) أنتَ تخرف، إنما أسير في وعْدِ الله.

وبعدَ فترةٍ من الصَّمت، قال حسَّان مؤنِّبًا:

ـ لقد كنتَ معنا نحن أيضًا يا عاصم، ومِن قبل أن تكون مع هؤلاء.. فماذا تركنا فيك؟!.. ألا تذْكر ولو مرَّة جلسةً قد أعجبتكَ عن التَّجاوز والمسامحة؟!.. وفيم كان الدَّرس والعظات إذًا؟!..

ألم تحضُر الدَّرس لأحدِ أصحابي فعلمتَ بأنّ نبيَّنا ﷺ سامح قاتلَ عمِّه حمزة الذي كان يحبُّه كثيرًا؟ قد سامح باقرَ البطن وقاطعَ الكَبِد، وعجِبتَ أنتَ يومها من ذلكَ.

فردَّ بهدوءٍ: أذكرُ هذا.. ولكنه نبيٌّ.

زَفَر حسَّان وكأنّه يكاد يبكي، وقد آمن بأنّه وحده الآن مِن البشر المسئولُ عن دفع آلة القتلِ المتَّجهة بصريرها العظيم لهؤلاء النَّاس، فأشفق من المسئوليَّة العظيمة، ثمّ قال:

- إذًا، اسمح لي أنْ أكون في رَكْبكَ.. مَن يدري؟ لعلِّي أستطيعُ في بعض الطَّريق أنْ أثنيكَ عن قتل النَّاس كالسَّفَّاحين.

ينظرُ له عاصم شزرًا.

فيردُّ حسَّان بنبرة المغلوبِ على أمره: أوَتريدني أن أصفِّق لكَ؟!.



واختاروا طريقَ الرِّيف بدلًا من الطَّريق البريِّ، وقطعوا شَوْطًا بخطوةٍ معتادة. ولم يكفَّ حسَّان طوال الطَّريق عن المحاولةِ مع صاحبه مرَّاتٍ ومرَّات؛ حتّى يفِلَّ عزمَه أو يليِّنه قليلًا ويكسِر حدَّته واندفاعه من زَخْم ثلاثين عامًا.

مرُّوا على مَقرُبَةٍ من قريةٍ من قرَى (**بنها**). كانت ثمَّة امرأةٌ عند آخرها تغسِل أوانيها قبيل الظُّهر عند الترعة البعيدة الضَّفَّتين، وقد اقتربَ منها شقيَّان يتحرَّشان بها، وعندما ظهر الرَّكب من ثَنيةٍ دُفعَةً واحدةً أمام ناظِرَيْها ونواظِر الشَّابَّين- وكانت تزبد وترعدُ وتهدِّد بطَسْتٍ من نُحاسٍ في يدها- استغاثتهم وهُم على الضَّفة الثَّانية. وانتبهوا جميعًا، وأخذوا ينظُرونَ لإشارةٍ من عين عاصم، لكنّه لم يُشِر. فاندفع حسَّان والغضبُ مِلء عينيه، ومرَّ على الجسر. والتفتَ الشَّابَّان إليه وأخذا يتراجعان خائفين، وهدَّدهما بأن

سيلقيهما في التّرعة إذا لم يغيبا عن وجهه الآن، فاعتذرا وأعينُهما تتردَّد بينه وبين صَحْبه الصَّناديد على النَّاحية الأخرَى يتابعون الموقف. وقلِق عاصم من أنْ يكرَّ الرَّجلان على صاحبه ويتناولاه من أعلى حِصانه، فسارَ لمعظم الجسر. بينما كانت الفتاةُ الهيفاء الجميلة الصَّغيرة التي تبدو عليها آثار النَّعمة تشكرُ حسَّانًا، وترجوه أنْ ينتظر دقيقةً حتّى يغيب الشَّابَّان تمامًا. وبدا على وجْه حسَّان الحياء من حُسْنها، فأطرقَ إلى الأرض. وناداه عاصم: هيَّا، فتأمَّلتِ الفتاة بهاءَ عاصم وحسنَ طلعته، وأناقته، في ثوبٍ أبيض عليه بُرنُسٌ ذهبيٌّ معقودُ الرِّباط أعلَى الصَّدر، وعلى رأسه عَمامةٌ ذهبيَّةٌ من خامة البُرنُس، منتصب الظَّهر فوق فرسه، فشكرته بحرارة، فلم يردَّ عليها إلَّا بإيماءةٍ من رأسه كما كان يفعل هو وأبوه في صِغره للرَّدِّ على تحيَّة أهل الحقول، فقالت لحسَّان:

- مَن هذا المعجِب فوقَ الفرس الشَّقراء؟ هو الذي بعثكَ؟

فلم يردَّ عليها، وانصرفَ رافعًا حاجبيه تعجُّبًا، واستدار عاصم، حتّى اقتربا من بعضهما بعضًا مجدَّدًا.

قال عاصم مداعبًا: أغَمَزَتِ الصِّنَّارة؟

- عَرَفتكَ شهمًا.. أتنقِم على الذين لم ينجدوكَ وأمَّكَ وها أنتَ منهم؟!كانت هذه شابَّةً تستغيث بين أيدي رجلين ولم تهتمَّ بها.. ما الفرق؟!

- شابَّة حلوة!

- عاصم!

- لأنّ ثمَّة شابَّةً أخرى تصرُخ وتستغيث منذ ثلاثين عامًا حتّى أبحَّها الصِّياح.

- قيَّدتَّ نفسكَ وسجنتَ روحكَ.. وأجَّلتَ حياتكَ.. ولم تعدْ تستجيب لما يدور حولكَ من شأن النَّاس.

- هاأنذا ذاهبٌ لتحطيم القيودِ وجدران السِّجن، ومن أجل نفسي.
- السِّجن داخلكَ.. كلّ شيءٍ يتغيَّر إلَّا أنت.. ستجدُ أطفالًا لم يشاركوا في هذا ولا يعرفونه، وفسائل ستجدُها نخلات باسقاتٍ، وربَّما وجدتَّ أهلًا ندِموا على عَمْلَتهم، وربَّما، وربَّما، وربَّما؛ وقد تقصَّيتَ أخبارهم آخر مرَّةٍ منذ عامين، فربَّما مات سعد هذا الذي تذهب لملاقاته.

فقال شاردًا ومعاتبًا ومحزونًا:

- لا يا حسَّان، لا، لا تقل: مات.. سأكره نفسي؛ لأنّي تباطأتُ كثيرًا.
- هذا ليس بعيدًا.
- أرجوك؛ أخفْتني على حِسبتي بكلامك.. أقلقتني!.. قبل أنْ يموت هذا، يحِقُّ لي على الأقلِّ أن أرَى النَّدم في عينيه، أو أخزيه- على الأقلِّ- في جماعته، لا أنْ يموت وبنوه حولَ فراشه مرتاحًا وقورًا كأيّ رجلٍ صالح.
- وإن لم يكنْ ما تريد؟

فقال منفعلًا: وفيمَ نصرني الله حتّى هذا الحين وكأنّه يجهِّزني لهذا؟!

- مَن يضمَن لكَ أنّ الله جهَّزك لهذا؟
- أنا أضمنُ ذلك، جهَّزني، ووفَّق خُطَّتي؟!

فقال بهدوءٍ به لمسةٌ خفيفةٌ من السُّخريَة:

- خطفتُ منْك شيئًا الآن كنتَ تنكرُه، كنتَ تعرف هؤلاء الذين يسيرون خلفك فقط من أجل أن يعينوك على ثأرِكَ، وربما أنّك لا تحبُّهم حبًّا حقيقيًّا، أنتَ أحببت المدينة والبكاوات،

وستهرب إلى هناك مرَّةً أخرى وبغير عودةٍ بعد أنْ تحلَّ مشكلتك القديمة.

قضمَ عاصم ظفره، وهزَّ رأسهم نافيًا.

ـ أتحسَب أنَّك خطَّطتَ يا عاصم.. أنتـ حيًّا اللهـ حكيتَ وأفضيتَ، ثمّ ساعات وخرجتَ. أنت لم تفكِّر، أنتَ تمنَّيتَ، والدُّنيا مرواغةٌ ولديها مفاجآتها.

فتلفَّت عاصم وكأنّه يستعرض الحشد، ثمّ كلَّمه:

ـ كيف لم أُخطِّط يا عمّنا الشَّيخ؟!

ـ سأقول شيئًا واحدًا عن الأخلاق والضَّمير (**وهو رافعٌ سبَّابته ينظُر للأرض في هدوءٍ**).

ابتسم عاصم: مسكين يا حسَّان.. إنّهما ليسا من جَهاز المعارك.

ـ إنّك لم تسألْ نفسكَ عن الخسائر التي ستتحمَّلها ولنْ تؤلمكَ كثيرًا، وتلك الخسائرُ التي ستتعذَّب بها.

ـ إنَّ من ورائي الرِّجال!، وأفضل السِّلاح!، وأنت ترَى، وسترَى.

ـ تمنَّيتَ أنْ تنتقم، وقد تنجَح في ذلكَ.. وذاهبون نحنُ إلى عربٍ أشدَّاء. وليس عَجَبًا أن أرَىـ حتّى وإنْ باغتَّهم وانتصرتَ عليهمـ أنْ أرى قتيلًا أو أكثر من رجالكَ في بِركةٍ من الدم.

فنظرَ له عاصم مقطَّب الحاجبين كأنّه فوجئ وانزعج، وشدَّ يدَه على اللِّجام متكدِّرًا.

وأكملِ حسَّان: هناك طفلٌ أو أكثر من أطفال هؤلاء الرِّجال ربما يُيتّم بسبب أُمنيتكَ..وأنتَ له وقتها (**سعد**) الذي حطَّمه ولم يبالِ.

ـ أنا لم أضرِب أحدًا على يده حتّى يكثِّرنا ويعزِّزنا، ولم أغرِّر بأحداثٍ صغار.

ـ ها قد بدأتَ.. اضبطْ نفسكَ وأنت تتغيَّر: (**أنا لم أضرب أحدًا على يده**)، هذه هي القضيَّة!، وستتغيَّر أكثرَ بعد أنْ تمضي لنهاية الشَّوط؛ ذلك الذي كان يخافه جدُّكَ ويفتِّش عنه تحتَ الغطاء، أنت ربّما تتحوَّل إليه.

غضبَ عاصم: أنا أشعرُ بالإهانة كلَّما تكلَّمت عن هذا الأمر.. مَن يده في الماء ليس كمَن يده في النَّار. إنّها لحظاتٌ مريعةٌ لم تعشْها أنت، فكيف بكَ وإخوتك يمزِّقون ثوبكَ، وأحدُهم يتناولك من رقبتِك كجروٍ ويلقي بكَ أرضًا، في يوم وفاةِ أبيك؟! وأنت تعجب مِن كوني لم أنسَ!

ـ عزُّكَ وثراؤكَ قوَّيَا ذاكرتكَ ونفعَا ثأركَ، لو كنت تدبِّر بالكاد قوتَ يومكَ لقلت: منهم لله، واكتفيتَ. ضعْ هذا في حسبانك أيضًا.... ومع ذلك فأنتَ هربتَ من الفندق خوفًا من الفقر.

تضايقَ عاصم: لا.. ثمّ لا.. وأنا أخطأتُ إذْ حكيتُ لك قصَّة (**شبرد**) فتظنُّ بي هذا. أمَّا عن قوَّة ذاكرتي ـ يا مَن لا يريد أن يعرِف ـ فسرُّها أن مَن أهانوني وأمِّي هُم أولَى النَّاس بحبِّي، وأنا أحقُّ النَّاس برعايتهم.. أنا أخوهم يا رجل (**قالها محتدًّا**).

ـ لستَ أوَّل ولا آخرَ مَن يُظلَم مِن أهله.. النَّبيُّ يوسف الصِّدِّيق ظُلِم مِن إخوته، ولم يبطش بهم حينما كانوا قبضَ يديه، بل سامحهم وضيَّفهم، ثمّ أسكنهم مصرَ وذويهم. والمسيح أيضًا لم يخذله إلَّا أقرباؤه، وعمُّ النبيِّ ﷺ كان يهزَأ بدعوته ويسير خلفه مكذِّبًا، وكانت زوجةُ العمِّ تضع الشَّوك في طريقه، بل وأجبرَ هذا العمُّ ابنيْه على تطليق ابنتي الرَّسول. كلُّ هذا ولم ينشغلْ به النبيُّ ﷺ عن طريقه ولم يجعل عمَّه هدفًا لحياته، كما أني...

ـ أكمِل.

ـ لا شيء.

ـ لا تُضخِّم الأمرَ يا حسَّان.. همـ يا مَن ابتلعتَ شَكوى لا علم لي بها في ظلم الأقربين ـ أصحابُ رسالة.. أنبياء!.. أمَّا أنا فطالب ثأرٍ، قضى الله أنْ يعينه على ثأره.

ـ نحن لا نتعلَّم سيرة أنبياء الله: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد ـ عليهم السَّلام ـ على سبيل التَّسلية، أو تحصيلِ العلم لا غير؛ لكنْ لنتَّخذهم قُدوةً حسنةً، ونسير خلفَهم في دروب الحكمة والسَّلام، أو تتقاذفنا أهواؤنا في الدُّنيا ونصائح الجُهَّال.

ـ لكنّ الظُّلم كلّ الظُّلم أنْ يعيش قلَّةٌ من النَّاس بأخلاقٍ تتمثَّل أخلاق الأنبياء والصَّالحين والمصلِحين، بين جمهورٍ عريض من الأوغاد وأهل (**أنا ومِن بعدي الطُّوفان**) الكُثُرٍ؛ إنّ هذا يجلب التَّعاسة، وخسائر لا تنقطعُ عن هؤلاء البرَرَة. وستضيقُ بهم الأرض على رِحابتها، ولنْ يسعهم إلَّا الخِرَب والمزابل في قادم الأزمنة، أمَّا كَبِد المدينة فللشُّطَّار.

ـ الظُّلم هو التَّعاسة الحقيقيَّة.

ـ هذا صحيح يا حسَّان!.. وهذا ما يجعلني حريصًا جدًّا على ألَّا يظلِمني أحدٌ مرَّةً ثانيةً حتّى لا تكتمل تعاستي.. هذا صحيح!.. وأنا مثلك تمامًا، أحبُّ الأنبياء، وأؤمن بالخير الذي بُعثوا به.. لكن.. أرغب في الاستقرار أبدًا في كَبِد المدينة، غير مظلوم وغير ظالم.. وأشمئزُّ من الشُّطَّار.. غير أني لا أقوَى على عيشِ الخَرَب.

ـ أنا أَعني بما قلتُ أنّ التَّعاسة في أنْ تكون ظالمًا.. الظَّالم ظالمٌ لنفسه، ولكن لا يدري، مريضٌ ولا يشعُر، منتِنٌ ولا يشتمُّ. ولو للظُّلم رائحةٌ لأنكرَ الجبابرة أنفسهم من شدَّة النَّتْن. بعضُ الظَّالمين هم جِيَفٌ حيَّةٌ، وربّما أشدُّ نتْنًا من الجِيَف، ولكنْ لا يعرفون ولا يشمُّون.

ـ ما لي ولطالب علمٍ!.. ووَرَّاق أيضًا!

الفصلُ الثّالث عَشَر

كانوا قد ودَّعوا المستغيثةَ منذ فترةٍ، والرِّجال حتّى حينه في أقصَى انضباطهم، مازالوا الرِّجال الذين شمَّروا أكمامَهم ورفعوا العِصِيَّ. ثمّ إنّهم مرُّوا على رأس قريةٍ وشاهدوا فيها حلبةً لمصارعة الدِّيكة، فاستأذنوا من عاصم للوقوف عليها، غير أنّه كان استئذانًا ممّن لا ينتظر الإذن، نَطَقوها وانحرفوا إلى الحلبة مباشرةً، وتوزَّعوا بين الحلقات المستعرة بالدَّم والصِّياح وهياج الدِّيكة المحتَمِسة، وأخذوا يتراهنون ويتصايحون ويتضاحكون والرِّيشُ يتناثر. ودُهِش عاصم؛ فمنذُ قليلٍ كان يثمِّن عدم تحرُّكهم للفتاة لأنّه لم يشِر بذلك. وبدا لعاصم أنّ الرِّجالَ قد أصابهم فجأةً شيءٌ من الصبيانيَّة على كِبَرٍ، وأنّ ما يدور حوله لا يناسب حالةَ الذَّاهبين للثَّأر، وأنّه امتهانٌ لجرحه وصبره. فقال لهم ثلاث مرَّاتٍ متفرِّقات، وبهدوء: هلَّا مشينا؟ وردُّوا فيها: انتظرْ قليلًا. السُّؤال والرَّدُّ لا يخرجان عن الأدب، لكنّهما لزِجان ومشحونان بالتَّململ.

أمَّا حسَّان فلم يردَّ عليه أحدٌ عندما أبدَى رأيه في الرِّياضة البشعة التي يقف عليها النَّاس لمشاهدة ديكين يتذابحان بالموسَى.

وقد خرجوا جميعًا من عند الحلقاتِ لإكمال المسيرة، وعلى وجوهِهم ضيقٌ صامتٌ. إنها مشاجرةٌ خرساء بينهم جميعًا، يُمكِن إنكارُها إذا حاول أحدُ الأطراف أنْ يواجه الآخر بها، ومع هذا فهي واضحةٌ، ومبرَّرةٌ، كلّ طرفٍ كما يرَى:

أمَّا حسَّان فقد قال ما عنده قبل أنْ يدخل طرفًا مستقلًّا في هذا المشاجرة العصبيَّة الخرساء يشعر بالغربة.

وعاصم يراهم نارًا قد اقتبسها من حديقةِ بيته بالقاهرة، وليس لها إلَّا أن تظلَّ على أوْجها حتّى يرمي بها وجه أعدائه. ولم لا؟! فهو وإنْ كان قد حكَّ أعوادها في دقيقةٍ لا غير، إلَّا أنّه جمَّع تلك الأعواد وتنقَّاها ثمّ خزَّنها خلال عقدٍ من الزَّمان.

أمَّا بالنسبة لهم، فهُم عاهدوه على إنجاز ثأره، ويعرِفون أنّهم منتقون، ويتصرَّفون على هذا الأساس، مثلما تعرف الجِياد العِراب أنّها جميلةٌ، فإذا اجتمعتِ استبدَّ بها العجبُ والخيلاء؛ لذا فلديْهم ما يجعلهم رافضين للمُتابعة الصَّارمة والتَّعنُّت، فيعجَبون مِن هذا الذي يخشَى إنْ قعَدوا ألَّا يقوموا، وإنْ مرحوا ولعِبوا ألَّا يجدُّوا. ومِن دون أن يتكلَّموا بينهم قرَّروا أنْ يعاندوا، اتَّفقوا بالحاسَّة إيَّاها.

وقت العصر، وإلى حينها.. ما كان عاصم ينفردُ في حديثٍ بأيّ منهم، متَّخذًا صمتَه وسيلةً للعتاب، وكان أغلبُ ظنِّه أنّ ما حدث لنْ يتكرَّر مثله. وقد خاب ظنُّه، وحدثَ الانهيارُ الثَّاني: مرُّوا على سوق الخميس في بَندَر مدينةٍ كبيرةٍ في الطَّريق، ووقفوا على أوَّله، وأخذوا يساومون على أسعار المواشي أشدَّ المساومةِ وهُم لا ينْتوون الشِّراء بالطَّبع. وعاصم فتح فمه اندهاشًا، ولم يتكلَّم. ولم يردَّ أحدٌ على حسَّان عندما نبَّههم على أنّه لا يصحُّ أنْ يؤمِّلوا الباعة ويشتطُّوا معهم في المساومة وهُم لاينوون الشِّراء.

ومَن يكلِّم؟! فقد غلبتهم متعةُ التَّسوُّق وانطلقوا، وتفرَّقوا في جنباتِ السُّوق الواسع.

وحينها كادَ عاصم يبكي من تفرُّق شَمله؛ وهو يشاهدُهم بدَدًا بدَدًا هنا وهناك، وجمعُهم مِن سوقٍ كهذا أصعبُ مِن جمعهم مِن حلبة الدِّيَكة الصَّغيرة. وهو يتعجَّب مِن أمر هؤلاء الذين كان له أنْ يعاتبهم فإذا بهم يعاندونه كأنّه هو المخطئ. وأخذ يمرُّ على وجوهٍ منهم، ويقول: هلّا مشيْنا؟، ويأتيه الرَّدُّ: انتظر قليلًا. هلّا مشيْنا؟. انتظر قليلًا.

حتّى تراجع لمدخلِ السُّوق المرتفع، وجلس بجانبِ موازين القبَّاني، وأخذَ ينظر إليهم في تَطْوافهم. ومضَى وقتٌ شعرَ بعده أنّه افتقد لُمَّته للأبد، وأنّهم حتّى قد يصارحونه ببرودٍ بتغيِّر رأيهم في الذِّهاب معه، وجفَّ حلقُه من الصَّدمة. ولمَّا لم يعدْ لديه إحساسٌ بأنّه يملك أيّ دالَّةٍ على هؤلاء الموزَّعين هنا وهناك، إذا بهم ينْسلخون مِن بين النَّاس ويأتونه وكأنّما جَمَعَهم نداءٌ. إذًا.. أدَّبوه؛ حتّى يعرِف كيف يحترمُ موهبتهم، وتطوُّعهم. وفعلوا به ما يفعلُ كثيرٌ من الموهوبين المغرورين فيما قبْل التَّنفيذ مع مَن استعان بهم إذا ما ضايق أمزجتَهم. خرجوا إليه، ومضَى أمامَهم مهدودَ القوَى، لا يأمَن هذه المرَّة ألَّا يفعلوها ثانيةً، غير أنّه سعيدٌ جدًّا بأنّهم خرجوا من السُّوق على أيّ حالٍ.

ومضَى الوقت به وبهم، وفي أثناءِ سيْرهم ليلًا، مرُّوا على دربٍ ترابيٍّ ضيِّقٍ قليلًا، واستمعوا للزَّمْر ودمدمة الطُّبول يأتيانهم مِن بين الزِّراعة من حفلِ عُرْسٍ كبير، يبدو أنّه لعائلةٍ عريقةٍ وثريَّة. وإذا برِجالٍ من جماعة الحفلِ يظهرون على هذا الدَّرب الواقع خلفَ البيت، ويقفون في عُرْض الطَّريق بمظاهر قوَّة؛ ليجبروهم على (**التَّحويدة**): وتلك الإحادةُ كانت نوعًا من الكرم الإجباريِّ والاستضافة عُنوًا على الموائد، تُنزِله بعض العائلات الثَّريَّة والقويَّة على عابري السَّبيل في حالاتٍ معيَّنة: في حالة

الصَّائمين المارِّين في رمضان وقتَ الإفطار، والعروس التي يزفُّها أهلُها إلى بلد عريسها ومرُّوا من أمام بيوت العائلة، وكذلك المارَّة على حفلة العائلة. ولمّا تبيَّن لهم أنّ المارَّة ليسوا قلَّةً، بل هُم كتيبةٌ طويلةٌ مدجَّجةٌ بالسِّلاح، ربّما لا تستسيغ دعوةً بهذا الشَّكل، وتأبَى هذا النَّوع مِن الكرم، أفسحوا لهم الطَّريق، وتراجعوا قليلًا في الزِّراعات. فإذا بالرِّجال مع عاصم ينادونهم..

- بل (**حوِّدونا حوِّدونا**)... (**لا يردُّ الكريم إلَّا اللَّئيم**). وهل مِن المعقول أنْ نردَّ دعوتكم! ومشَى معهم عاصمُ وهو يُبدي بابتسامتِه نوعًا من القَبول، بل وأعلنَ إعجابه الصَّريح بقبولهم (**التَّحويدة**)؛ مفضِّلًا أن يعطي الغصبَ برضاه. وذهبوا وطعِموا حتّى شبعوا. وقام فريقٌ منهم بإحماءِ الحفل بالرَّقص بالأحصنة ولعبةِ (**التَّحطيب**) بالعِصِيِّ؛ يكفون عن إخوانهم في تحليل الدَّسَم. وخرجوا فرحين، لقد أُدِّب إذًا بما فيه الكِفاية، ولعلَّها الأخيرة؛ إذِ استكان وخضع!

وبعد أنْ تحرَّكوا مجدَّدًا، شَرَد حسَّان متعجِّبًا ممّا يدور حوله: فهؤلاء قاموا لعاصم قومَةً لا يستطيعها إلَّا قليلٌ، وهي قدْ تمثِّل خطورةً على حياتِهم. ولكن مَن أبدوا كلّ هذه الشَّهامة ألَا تتَّسع صدورهم للتَّنازل عنْ حقِّهم في التَّرويح عنِ النَّفس ليوم واحدٍ مراعاةً للرَّجل، حتّى وإنْ بدا ما يريده سخيفًا في أعينهم ومتعنِّتًا؟!

وهذا أهلَك مالًا ووقتًا، واعتصر عقلَه لعقد من الزَّمن لاكتساب الرِّجال، ويبدو في ذلك مثلًا للصَّبر والأناة والتعقُّل. ولكنْ مَن أبدَى كلّ هذا الرُّشد ألا يتَّسع صدرُه للتَّنازل عن حقِّه في ضبط المسيرة إلى النَّجْع: حبًّا وكرامة للمُختارين؟!

لمَ يبدو ولو بعضُ التَّنازل عارًا؟!

حتّى تكون جديرًا بسُكنَى كَبِد المدينة.

قاعدٌ عمرك كلّه أنتَ بين أرفف الكتب، والأصدقاء الأخيار السذَّج، فلم تفهمْ شيئًا من قوانين الدُّنيا.

طاف به طائفٌ جعلَه يغارُ من الفريقين على ما رآه فجأةً قوَّةً ونخوةً وفُحُولة. حتّى عاصم الذي كُسِر عزمُه بالنِّهاية هو قويٌّ وفحلٌ، ويكْفيه أنّه في المرَّتين الأوليَيْن أصرَّ على أنْ ينبِّههم لفضِّ لعِبهم ولهوهم ولم يسرّها في نفسه. وتحسَّر حسَّان على نفسِه الليِّنة المتسامحةِ المتنازلة، ورأى أنّه لو كان مكان صاحبه لتحمَّل حتّى أنْ يطول زمنُ الرِّحلة شهرًا دون أنْ يتعجَّلهم بكلمةٍ واحدة، ولوْ كان منهم لتقبَّل أن يوقظه عاصمُ مِن أحلى نومةٍ لإكمال السَّير.

قدِ اشتعل في داخلِه هذا التَّبكيت حتّى رأى أنّه لا بدّ أنْ يتحدَّث مع صاحبِه في أيّ أمرٍ حتّى يتخلَّص مِن ضغط الفِكْر الطّارئ الذي ينهَش مخَّه وصدره، ويزعج ضميرَه، ويجعله في خزي من نفسه. ولكن صاحبه بنفورٍ قال له إنّه في حاجةٍ للصَّمت الآن. فاحتَجَّ حسَّان على ردِّ صاحبه في صمتٍ، بأنْ تقدَّم المسيرةَ مبتعدًا عنه بخطواتٍ، وكأنّه يمشي وحده. والنَّار تأجَّجتْ.

أتتقمَّص قميصَ العاقل الحكيم أمام هذا الصَّاحب؟!

إنّ النَّاس- إنْ دريتَ- لا يرون فيكَ ما يثيرُ إعجابهم إلَّا هذا القرب الشَّديد من ذلك الوجيه ليس إلَّا.. أفِقْ ممّا أنت فيه. وابعدْ قليلًا لترَى حجمَه الحقيقيَّ الذي زيَّفته لكَ عين الصَّداقة. السَّائر خلفكَ كان يجالس كِبار السُّوق بثقةٍ كاملةٍ وهو ابنُ أربعٍ وعشرين سنةً.. لملِمْ خيبتكَ. هوَ ليس

في حاجةٍ لنصائحك. هو يعرِف ما يريدُ تمامًا. وسوف ينجَح كما كان ينجَح دائمًا. وظَلَّ يعلو ويعلو أمامكِ وأنتَ تصيح مِن تحته بنصائحكَ الأخلاقيَّة حتّى صار الوضعُ مضحكًا جدًّا. بضاعتكَ مُزجاةٌ في عين الرَّجل، ومِن أدبه لم يقل لكَ: حنَّن الله، وأنت مُصِرٌّ على أنْ تعرضها عليه وتغريه بها كأنّك تعرض طَوْق نجاةٍ على مَن لا يعرف العومَ الرَّائح للبحر، ولا غريق إلَّا أنتَ إنْ تعرف.

ألم ترَ كيف تمنَّتِ الشَّابَّة أنْ يكون هو الشَّهم الذي أنقذَها فبعث لها أحدَ رجاله؟! مَن هذه؟ لعلَّها الدُّنيا التي أحبَّته وازدرتكَ. إنّها كأميرةِ الأحلام التي تعمل بأشغال الإبرة التي شبَّهتها بالدنيا، التي سألك ضاحكًا: وهل تميل إليكَ؟! وهو على حقّ، إنّها تميل إليه ولا تميل إليَّ. هو يعرف نفسه جيِّدًا منذ أن كانَ في السّادسة عشرة، وكذلك يعرفني.. يا خيبتي الكبيرة.

ومَن أنت.. ومَن هو؟ إنّه الأنجح، والأكثر قبولًا عند النَّاس، وإذا حضر إلى الحفلات لُوحِظ.

ومَن أمُّك.. ومَن أمُّه؟ أمُّه كانت الأجمل، بل والأقوَى أيضًا رغم ما أصابها.

ومَن جَدُّك.. ومَن جَدُّه؟ فلَّاحان جِيزيَّان، ولكنّ جَدَّه كان أغنَى، وأكثر تمدُّنًا.

ومَن أبوك.. ومَن أبوه؟ أبوه هو مَن هو!، وعن الفرق فحدِّث ولا حرج.

لكلّ هذا لا يبقَى لكَ إلَّا أنْ تضع لسانكَ في فمكَ وتسكت، وتحمد الله على أنّ هذا يتبسَّط إليكَ.

يتبسَّط إليَّ؟! بل سأقطع هذه العَلاقة فورًا.

عندَ هذا الحدِّ الحارق مِن حديث النَّفس المعذَّبة كان جوفُه قد اشتعل، وأوشك أن ينفِّذ قرارًا غريبًا ينتقم به من إحساسِه بالهوان والدُّونيَّة بينهم، وينفجِر مدافعًا عن نفسه: قرَّر أنْ يلتفت ويشير لهم بالتَّوقُّف، ثمّ يقول:

- يا عاصم، نعم أنت، ومَن غيرك؟! أنتَ تافهٌ.. أما علِمتَ أنّ (**شراء العبد ولا تربيَّته**)؟ لو وفَّرتَ مالكَ ووقتكَ اللّذين أنفقتهما، وأجَّرتَ رجالًا بالمالِ الحاضر، لذهبوا معكَ وأطاعوكَ ثمّ بيَّضوا وجهكَ، ثمّ لا يكونوا مِن بعدها منَّانين.

وأنتُم يا جماعة، تافهون أيضًا. ألمْ يدفع الرَّجل الثَّمن مقدَّمًا بأشكالٍ كثيرة؟! فلم تعصونه الآن وتُحزِنون قلبه في أمورٍ تافهةٍ مثلكم؟!

أنا الفتوَّة هنا، ولا أحد سواي. والوقوف على مصارعة الدِّيَكة لا يحصل إلَّا من رجالٍ أشرارٍ دمويِّين بالفطرة. والمساومةُ على مواشي الفلَّاحين المساكين دونَ داعٍ نذالةٌ. والهجومُ على حفلةٍ بعددٍ كبيرٍ جدًّا لا تعرفون أصحابها وقد يرهقُهم إطعامكم هو الرّذالة عينها.... والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثمَّ يغادرهم عائدًا للقاهرة وهُم يقلِّبون أكفَّهم من الدَّهشة.

وقد همَّ بالتَّنفيذ، واحمرَّ وجهُه استعدادًا، إلَّا أنّ شيئًا غير الخوف أمسكه، وهدَّأ ثورته شيئًا فشيئًا.

اهدأ.. اهدأ.. اهدأ.

ورأى الأمرَ بصورةٍ أخرى: هذا النَّشاز العابرُ الذي حدثَ ليس دليل قوَّةٍ ونخوةٍ عند عاصم من ناحيةٍ، وعند الرِّجال من ناحيةٍ أخرَى، بل كلّ ما في الأمر أنّ صديقكَ لم يُرسِل أحدًا من جماعته لإغاثة الفتاة رغمَ سهولة ذلكَ عليه وعليهم، فأتعبَه اللهُ بهم، فانصرفوا عنه إلى كلّ نادٍ قابلوه. والرِّجال لم ينفِر منهم واحدٌ لنجدةِ الفتاة مِن تلقاء نفسه بغضِّ النَّظر عن

سماحِ عاصم مِن عدمه؛ ليظهروا له كلّ احترام، فأتعبهم اللهُ به، بقَوْله (**هلَّاَ مشينا؟**) الذي لا يسيء ولا يجرح، فاستثْقلوه قَوْلًا، وتكدَّر صفاءُ نفوسهم له. هذا تأويلُ ما ترَى، ولا غير.

فارتاح حسَّان، وتراجع ليواكبَ صاحبَه، وهو يحمَدُ الله على الظَّلام الذي يستُر ما بالعين من خجلٍ، كما ستَر ما بها من غيرة.

واكبَ صاحبه، وأخذَ يؤاخذ نفسَه بشدَّةٍ على أن استُزِلَّ- في غَفلَةٍ من تقواه- بظاهرِ من الحياة الدُّنيا. وقد غلبه شعورٌ ما من جَرَّاء هذه الزَّلَّةِ بأنّه لم يعُد مؤهَّلًا كأوَّل لإيقاف صاحبه عما ينتوي.

وفيما كان هذا يلومُ نفسه، كان عاصم يدافعُ عن خُطَّته أمام نفسه؛ فهو لا يستطيع أن يعتمد على لصوصٍ وهجَّامين وقطَّاع طرقٍ وفُتُوَّات أجَراء لينجزَ ثأره؛ سمعتُه كتاجرٍ لا تسمح بهذا التَّعاون؛ كما أنّه لا يصحُّ أنْ يهجُم النَّجْع بأوباشٍ وسَفَلةٍ يسرقون بيوتَ النَّجْع ويعتدون على الحُرَم ويؤذون النِّساء، فيقولُ إخوتُه ساعتئذ: عاصم يتزعَّم عِصابةً من اللُّصوص في مصر جاء بها. إنّما الأنكَى في إيلام إخوته أنْ يأتي برجالٍ أكْفَاءٍ وكِرام، ويتحمَّل غرورهم وعزَّة أنفسهم.

ثمّ أخذ يفكِّر- باعتباره مقاولًا- في تقييم الأمر للحصولِ على خُلاصةٍ عامَّةٍ لا تتعلَّق بقصَّته وثأره، حتّى توصَّل لخُلاصةٍ مؤلمة: النَّتائجُ الطَّيبة من الاستعانةِ بالنَّاس يمكن الحصولُ عليها بتأجيرهم كما تَعارَف البشر، لا بالعاطفة والمعروف القديم... والسُّخرة تعطي نتائج مذهلةً.

فيما كان الفُتُوَّات لا يفكِّرون، لذا بدوا أكثر حيويَّةً، وأكثرَ تنسُّمًا للهواءِ العليل الذي يمرُّ في الدَّرب التُّرابيِّ، ووحدهم راقتهم رائحةُ النَّعناع التي تهبُّ من الجانبين وطربوا لها.

الفصلُ الرّابع عَشَر

ظلَّتِ المجموعة في سَيرها العاديِّ. وبسَيرهم الليِّن هذا لم تُرهَق الخيل، حتّى وصلوا بعد الفجر إلى قريةٍ كبيرةٍ، خطَّطوا للمرور عليها، والنُّزول في حَوْشٍ كبيرٍ مُعَدٍّ بها لاستقبال جماعةٍ كبيرة العدد من المسافرين أو الحجيج أو الجنودٍ أو غيرهم. وقد اجتازوا بالوصول إليها الكثيرَ من المسافة، واستأجروا الحَوْش، وناموا فيه نومًا عميقًا.



اليومُ هو يوم الجمعة، وعندما أذَّن المؤذِّنُ للصَّلاة، استيقظَ عاصم وحسَّان، وكذلك عديدٌ من الرِّجال، وتبادلوا جميعاً تحيَّة الصَّباح ببراءة أطفالٍ لا يذكرون ما حدثَ بالأمس، وحسَّان يتأمَّل في حقيقة التأويل الذي جاءه كاملًا وأزاحَ عنه الهمَّ، هل هو هاتفٌ علويٌّ أم يقينٌ أنارَ الله به قلبَه، فوجد أنّ الأمر لا يختلفُ كثيرًا، وإنْ كان يُفضِّل الهاتفَ الخارجي العلوي، مثلَ كثير من الناس: يحبّون أن ينزل إليهم اليقين، لا أنْ يُولَد فيهم، وهذا أدَّى به بعدَ الطمأنينة للانْزعاج من فكرةِ أنْ يكون التّأويل هو دفاعٌ داخليٌّ محضٌ عن نفسه، لا والله، ليسَ كذلك، وما يُدريك؟

بل هو مِن الله، وكذلك يظنُّ صاحبك أنّه صاحب مهمَّةٍ مقدَّسة، بل من الله، وقد يكون منكَ؛ وهكذا ظلَّ يصارع وساوسه، حتّى قلق من غياب تلك الطّمأنينة الكاملة التي كان يستظلُّ بها وسط أصحابه ودروسه وكتب الأئمَّة، وآمن بأن طالب العلم والدّاعية في رغدٍ إيمانيٍّ بين أصحابه يدلِّل به نفسه، ولا يُختبر إيمانه وقوَّة تحمُّله إلّا بخروجه للناس على علّاتهم. وأخذ يفتِّش عن قلقٍ في وجه عاصم، لكنّه وجد له وجهًا لا يحمل شيئًا يُذكَر من آثار العِناد الطفوليِّ للفتوَّات، كأنّ صورة الرِّجال الأشدَّاء النبلاء الذين انتصبوا من أجل صاحبهم لم تتلطَّخ بالأمس، اللَّهم إلَّا بما لم يهتمّ به عاصم حتّى لا يراه، ما على الحَواف من نقاطٍ سوداء صغيرةٍ جدًّا، مثل وَنِيم الذُّباب.

وخرج الذينَ استيقظوا إلى المسجد البسيطِ المقارب للحَوْش، بينما لم يستطع بعض الرِّجال مقاومة النَّوم العميق بعد مسيرة يوم كامل.

وامتلأ المسجدُ عن آخره بالمصلِّين، وكذا الباحةُ أمامه، وفي عيون النَّاس تقديرٌ عالٍ للخطيب. كان يبدو على الخطيب أنّه من رجال الأزْهر المعروفين، وينتمي لهذه القرية، ويعودُ إليها كلّ مدَّةٍ من القاهرة لزيارة الأهل، فيحُفُّه النَّاس بمظاهر التَّبجيل. وخطَب خُطبةً انتبَه لها عاصم وحسَّان جيِّدًا: (**خرج النبيُّ ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ إلى الطّائف ماشيًا على قدميْه ذهابًا وإيابًا، وهي على مسافةِ ستِّين ميلًا من مكَّة يا إخوتي، قطعَ هذه المسافة لله وحْده، وليس لمجدِ نفسه، هذه هي الخطوات التي يباركها الله، أيّ عزيمة تلكَ يا إخواننا!. وكان كلَّما مرَّ على قبيلةٍ في الطَّريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تُجِبه إليه واحدةٌ منها، فلمَّا انتهَى إلى الطَّائف عَمَد إلى ثلاثة إخوةٍ من رؤساء ثقيف، فجلسَ إليهم ودعاهم إلى**

الله، فرفضوا جميعًا، وأقامَ بين أهل الطَّائف عشرةَ أيّام يدعو فيها أهلَ البلد حتّى قالوا له جميعًا: اخرجْ من بلادنا. وأغْروا به السُّفهاء، ولمّا أراد الخروجَ تبِعه سفهاؤهم وعبيدُهم يسبُّونه ويصيحون به، واصطفُّوا في صفَّيْن وجعلوا يرمونَه بالحجارة وبمُنكَر الشَّتائم، واختضبَ نعلاه بالدِّماء. هاتان القدمان اللَّتان مشيتا في سبيل الله أُدمِيتا بعد أنْ أُجهِدتا في السَّير، ولم تزل به السُّفهاء حتّى ألجؤوه لحائطٍ على ثلاثة أميالٍ من الطَّائف، فرَجَعوا عنه، واستظلَّ هو إلى شجرة عنبٍ ودعا ربَّه. (وبدا على صوتِ الخطيب التأثُّر البالغ)، وهذا هو دعاءُ الحبيب- صلَّى الله عليه وسلَّم- إلى ربِّه في هذه المحنة: (**اللهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّة حِيْلَتِي، وَهَوانِي عَلَى النَّاسِ، أنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ ربُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِيْ. أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهكَ الكَرِيمِ الذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ العُتْبَى حتّى تَرْضَى، وَلا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلا بِكَ**).

ورجَع الرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- في طريق مكَّة بعد خروجه من الحائط محزونًا كسير القلب، فلمَّا بلغ قرنَ المنازل بعثَ اللهُ إليه جبريل وملكَ الجبال، وقال له جبريل: إنّ الله قد سمع قول قومك لكَ كما ردُّوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم، ثمّ ناداه ملك الجبال، فسلَّم عليه، ثمّ قال: يا محمَّد، إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك ربُّك لتأمرني بما شئتَ إن شئتَ أنْ أطبق عليهم الأخشبيْن- والأخشبان يا أخوة هما جبلا مكَّة المحيطان بها- فقال النبيُّ- صلى الله عليه وسلم-: (**أرجو أن يُخرِج الله مِن أصلابهم مَن يعبُد الله وحده لا يشرِك به شيئًا**).

في هذه الأثناء، كان حسَّان يتفرَّس في وجْه عاصم؛ ليرَى وَقْع الخُطبة عليه. وكان الخطيب يمدَح في الرَّسول ﷺ حلمَه وعفوَه وصبرَه على الأذَى وإرادته ورحمته وأمله، ويمدَح خُطُواته التي كانت من أجل الله وحده، ويذكِّر المصلِّين بأنّ الله مطَّلع على خُطُواتهم في هذه الدُّنيا ومحاسبهم عليها، وأنّ مَن يمشي في الخير ليس كالذي يدبُّ في الشَّرِّ. وكان وجهُ عاصم على أشدّ حمرته انفعالاً حينما كان الخطيب يذكِّرهم بما لاقاه الرَّسول من عنتٍ وإيلام وسُخْريَة.

لمَّا انتهت الصَّلاة وانفضَّ المصلُّون، بعد أنِ اقترب كثيرٌ منهم، وسلَّموا على الشَّيخ، وألحُّوا عليه متتابعين في ضيافةٍ على الغداء اليوم، ولم يتبقّ سوى عاصم وحسَّان، والخطيب بجانب المحراب يشرب من قُلَّة ماءٍ، اقترب منه عاصم، وتبِعه حسَّان كظلِّه.

ابتسم لهما الشَّيخ:

ـ بل أنتما ضيفاي اليوم على الغداء.

ـ بارك الله فيك.

ـ مرحبًا بضَيْفينا.. من القاهرة، إن صدقتْ فراستي.

ـ مرحبًا بك.

فقال حسَّان: يبدو يا سيدنا الشَّيخ أنكَ لم تأتِ إلى هنا منذ فترةٍ.

ـ إن كنت تقصدُ البلد فاللّهم لا.. أنا آتي كلّ حينٍ.. لكنّني لم أخطُب في هذا المسجد الصَّغير منذ سنتيْن، وقد طلب منِّي الجماعة أهلُ هذه النَّاحية من البلد أن أخطُب فيه هذه المرَّة، عِوَضًا عن الجامع الكبير. ومن حُسن حظِّي أن أراكما.

فأطرقا حياءً من تواضع الشَّيخ الذي تأكَّدا أنّه بالفعل من كبار رجالات الأزهر بعد أنْ سأله حَسَّان عن اسمه فعرفه، وهشَّ إليه كما يهُشُّ طلبة العلم إلى العلماء.

توتَّر عاصم وأخذَ يحكُّ باطن كفِّه في الحَصَى الصَّغير الذي يفرش أرض المسجد، ومال بوجهه عن الضَّوء الذي غمره من الكُوَّة. وقال للشيخ:

ـ لماذا تعرَّض النَّبيُّ لكلّ هذا الألم؟

ـ هذا قدَره، وقدَر كلّ الأنبياء.

ـ وغير الأنبياء أحيانًا، غير أنَّهم بلا تعزية.

ـ كلّ مَن سأل الله وجد التَّعزية، إنها ليست للأنبياء فقط.

ـ ونبيُّ الله، ألم تخضَع له جزيرة العرب كلّها؟

ـ بلَى.

فقال وهو يضغَط على شفته السُّفلَى، ويقبِض يده كمن سَيلكُم آخر:

ـ ألم يفرُغ لهؤلاء الذين أدموا قدميه وسبُّوه؟

فضحِك الشَّيخ: لا.. لا بالطَّبع. هذا لا يشغَل بالَ الكبار. ملاحقة السُّفهاء جديرةٌ بسفيهٍ.. إنما هذا نبي الله!، كان كبيرًا لدرجة أنّه ﷺ لم ينتصرْ لنفسه من مظلمةٍ يومًا قطُّ!

ـ وماذا يفعل الإنسانُ إذا كانت تحُكُّه جروحه كلّ حينٍ؟

ـ لا يحكّ جروحه.

ـ والألمُ لا يموت، بل يتقيَّح الجرح ويلتهب، ولا مفرّ من حكِّه.

ـ الألمُ يموت.. إنْ أردتَّ. أو بموتكَ يموت.. والأفضل ألَّا ترافقنا آلامُنا حتّى باب المقبرة.. اغفرْ للنَّاس ما تستطيعُ من الجهالة.. ليس من أجلهم بل مِن أجل الله، العفُوُّ الكريم الذي

يُحِبُّ العَفْو، ثمّ من أجل نفسِكَ؛ فليس من الحكمة أنْ تجبرك جيرةُ السَّوْء في الأرض أنْ تفكّر فيهم للأبد.

- النَّاس!.. أتعرف أنّ هؤلاء النَّاس عجبٌ.. لي زمن وأنا أذبحُ مع مطلعِ هلال كلّ شهرٍ عجلًا للمَساكين.. وتسمَع عندي ضجَّةً عظيمةً.. يتزاحمون عندي ويتصايحون، ولولا رجالي حولي لأُوقِعتُ أرضًا في تدافعهم. كلٌّ ينادي: وأنا.. وأنا.. وأنا، ولم أجد أبدًا مَن قال: وهذا.. وهذا.. وهذا، ولو شخصًا أخذ لِفافته. وحوشٌ هم حتّى في بؤسهم!
- فاحمدِ الله أنّك تَعطي ولا تُعطَى.
- أحيانًا ما أكون متسامحًا جِدًّا وودودًا، أمشي في الجِيرة أُوزِّع الحلوَى على الأطفال في الشَّارع، وأعود مرضَى يعرِفونني من صِيتي ولا أعرفهم، ويفرحون لهذا جِدًّا، وأشعُر أنِّي خفيفٌ على الأرض. ويأتيني شابٌّ بسيطٌ بالكاد أعرِفه يطلب منّي أن أذهب معه لخِطبَة فتاةٍ، لأنه يحتاج إلى رجلٍ يُعجَب به أهل العروس، فأذهبُ منشرحَ الصَّدر، وأعطيه قدْرَه أمامهم، فأرَى فرحةً في عينيه فأفرح لها فوق الوصف، وأشعر أنّي خفيفٌ على الأرض.

يبتسم الشَّيخ: حسنًا.

يعبِس عاصم: وأحيانًا ما أستيقظُ على مزاج عكر. أتذكَّر حتّى هؤلاء الذين اصطدموا بي في الطَّريق ولم يعتذروا؛ لأنّهم الأجلاف لا يرونَ للاعتذار قيمةً إلَّا في حالِ الخوف، وهؤلاء الذين ألحُّوا في مُساومتهم على أسْعار البِضاعة حتّى أنفذتها لهم بما رضوا به خلاصًا من إلحاحهم، رغم أنّهم لا يقبلون المساومة عندما يبيعون، وأتذكَّر طفلًا اسْتضعفني في طفولتي وأذعنتُ له خوفًا، ثمّ إني نسيتُ إسرافه معي وتعاطفتُ معه عندما

انكسرتْ نفسُه، فنظر لي مستغربًا كأنَّما كان يجب أنْ أشارك في انتهاشِه. أتمنَّى أن أجمعَهم كلّهم صفًّا واحدًا، وأنزل عليهم ضربًا بالمَركوب.

- إنَّ هذا كفيلٌ بأن يجعل لكَ جيشًا من الخصوم يعشِّشون في الذَّاكرة، فتُبلَى بصُداعٍ أبديٍّ، بينما هم يعيشونَ على الأرض ببراءةٍ، متناسين قصَّتكَ، وغير معتذرين عمَّا أساؤوا.
- هذا ليس عدلًا.
- إنّه الواقع.. عليك أنْ تقبل كون الدُّنيا بها أنواعٌ بطَّالةٌ من البشر: من السَّخيفين، من الطَّمَّاعين، من الأجلاف وضيِّقي الأفق.
- يا ليتها رَسَتْ على ذلك.. لهانتْ.. في حياتي قصَّةٌ أكبر من سخيفةٍ.. وخصومٌ ليسوا ببعيدٍ.
- خصومك ها هنا (**وأشار إلى رأسه**)، خصومكَ أفكاركَ.

يتدخَّل حسَّان معضِّدًا: قلتُ له ذلك مرارًا. ولعلّها تثمُر النَّصيحة إن جاءتْ من فم عالم مثلكَ!.

يربِّت الشَّيخُ على كَتِف عاصم.

- أعرف بقدومكم في خيَّالةٍ كثير، ونزلتم الحَوْش. ولا ريب أنّك أنتَ طالب ثأرٍ. ارجعْ يا ولدي عن طريقِك، لعلّ الله أسمعَكَ اليومَ على لساني ما يحبِّب إليك الصُّلحَ مع مطلوبيكَ. صدِّقني: أنا لم أُصَلِّ هنا منذُ سنتين، وأنتَ ربما لم تنزِل هذه النَّاحية أبدًا، لعلّ الله قد وضَعني في الطَّريق.
- لقد وضع اللهُ في طريقي عدَّة الحرب، وأنا قد قطعتُ أغلب الطَّريق.

- وضعَ في طريقك هذا الصاحبَ أيضًا، اسمعني جيدًا، إنْ كانت لكَ مَظلمةٌ عند عائلة، دعني أتدخَّل وأهل الخير، ونردُّ لكَ مظلِمتكَ وتأخذُ حقَّكَ كاملًا غير منقوصٍ وغير زائد، بدلًا من هذا النَّفير معك الذي يردُّ الصَّاع صاعيْن. واعلمْ بأنّه لو قطع رجلٌ من رجالكَ شتلةً بغير حقٍّ، فستُسأل أنت عنها أمام الله، فما بالُك بالدَّم؟! مالَكَ وللدَّم؟!. مالَكَ وللدَّم؟!

اضْطَرب عاصم هنيهةً من فكرةِ الحساب، ثمّ تماسَك. بينما كان وجهُ حسَّان قد استنار لمَّا سمع عرض الشَّيخ، وأخذ ينظُرُ لصاحبه متحنِّنًا، بينما جالَ عاصم بين أعينهما، ثمّ قامَ بعد أنِ ادَّعَى أنه سيفكر في نهارِه في هذا في الأمر، وأسرعَ إلى باب المسجد؛ قبل أنْ يضغَطا عليه فيجد نفسَه بعد يومٍ واحدٍ محاطًا بلفيفٍ من الأعيان وشيوخِ العرب وقضاةِ العرف سيستدعيهم العالمُ الجليل، ولنْ يحتاج إلى أكثر من يومٍ واحد.

وحسَّان قامَ هو والشَّيخ العالِم يتكلَّمان واقفيْن في صحن المسجد، وأشارَ لصاحبه بأن ينتظر قليلًا. فخرج عاصم وتوقَّف أمامَ الباب ينظرُ لمعالم البلد وهو يستندُ إلى شجرةٍ، بينما أخذ حسَّان يحكي للعالِم بتأثُّرٍ شديد.

وقد استبطأهما عاصمُ بعد وقتٍ طويل، فالتفتَ ليجدَ العالِم وقد تغيَّر وجهًا كأنّه يسمَع عجبًا، فارتاح عاصمُ لكَوْن قصَّته قد أثارتِ الشَّيخ لهذه الدَّرجة، مما يعني أنّه يلتمس له العُذْر الآن لو راح وانتقم، بل وفكَّر في أنْ يدخل إليهما ليقول للشَّيخ بعينيه إنْ لم يكنْ بلسانه: هل عذَرتني الآن؟!

والتفتَ بعد مدَّةٍ ليرَى العالِم يربِّت على كَتف حسَّان مواسيًا، ويهزُّ رأسه متعاطفًا. فتعجَّب عاصم، وانزوَى في رُكْنٍ، وهو يشعُر برغبةٍ في الاحتجاج؛ فهو أولَى بهذا التَّربيت دون صاحبه. ثمّ إنهما خرجا من

المسجد، فأقبل العالِم على عاصم وناشده بأنْ ينتظر ليلَه هنا في القرية لأنّه يريد أن يتحدَّث معه في أمرٍ مهِمٍّ جِدًّا، وأنّه لوْلا اضطراره لتلبيةِ دعوة العُمْدَة للغداء الآنَ لتحدَّث إليه في وقتهما هذا، فأوكل عاصم الأمرَ لمشيئة الله، فظنَّها العالِم موافقةً صريحة، وكذلك فهِمها حسَّان الذي انضمَّ إليهما عندما قال عاصم: إن شاء الله.

وعندما سارا بعيدًا عن الشَّيخ في اتّجاه الحَوْش، قال حسَّان في دَعَةٍ ومداعبة ـ وكأنّما قد انقشعتِ الغمامة التي أظلَّتْ عمرًا ـ وهو يضرِب بمَرفِقه جَنْب عاصم:

ـ كدتَ تنفتح في حديث النَّاس وما آسفوكَ مثلما تنفتِح مع أمِّي.

ابتسمَ عاصم: شيءٌ خفيفٌ يُصلح الحديثَ يا رجل. لكني لم أُطِل.

ـ انتهينا يا عاصم؟

فقال بهدوء: لمْ ننتهِ، ولم أعد الشَّيخ بشيءٍ.

فقال مصدومًا وعلى وجهه حطامُ ابتسامة: هو قادمٌ إليكَ مساء اليوم.

ـ سنرحلُ قبل هذا. قلتُ له: إنْ شاء الله؛ تأدُّبًا لا أكثر، ولا تفكر بأنْ تعود إليه لتخبره بهذا، لا فائدة، أنا ذاهبٌ لا محالة.

ـ يا بن النَّاس، ولكنّه يريدك لأمرٍ مهِمٍّ، اسمعْ له أوَّلًا.

ـ لا جديد عنده.. رأيتكما تقفانِ كطبيبيْن في مشاورةٍ في صحَّة مريض. لا تعوِّل كثيرًا على الشَّيخ، لغتُكما واحدةٌ، وأنا أعرفُ منطقكَ منذُ زمن، وليس لديَّ رغبةٌ في أن أسمع منه مكرَّرًا.

فقال بكلِّ الرَّجاء: أُقسِم لكَ بأنّه يريدك لأمر مهِمٍّ، ولنْ يُسمِعكَ مكرورَ الكلام.

ـ أُقسِم لكَ بأنِّي على استعدادٍ لسماعِه بعدَ الفراغ مِن هذه الحملة حتّى يملّ.

وتغيَّر وجهُ حسَّان، بينما أكمل عاصم: يبدو أنّك أسهبتَ أمامَ العالِم في بَسْط جُهودكَ معي لإقناعي طيلةَ السِّنين الماضية، فحزتَ إعجابه، بل وإشفاقَه أيضًا. ولعلّك حكيتَ له عن صاحبكَ الذي ابتُليتَ به غريب الأطوار الذي سيتوحَّش، وكذلك قصّة سيِّد وجمعة.. أليس كذلك؟

ولم يردَّ عليه حسَّان. وعادَا للجمع الذي التمَّ، وقد عاد مُصلِّيـهم واستيقظَ نائمهم. وضاق حسَّان بصاحبه، وتحوَّلتْ نظراتُ عطفه إلى نظراتِ حَنَق، وكلمات رجائه صارت صمتًا مريرًا. وتعجَّب عاصم مِن صاحبه الذي يقتحمُه بعينيه على غير العادة، وقد بدا في ضُعْفه قوَّة. ووضع رأسه ليقِيل حتّى لا يرَى هذا الغضبَ والاحتجاج المكتوم في عيني صاحبِه الحليم الذي نفِدَ صبره، وهو يشعُر بندم على أن اتَّهمه بإفشاء أسراره.

وقد أخرجَ حسَّان دفترًا ودواة، فيمَا قام الرِّجال، وأحضروا قِدرًا كبيرةً من الفخَّار وجمعوا جفيف الحطب، ووضعوا الماءَ والملحَ والبصلَ والفول النَّابت، وأشعلوا النَّار تحت القِدر، وأكلوا وجبةً خفيفةً قبل المعركة. وجماعةٌ منهم أخرجوا من رحالهم النّارَجيلات النُّحاسية الصغيرة وضمُّوا أجزاءها ودخنوا (**التُّمْباك**)، وتنشَّق مَن يتنشَّق، وتمضَّغ مَن يتمضَّغ، حتّى مرَّتْ ساعة. وفي تمامها وضع حسَّان الرّمل على الورقة الأخيرة مِن خطابه الذي كتبَه إلى صاحبه ليمتصَّ فضلةَ الحبر. عندما استيقظ عاصم كان الرِّجال أيضًا قد علَفوا خيولهم علفةً خفيفة، واطمأنُّوا لحاجاتهم وأطفئوا بقايا النَّار في رمادِ الحطب، ووضعوا في الحَوْش ما لا حاجةَ لحمله معهُم في الغارة، وتقنَّعوا وجوه الجدِّ.

وقد أخبر حسَّان صاحبَه أنّه مجهدٌ جدًّا ولا يقوَى على المسير، وأنه لا يحبُّ أن يكون هناك في تلك اللَّحظات الأخيرة. وقدَّم له الخطاب وقد وضعَه في حافظةٍ رقيقةٍ من الجلد، وطلب منه أنْ يقرأ المعلم (**إبراهيم**)

هذا الخطابَ له قبيل أوانِ الهجوم. وتعجَّب عاصم، ولكنّه تقبَّل ما أراده صاحبه، ورجاه أنْ يرتاحَ في الحَوْش حتّى يعودوا إليه سالمين.

ثمَّ أتبع حسَّان ذلك بأنْ أعطاه عُلبةً من نُحاسٍ لطيفةَ المنظر، عليها شغلٌ فاتنٌ، وطلب أيضًا أَلَّا يفضَّها الآن، بل يُرِيها لسعد إنْ أمكن، وتعجَّب عاصم ثانيةً وسأله:

- ألعلّ الشَّيخ له في (**النِّيرنجات**) والأعمال، درسها في الكتب القديمة عنده؟

وما كان جوابه إلَّا ابتسامةً ذابلةً من الألم، والعينان نصف مُغمَضَتين. وأكمل عاصم كلامه:

- يبدو أنّك عرفتَ بأمرِ خروجنا من قبْل أن يرحل الفُتُوَّات من بيتي بعد المأدبة، أليس كذلك؟

تجاوز حسَّان السُّؤال، ورجاه كلّ الرَّجاء أَلَّا يهمل أمرَ الخطاب ولا أمرَ العُلبة، وأن يحترس إلى العُلبة لأن ما بها هَشٌّ، فردَّ عليه عاصم بأنّ ما بها هَشٌّ مثل صاحبها. وذكَّره حسَّان بيدٍ له عنده حتّى لا ينسَى رجاءه، فضحِكا بعد أنْ قال له: اذكرْ يدًا لي عندك يومَ أنقذتني من الغرق.

ضَحِكا ضحكًا بدَّد مِن هذه الغيمة في سماء صداقتهما.

وتحرَّك الرَّكْب ينهبونَ المسافة المتبقِّية، ووراءهم حسَّان ينظُر إليهم مسندًا إلى بوَّابة الحَوْش باديًا عليه الإجهادُ والحسرة في وجهه الدَّقيق؛ تحرَّكوا بسرعةٍ قصوَى، بعد أنْ أفهموا عاصمًا أنَّه إذا لم يكن بمقدورهم مباغتة النَّاس قبل المساء بوقتٍ كاف، فعليهم تأجيل الغارةِ لليوم الثَّاني؛ لأنّ اللَّيل لصالح أهل الوادي الذين يعرِفون مداخله ومخارجَه وحَصينه

ومجروحَه، فسيكونون فيه كالقطط، بينما اللَّيل للغرباء عَمايةٌ ومعثرة. فاختار عاصم التَّحرُّك وقتها؛ حتّى يتخلَّص من مواعدةِ العالم الأزهريِّ؛ ولينفذ من إلحاح صاحبه.

وتحرَّك مشغولًا بما هو ذاهبٌ إليه، ومشغولًا نوعًا ما بهذا الإرهاقِ العظيم الذي تبدَّى على وجه صاحبه المخلَّف لمَّا يئس من إقناعه، بعد أنْ ضيء وجهًا لمَّا اعتمدَ على العالِم، ومستاءً نوعًا ما لأنْ يضطرَّ لترك صاحبِه وحده وهو في هذه الحالةِ مِن الإعياء، ومستاءً لكوْنه نسِيَ ـ أو ضنَّ ـ أنْ يترك معه واحدًا من الرِّجال يرعاه حتّى يعودوا إليه، لكنّ النَّجع كان شغله الشَّاغل.

وبعدَ السَّاعة أو يزيد، من ركض بسرعةٍ قصوَى، بين مناطق زراعيَّةٍ، يليها برٌّ، ومناطق تختلف فيها الزِّراعة والخلاء، هذه خلف ذاك، كُفورٌ ريفيَّةٌ فقفارٌ فنُجُوع عرب، وخلفهم عَفَرةٌ ضخمةٌ كأنها تطاردهم، بخيلٍ جرتْ بأقصى سرعتها، وقلوبٌ قد أحمتها قَرَشة الحوافر على الأرض، قطعَ الرَّكب المسافة المتبقِّية كلّها في وقتٍ قليلٍ؛ مخافة أنْ يصلوا بعد العصر. فيما كان حسَّان في النَّاحية الأخرَى يبلِّغ الشَّيخ خبر استئناف المسيرةِ بعد أنْ صلَّى خلفَه العصر، فاصفرَّ وجهُ العالِم، وظنَّ أنّما فُتِن إذ يترك الشَّاب الثَّائر الذَّاهب ليصنعَ مَقتَلَةً ليتغدَّى عند العمدة، وأخذ يستغفرُ ربّه.

والرِّجال هدؤوا ومشوا الهُوَينَى، عندما وصلوا أخيرًا إلى ذاك الرِّيف المجاور، وإلى التّرعة قريبًا من البلدة ومن القُرَى أسفل منها.

انتبهَ عاصم للفسائلِ التي استطالتْ كما قال له صاحبُه، ولبعض البيوت الطِّينيَّة التي لم يرها من قبل، وانتبهَ لضجَّة الأطفالِ في الترعة الذين يرُشُّون بعضَهم بعضًا بالماء، وبعضهم يصطاد بالصِّنارات.

نعمْ يا حسَّان، وجدتُّ أطفالًا لم يشاركوا في هذا ولا يعرفونه، غير أنَّ سراويلهم الدَّاخليَّة التي يسبحون بها ضاحكين في هذا الجوِّ الجميل ذكَّرتني بأنّي طُردتُ وأمِّي من بلدةٍ هنا بلباسٍ مثل لباسهم في عزِّ الشِّتاء، يعلوني الخِزي والشُّعور بالمهانة، ومتى؟!: في طزاجة يتمي، وطزاجة ترمُّلها.

ومرَّ على مدخل المرعَى، ورمَى نظرةً فلاحظَ امرأةً ترعَى بعيدًا على وجهها قناع نساء البادية، لا تعرف شيئًا عن الويْل الزَّاحف للوادي، وسمعها تسُوس، وصوتها يأتيه خافتًا جدًّا كأنّه الهمس في أذنيه.

- **(تِس تِس.. تعا.. تعا.. تعا.. تعا)**

فتمتم: جئتُ.. جئتُ.

وأشارَ لأصحابه باقترابِ البلد، حتّى وصلوا للمطلع بعد قليلٍ.

واتَّخذوا المطلعَ متلطِّفين وحذِرين يتلفَّتون، ولكنّها كانتْ ساعة عصرٍ هادئة الحركة، فلا صاعد قد اجتازهم ولا نازل مرَّ بهم. ونظرَ عاصم حوله يراجع المعالمَ البسيطة الطَّبيعيَّة كما حفِظتها ذاكرته، من كثبانٍ ووديانٍ ونخيلاتٍ ميِّتةٍ متفرِّقةٍ دفَنتِ الرِّمال من جذوعها. وتعجَّب من هذه المصطَبَة الكئيبة على يمينِ المطلع التي حلَّتْ محلَّ الحجرة الكئيبة أيضًا التي كانت هناك.

وبعدَ قليلٍ من المشي بالخيل، ها هوَ أخيرًا أمامَ عينيه هذا الكثيب، والذي يتفرَّع طريق المطلع قبله إلى فرعيْن على جانبيه: أحدهما يمين المطلع، ينزِل وينضمُّ إلى الدَّرب المؤدِّي من وادي مفلح إلى محَلَّة هارون بعيدًا، وهو الدَّرب الذي غادرَ منه هو وأمُّه، ومعهما الشَّيخ عثمان، والآخر ينزِل إلى وادي مفلح.

ومشَى هو ورجالُه بين الفرعين ليكونوا خلفَ الكثيب تمامًا. وعندما كانوا على مَقرُبةٍ منه لم يكن رجاله مصدِّقين أنّ هناك حياةً كاملةً صاخبةً يراها النَّاظر من جانبيه، وأنَّ قصَّة عاصم الكبرَى كلّها في هذه البقعة المختفية عن أنظار العالمين.

ووصلوا أخيرًا تحتَه، وكمَنوا هناك. فنظرَ عاصم للكثيب المنتصِب فوقه برهبةٍ، برهبةٍ من هذا الذي لم يرَه منذُ ثلاثين عامًا، وكان على ثقةٍ من أنّه لن يتغيَّر وسيجده مكانه، رهبةٌ من بوَّابةٍ إلى الماضي بحُلوِه ومُرِّه. ثمّ أخرج عباءة الشَّيخ عثمان ولبسها بعنايةٍ وتقديرٍ كما يرتدي العريس ثياب عُرسه.

الفصلُ الخامسُ عَشَر

وبدأ بعضهم بحذرٍ يطلُّ من الجانب الأيسر للكثيب على وادي مفلح تحتهم. ونادوا عليه ليطَّلع، فأُعضِلتْ ساقُه قليلًا، وشَعَر بجفافِ حَلْقه، وبرغبةٍ عارمةٍ في شربِ الماء. ثمّ تغلَّب على العَضل وعلى العطش، وتقدَّم واقترب. ونظرَ من جانب الكثيب إلى النَّجع، للمكان..لم يره منذ ثلاثين عامًا، يضطربُ فؤاده، تنبعثُ صورُ الماضي حيَّةً واضحة، ينظر للسَّاحة، كلُّ شيءٍ حاضرٌ: عويل أمِّه ونظرات الدَّهشة في عينيها، وهجومُ إخوته عليها في السَّاحة، وقذفُه الطُّوب عليهم، كلّ شيءٍ حاضرٌ، حتّى الغبرةُ التي أثارتها المشاجرة في قلب السَّاحة، وفزعُ الماعز السَّابلة، وقفزُ وقرقرةُ الدَّجاج لمَّا تراجع هو وأمُّه مِن إخوته، وازدحامُ النَّاس حولهم متفرِّجين، وصوتُ نحيبهما.

امتقعَ وجهه، وتمتم..

- يومُكم طينٌ يا آل مفلح.

ينظرُ أمامَه للمعصرة، يذكر ضحكَه الطُّفوليَّ مع أبيه داخلها، ورجيعُ الضَّحكات يتردَّد في جوِّ المعصرة عالية السَّقف، وجَرْي أبيه خلفه وهو يهدِّده ضاحكا؛ لأنّه كان ينخس البغل الصَّبور بعودٍ في يده، حتّى شَحَج

محتجًّا. يبتسم للذِّكرَى حتّى لاحظَ مَن حوله ابتسامتَه العذبة، ثمّ تموت البسمة عندما تذكَّر موتَ هذا الأب، وتذكَّر تلك اللحظاتِ القابضة التي اقتحمتْ فيها الريحُ الحجرة، ولعبت باللهب، وبظلِّهما على الحائط فتمتم مجدَّدًا: يومُكم طين.

أخذوه مِن يده وهو يرتعش من الغضب.

- شاهدتني وأمِّي هناك (**وأشار في اتِّجاه السَّاحة، ثمّ أخذ يدقُّ بيديه على جانبي رأسه**)

- يا رجل، وحِّد الله.. عيبٌ عليك.

ورشُّوا وجهَه بالماء، وأعطوه زَمزميَّة، وشرِب الماء الكثير، وشَعَر بأنّ حَلْقه وفمَه مازالا جافَّين وبهما مرارةٌ، فتناول قطعًا من (**سُكَّر النبات**)، فهَدَأ قليلًا.

وجلسَ حوله الكِبار، وعرضوا على إبراهيم أنْ يضع خُطَّة، بعد أنْ قالوا له: هذا يومكَ. هذا يومٌ لا يشبه ما نعرفه من أيَّام المعارك.

فأطرق، وأخذّ يفكِّر طويلًا، ويعصِر جبهتَه بأصابعه، ثمّ يلعب في شاربه، ثمّ يعصِر جبهته. وقد احمرَّ وجهُه من وَطأة الورطة، حتّى قلِق الملتفُّون حوله. فأدركه حيدر وقال له:

- الميدان ضيِّقٌ، وأقلّ مِن أن تستفيد مما عندكَ فيه، أليس كذلك؟

- نعم، نعم، ضيِّقٌ جِدًّا (**وزفرَ زفرة ناج**).

وتشاوروا. وقدَّم حيدر حذرَه لهم قبل أنْ يقدِّم خطَّته، حذَّرهم من أنْ يجلبوا على هلال البيوت بخيلهم، فيحدث ارتباكٌ، وتُؤتَى الخيلُ مِن ظهورِها، خاصَّةً وأنّ بالنَّجع سلاحًا كثيفًا كما عرَّفهم عاصم، وقال وهو يخطِّط بأصبعه على الرَّمل، وحوله كِبار الرِّجال مقدِّمًا خطَّته:

ـ كما ترون: البيوت كثيرةٌ، وعلى شكل هلالٍ، فلا يمكن التَّحكُّم فيها كبيوتٍ على شكل سطورٍ متتالية، وحول النَّجع زراعاتٌ كثيفةٌ وبساتين، فإذا ما دخلنا على سُرَّة هذا الهلال حيث بيت أبيكَ يا سيِّد عاصم، إمَّا انسحبَ النَّاس إلى الزِّراعات ومعهم أسلحتهم، ودارت معركةٌ لن نخرج منها سالمين، وكلّما تراجعنا للخلف تجاه هذا الجبل (**مشيرًا للكثيب**) أمْطرونا بالبارود، هذا أو أنّهم تترَّسوا في بيوتهم وكانوا هُم المحيطين بنا بطوق الهلال، فأمطرونا من فوق السُّطوح، فنتخبَّط مذعورين بين الطُّرقات، بينما يسقطُ بعضنا قتلَى. هكذا لنْ نكون قد استفدنا شيئًا من المباغتة، سيستعيدون عزمهم وأعصابهم بعد قليلٍ، فتكون الغَلَبَة لهم، والوقتُ بعدها لصالحهم. إنَّما أَرَى أنْ نشعلَ النَّار في هذه المعصرة بالنَّفْط، فيخرج النَّاس لإطفائها كلّهم، ولن يتغيَّب إلَّا النِّساء والصِّبيان والشُّيوخ، فخرجنا عليهم من جانبي هذا الجبل كجناحي صقرٍ سيصطفقان، وهُم عراةُ اليد، ولا فأس ولا منجل، ولن يفعلوا إذًا أيّ محاولةٍ لدفعنا، ثمّ إذا ما كان هناك رجالٌ منهم في البساتينِ أو البيوتِ لم يُهرَعوا إلى الحريق، فإنّهم لن يتمكّنوا من محاربتنا بالبارود ولا بغيره؛ لأنَّنا أسرنا أهلَهم الذين اندفعوا للحريق كلّهم، فشُلَّتْ أيديهم عنَّا. إذن نجمعُهم بالنَّار، هكذا نصطادهم، كما يُرمَى الحبُّ للسّمَّان في فناء الدَّار فيهبط إليه فتُرمَى عليه شبكةٌ واحدة.

واستحسنوا جميعًا خطَّة حيدر التي كان يرسمها بأصبعه على الرَّمل، واستحسنَها عاصم أيضًا. وأخبرهم عاصمُ أنّه بخلاف امتلاء السَّطح بالخشب كما رأَوا، فإنّ جزءًا من أرضيَّته خشبيٌّ أيضًا، وتحت السَّقف

عُليةٌ خشبيَّةٌ مخصَّصةٌ لتخزين الزَّيت في جرار، وعليه.. فالنَّار ستنقضُّ لا محالة على جَوْف المعصرة.

وبدؤوا بعدَها يتكلَّمون في دقائقِ الخطَّة بهدوءٍ شديد، وأفرزوا رجالَ الجناحين، وما يمكن قوله لكسر عزْمِهم بعد الإحاطةِ بهم، وكيف أنّ البدو رجالٌ ضيِّقو الصُّدور حارُّو الدِّماء، فلا يجب تيئيسهم في البَدْء لكي لا يندفعوا، فيجبُ إعلانهم أنّنا جئنا ولنا حقٌّ لنأخذه، وسنأخذه، ونمضي. وكيف أنه يجبُ تهديدهم بالإهانة إذا ما علا صوتُ أحدهم وحاولَ إحماء النَّاس، أو حاول أنْ يصنع محمَدةً له تُذكَر لسنين؛ لأنّ البدو يخشون على كرامتهم أكثرَ ممّا يخشون على أجسامهم. وهكذا أخذوا يفرِغون ما لديْهم من خبراتٍ أمامه وهو معجبٌ ومنزعجٌ في آنٍ واحد، كطفلٍ سُلِّم إلى يد الطَّبيب يتفحَّصه ببرودٍ بينما أبواه واقفان.

أدري أنّه الطَّبيب العارف، لكنْ ما بال يديه باردتين تقلِّبانني؟!

إنّ الأمر بعيدُ الصّلة بحرارة غضبه، وبالصّدمة التي تلقَّتها أُمُّه، الأمرُ في يد خبراء يضعون عليه من علومِهِم، الأمرُ يُسحَب مِن يده، ليخرج ممّا ظنَّه فقط الغريزة والملابسات وحُكم مسرح الأحداث، حتّى أنّهم عندما أصرُّوا على سحبِ سلاحه قبل البدْء أذعن في آخرِ الأمر لما ارتأوا، فهو في رأيهم الذي عبَّروا عنه صراحةً: مِن الغمار الذين لا يَخْبرون العِراك، لذا قد تلتاثه لَوْثةً فيضرب رقابَ العُزَّل بلا رويَّةٍ، ثمّ يهدأ فيندم؛ رفض في البدء أنْ يجرَّد من سلاحه، إلَّا أنّهم أصرُّوا، وأعطاهم سلاحَه على مضضٍ بعينٍ معاتبة، وهو يقول: أهكذا الدَّم والملاحم؟!

سلَّموا قيادةَ الغارة إلى حيدر، الذي صفَّهم أربعةَ صفوفٍ متساويةٍ وموازيةٍ للكثيب، كلّ صفَّيْن منهم قد وجِّهتْ وجوه خيلهما إلى جانبٍ من جانبي الكثيب، ليخرُج من كلِّ ناحية صفٌّ من وراء صفٍّ، ليحقِّق خطَّة جناحي الصقر.

ثمَّ كلَّم رجلًا ماهرًا في رمي النَّار، فخرج وفتحَ الحظيرة الملاصقة للمعْصرة، وأخرج منها جملًا وسيَّبه، ورمَى زجاجتين من النَّفط على سطح المعْصرة بعد أنْ أشعل منهما الخِرقَة، وعاد مسرعًا. ولم يعد أحدٌ يشاهد الأحداث إلَّا عاصم وحيدر وإبراهيم في حذر.

اندلعتِ النَّار بعد قليل، واستمعوا حسيسَها، ثمّ تصاعدتْ إلى السَّماء بدخانها وزمزمتْ، وطقّطق الخشب. ثمّ أنصتوا إلى صوت خفيتٍ ومرهِب، مثل صوت الهياكل الضَّخمة في قلقلتها عندما تتزعزع أسسها.

وانهارتِ النَّار إلى العُلية الخشبيَّة فأكلتْها اجتياحًا، وانهالتْ إلى قلب المعصرة كجنِّيٍّ غاضبٍ؛ وبِدَويٍّ هائلٍ سقطتْ كُتَل الخشب وجرارُ الزَّيت فوق ميناء الرَّحَى وحوله، واتَّخذتِ النَّار ألوانًا زاعقةً شرِّيرةً تكاد تخطِفُ الأبصار. وانطلقتْ عندئذٍ صيحاتٌ من عندِ الدُّور ومِن فوق الأسطح: حريق.. حريق.. حريق.

وأخذتْ أبوابُ البيوت تُصدِر الرِّجال مندفعين، يُهرَعون إلى المعصرة في بلبلةٍ واضطرابٍ، وقد شدَّوا أطرافَ ثيابهم على جُنوبهم، حاملين معهم أواني ودِلاءً وقِرَبًا، وعاصم يمسح بلسانِه على شفتيه وهو ينظرُ إلى لسان السِّناج الصَّاعد للسَّماء، ويضحك من الهلع الذي سيطر على الرِّجال.

جرَى النَّاس، وعيونُهم على النَّار والسُّحب الدّاكنة الكبيرة التي تخرج للسَّماء، واندفعوا إلى حوض الماء القريب من المعصرة، وأخذوا يغترفون، وعملوا سلاسلَ تنقل الماء من يدٍ ليدٍ وتدلقه على الباب والنوافذ وحوائط المعصرة. وكانتِ النَّار تزداد غضبًا، والزَّيت المشتعل يسخَر منهم صاعدًا فوق الماء ومتزلِّجًا عليه في خفَّة شيطانٍ مجنون. والنَّاس في رعبٍ من هذا، ومن أنْ تحمل الرِّيح الشُّوَاظ والشَّرَر إلى المخازن المكدَّسة بالحبوب خلفَ المعصرة.

وصدرتْ أصوات غرغرةٍ متوعِّدةٌ من المخزن الدَّاخليِّ أرعبتِ المطفئين، من تلمُّظ وغَيْظ صفائح الزَّيت في المخزن المكدَّس وقد اشتدَّتْ حرارتها. وبدأتِ الصَّفائح تتحرَّك بالدَّاخل حركةً مجنونةً وتتقافز على الأرضيَّة وتحتكُّ ببعضها بعضًا كحبَّات ذرةٍ في مِقلاة، وتصدر نشنشةً تريد أن تتنفَّس. بينما الصَّفائح الفارغة في مخزنها أخذتْ تجري على الأرضيَّة الصَّخريَّة الزَّلِقة مصدرةً أصواتًا شئيمةً مثل زُقاء الطَّواويس.

ثمَّ انفجرتْ صفائحُ الزَّيت متتاليةً، وأخذتْ تقذفُ حممًا من الزَّيت المغليِّ تطرد المطفئين الفزعين إلى وراء. ويسيل الزَّيت المغليُّ على عتبةِ الباب والجدران تحت النَّوافذ كطفح البراكين، ورَشاشٌ منه يخرج كما مِن نافورةٍ يتطاير بعيدًا، وينزِل على الأرض فيقلي الرَّمل، ويحرق أوراقَ الأشجار القريبة. والرَّائحة لم تعدْ تطاق في جوِّ المطفئين حولَ المعصرة، فصار سعالهم أعلى من صياحهم.

وبعد قليلٍ، كانت النَّارُ قد التقمتْ كلَّ ما يصلُح للحرقِ داخل المعصرة، ولم يتبقّ إلَّا الجدران السَّميكة من الحجارة، والنَّوافذ الكبيرة والباب تعرَّتْ كلّها بلا مصاريع، وانطلقتْ منها موجاتٌ ساخنةٌ، ونفخاتٌ من دُخَان.

وها هو حجرُ الرَّحَى ينكشف لعاصم وصاحبيه المبهوتَين من خلال فرجةٍ في الدُّخَان، وقد تلطَّخ وجهه بالسُّخام، يسبح أسفلَه في ميناء الرَّحَى، في سوادٍ يهتزُّ على الماء من الفحم والزَّيت المحروق. وقد انشرخ صحنُ الزَّيت وأُنبوبُه، إذْ في هدوءٍ حزينٍ خرج منه ماءُ الإطفاء مسودًّا غليظًا من الزَّيت وهباء الفحم ودُرْدِيِّ الزَّيت المغليِّ، واتَّخذ مَسْربين دقيقَيْن على الأرض، وكأنّ تلك المعصرة التي احترقتْ، هي امرأةٌ بكتْ، فصبغ الكُحْل دموعها بالسَّواد.

في هذه اللَّحظات، أفاق الثَّلاثةُ على كلبٍ من كلاب النَّجع تسلَّل إلى خلف الكثيب وظهرَ على الكتيبة. وارتبكَ مَن رأوه، أمَّا هو فلعبتْ عيناه في مَحجِريهما وهو يشهَد حشدًا مرعبًا، ومستغرَبًا؛ أعجاز خيلٍ في جوار الصُّدور، ووجوه خيَّالةٍ من جنب أقفاءٍ، فصدَموا بصر المسكِّين. فجلس على أربع، ورفع ذيله يهزُّه، وتراجع بظهره زاحفًا، خائفًا معتذرًا متودِّدًا، حتّى اختَفَى عنهم.

فصعِد حيدر بضعَ خُطواتٍ أعلَى الكثيب وصرخ فيهم: هيَّا.. هيَّا. فانصبُّوا منحدرين بكلِّ عنفٍ من جانبين، حتّى انفردَ جناحا الصَّقر الطَّويلان، واصطفقا في لحظاتٍ خلف النَّاس المجهَدين الحزينين ضيِّقي الصُّدور من دُخان النَّار ورائحة الزَّيت. والنُّسوة يعلو صياحهنَّ من عند البيوت والأسطُح، وقد شاهدن المشهدَ بوضوحٍ من أوَّله، جُندٌ ما هنالك خُلِّق من رمل الكثيب!

انقفلتْ دائرةٌ واسعةٌ على المحاصَرين. في اللحظات الأولَى، ما خاف المحاصَرون من هذه الهجمة؛ فقد كان المشهد مشوَّشًا من خلف سحب الحريق الكثيفة ومن خلف ما أثارته الأقدام من غبارٍ، بدا الفرسان وخيلهم للأعين المرهقَة كالكائنات غريبة الشَّكل في أضغاثٍ الأحلام، أو كما تتبدَّى فجأةً، وبهدوءٍ، أعناق النُّوق للبادين في الأعراب تشقُّ ضباب الفجر، كأنها أرواحٌ هائمةٌ تمرُّ من الصَّحراء. ثمّ أفاق النَّاس من سَكْرة المشهد المفاجئ، وبدأ الغمام يتقشَّع والغبار يسكن، وهمْهم المحاصَرون، ثمّ تبلبلوا واضطربوا اضطرابًا شديدًا، وجرَى بعضٌ منهم بخطواتٍ قليلةٍ حائرةٍ يمينًا ويسارًا كالطَّرائد بحثًا عن فَوْتٍ؛ ولا فَوْت.

وسرعان ما دخل عاصم وحيدر لقلب الدَّائرة ومن خلفهم إبراهيم. وأفسَح المهاجمون للصِّبيان ونادوا عليهم ليخرجوا، فخرجوا وبدؤوا في رَشْقهم بالحجارة؛ الصِّبيان الذين تربُّوا على حكايات البطولة كانوا يقذِفون

بالحجارة ببسالةٍ غريبة، باكين رافضين لهذا الهوان والأسْر بهذه البساطة، حتّى أربكوا الخيل، فأمر حيدر الرِّجالَ الأسرَى بأن يصيحوا على أبنائهم وإلَّا ضربوهم، فانتهروهم حتّى سكتوا، وأشاروا لهم ليبتعدوا، فرجعوا باكين تلقاء البيوت والسَّاحة، يمسحون الدَّمع في أكمامهم ويبكون بحُرْقةٍ غير مصدِّقين.

وصاح حيدر بأعلَى صوته: جئنا نخلِّص حقًّا ونمشي، الأمرُ لن يدوم طويلًا، إذا ما هدأتم كان أحسنَ لكم، وإنْ ثرتم ثُرنا فذبَّحناكم، إذًا لا تستمعوا لأيّ طائشٍ فتحلّ بكم كارثةٌ. كونوا عاقلين.

ونظر سعد في هذه اللَّحظة بنظرةِ مَن تذكَّر منسيًّا إلى ناحية الكثيب، وكَتِفاه عُرْضَةٌ للتَّخبُّط من الرِّجال المضطربين الذين تدفعُهم الخيول أمامها من كلّ ناحيةٍ لتضيِّق الدَّائرة، وبحنجرةٍ مضطربةٍ وشفةٍ جافَّة، وأخذ يتمتم: عيدة!... عيدة!!

والفُتُوَّات ينادون فيهم لينضمُّوا لبعضهم بعضًا يحرجمونهم كما تُحرجَم الدّواب: هيَّا.. هيَّا.

ومازال يتمتم: جاءنا حِصانكِ!!

وبينما انفضَّ سعد من عيدة كان حيدر يهدِّدهم:

- العقوبة التي تنتظرُ أيّ بطلٍ هي أنْ سنسحَله بربطِه في حصانٍ، ونطوف به هذا البلد. وسنقف طويلًا أمامَ داره؛ لتراه امرأته ويراه بنوه في انبطاحه.. وهكذا نفعلُ بالأبطال.

وخيَّم الصَّمت لدقائق إلَّا مِن خَفيتِ الصَّوت المستغيثِ من قِبَل النِّساء بعيدًا. خمدتْ في هذه الدَّقائق بقايا النَّار تمامًا. وأيقنَ الأسرَى أنّ الحريق كان خطَّةً، وأنّهم ليسوا بإزاء خَصم هيِّن.

وبعد أنْ تيقَّن حيدر أنّ السَّيطرة تمَّتْ بنجاح باهر، مالَ إلى عاصم وأسلم القيادة إليه، ذلك بعد أنْ نبَّهه إلى تأمينِ ناحيةِ الدِّيار. فخرج عاصم

على فرسِه مِن الدَّائرة التي أحاطتْ بالرِّجال، وانطلق حتّى وقفَ على عنق السَّاحة، وصاح:

- لوْ في أيِّ بيتٍ من هذي البيوت التَّعِسة، رجلٌ سيطلق عِيارًا ناريًّا واحدًا، إنْ أصاب أو أخطأ التَّصويب سِيَّان؛ سنقتُل كلّ هؤلاء الرِّجال، وسنحرق الديار على كلِّ ديَّارٍ، كذا لو تسلَّل أحدٌ من الممرِّ ليطلُب نجدةً، زدناكم ضعفًا لكم ولمَن يأتي إليكم.. فأروني ابن أبيه الذي سيدقُّ على صدره ويقول: أنا لها.

ونظرَ حوله، مستعرضًا الوجوهَ الخائفة للنِّساء والأطفال، تطلُّ عليه من نوافذ ضيِّقةٍ، ثمّ نظر للخلف، ووجدَ الأمور على كامل الإذعان، وعاد الهُوَينَى يستقبل رجاله.

- هيَّا إلى هذه السَّاحة هناك.

وتحرَّك الفرسان يحيطون بالرِّجال من الجهات الأربع؛ وسِيقوا باتِّجاه السَّاحة، في موكبٍ مَهينٍ يتحرَّك بخطواتٍ بطيئةٍ ضيِّقةٍ كأنّما الأغلال على الكواحل، حواليهم أسلحةٌ مُشهَرةٌ. أسرَى قرابةَ المائة والخمسين رجلًا مضغوطون في مساحةٍ ضيِّقة، صدورُهم في ظهورهم من ضِيق المحشَر، في شديد الذُّهول مما يجري عليهم ولا يعرفونَ له سببًا، ولا يعرفون أحدًا من هؤلاء النَّاس. حتّى وصلوا إلى عاصم، فتقدَّم المسير يملؤه الفرحُ وانتشاءُ النَّصر ونَيْلُ الثَّأر، منتصبَ الظَّهر على فرسه.

أمّا أغلب النُّسوة، فقد لذْنَ ببيت مصبح الحصين، ووضَعنَ المزاليج الضَّخمة خلف البوَّابة. ووقَفن على السَّطح وهنَّ يصرُخنَ مُنهاراتٍ، يطالِعن هذا المشهدَ البائس القادم إليهنَّ مجلَّلًا بالعار. وقد ذابتْ قلوبهنَّ حسراتٍ مِن منظر ذويهنَّ وقد انضمُّوا في كيانٍ واحدٍ مستسلم خائبٍ قبيح، ينكبُّ في السَّاحة، كخُنْفُسٍ شِبْه ميِّتٍ تزحَفُ به النَّمل لتأكُله في جُحْره.

أجلَسوا الرِّجال في السَّاحة، في السَّاحة حيث ضُرِبتْ أمُّه وقُطِع ثوبه وصُفِعا على وجهيهما. هي السَّاحة نفسُها، لكنّ الدَّوائر دارتْ. ومرَّ وقتٌ قليلٌ بلا كلام أو نجوَى، غير وسوسةٍ من حيدر في أُذن عاصم، فأرسلَ بعدها عاصم رَجلًا من الفُتُوَّات ليقفَ أعلَى الكثيب يرقبُ ناحية القرية أمامه ودربَ القوافل عن يساره فلا يُؤتَى رفاقُه من هذه النَّاحية، وأرسلَ آخرَ إلى مدخل المرعَى قدَّام الترعة. ثمّ نزل عاصم من صهوة فرسه، وشبَّك يديه، وقال:

- هل عرفتموني؟
- لا..لا.

فهزَّ رأسه هازئًا: يا للعمَى!

سكَت قليلًا ثمّ قال:

- قبل أن تسألوا: مَن البعيد، ولمَ أغارَ علينا بهؤلاء الرِّجال؟، عليكم أنْ تحضروا جميعًا لتسمَعوا. يجب أنْ يكون الكلُّ شاهدًا على هذا اليوم.. لا حاضر يُعلِم الغائب.. إلَّا السَّعيد من كان خارج النَّجع. فليخرج الكلّ الآن.

فقال أحدُ الرِّجال: هؤلاء كلّ الرِّجال أهل النَّجع، إلَّا كلّ عجوزٍ في سريره، وبعض الغائبين في تجارة.

- ليخرج العواجيز على مهل.. لن يُمسُّوا بسوءٍ.. أريدهم شهودًا فقط.. ابعثوا أطفالكم ليناَدوهم.

فاندفع بعضُ الأطفال لأداء المَهمَّة وهُم يتذاكرون أسماءَ الشُّيوخ القعود. وبعد قليلٍ قال عاصم بصوتٍ قويّ: يجب أنْ يخرُج النِّساء أيضًا.

فعلَتْ صيحاتُ الرَّفض والتَّحدِّي من الرِّجال مُعيبةً عليه كلامَه، وتصِف ما يريده من خروج ذوات البراقع بأنّه عارٌ عليه، وأنّ الموت دونَ ما يطلُبه من خروجهنَّ ليؤسَرن.

- اهدؤوا.. أو أعالج الأمرَ بطريقة ثانية.. يجب أن يعرِف الكلُّ سببَ جيئتي.. ولو أُوذِيَتِ امرأةٌ بنظرةٍ واحدةٍ لرحَلنا مَلومين، وضاعَ حقُّنا الذي جئنا لأجله. فليخرُجن أخواتٍ مصوناتٍ. ولكم أن ترفضوا، وتدفَعوا ثمنَ الرَّفض.

اشهدوا عليَّ يا رجالي وعلى أنفسكم، وتعهَّدوا بأنْ لو أُهينتِ امرأةٌ واحدةٌ من قِبَل أيّ منَّا، لدفعنا الذي سيفعلها لهؤلاء النَّاس ونتركه ونرحل. (**ومسكَ بيده طرفَ شاربه وأكمل**) حَكمنا على أنفسنا؟

فوضعوا أيديهم على شواربهم وصاحوا: حَكَمنا.. حَكَمنا.

فنظرَ للأسرَى وقال: هل هناك ما هو أكثر من ذلك؟!

مرَّتْ دقائق من الصَّمت، بعدها خرجتِ النِّساء حذِراتٍ بطيئات الخطو ملثَّماتٍ مصطحبات الأطفال الصِّغار الذين لم يخرجوا للحريق، وكذلك خرجَ الشُّيوخ وانضموا للرِّجال. وجلس النُّسوة مجتمعاتٍ إلى بعضهنَّ بعضًا على شكل قَوْس يحيط الرِّجال، واجتمع إليهنَّ أطفالهنَّ الآخرون الذين كانوا في السَّاحة. وقد أفسحَ لهم الفُتُوَّات الذين كانوا حول الأسرى الجالسين، وتراجعوا للخلف، وتجنَّبوا النَّظر إليهنَّ ولو عَرَضًا. وبعد أنْ سكت النَّاس وعاد النِّظام والهدوءُ وشخصوا إليه ساءلهم:

- ألا تريدون معرفةَ مَن هذا الذي أغار عليكم في عَصريَّة نحسٍ؟
- بلَى.. بلَى.
- أنا رجلٌ في قلبه الكثيرُ من النِّقمة التي تملأ هذا الوادي نارًا ودمًا.. وفي قلبه بعض الشُّعور بالجميل.. فلنردَّ الجميل أوَّلًا حتّى نفرُغ للنِّقمة.

وسكَت قليلًا فيما أصابهم الخوف من كلماته الغضوبة، ثمّ قال:

- أين هالة بنت سعد؟

فانتصب أحدُ الرِّجال قائمًا غضِبًا: هالة بنت سعد؟!

ـ لا رَيْب أنّك زوجها.. لا تَغَر. (**وأكمل بهدوءٍ**): ابنُ مَن أنت؟

ـ ابن غازي بن مصبح. (**وأكمل بلَهجةٍ خشِنةٍ**): مالك أنت ولهالة بنت سعد؟

ـ إنّها.

ـ ماذا؟!

ـ ابنةُ أخي..يا.. يا أحمد، إنْ لم تخنِّي الذَّاكرة.. أنا عاصم.. الطَّريد.. ابنُ صابرة.

فنظرَ إخوته لبعضهم متحيِّرين مصْدومين، ثمّ أطرقوا وقد دارتْ بهم الأرض. وكان عاصم يتصفَّح وجوه الرِّجال حتّى يمِيز إخوتَه منهم، وقد تعرَّف أربعةً من الثَّمانية رغم مَرِّ السِّنين، ميَّز مِن ضمنهم سعدًا.

ـ تعالوا يا بني مصبح.. امتازوا في صفٍّ وحدكم.

فتحرَّك الرِّجال الثَّمانية إلى الأمام، وجلسوا صفًّا واحدًا، فعرَفهم جميعًا. ولاحظ كيف أنّ مفلحًا قد أكلتِ السُّنون منه أكثرَ ممّا أكلتْ من غيره. فيما بدأ القُدَامَى يحكون موجزًا من القصَّة لمن لا يعرفها من المحْدَثين. وقد سكَت هو فترةً حتّى يترُك الصَّدمة تفعل فعلَها فيهم، ثمّ قال:

ـ شُيِّبتَ يا سعد.

فقال بعد قليلٍ من الصَّمت: انظرْكم مرَّ بنا من ذوات الحجَّة!

ـ ثلاثون، ولكنّك مازلت أسدًا.

فهزَّ رأسه شاكرًا، ومازالتِ الصَّدمة ترسم ملامحه.

ـ أين هالة؟

فقامتْ مِن بين النِّساء: أنا هنا يا عمّ.

وجرتْ إليه، واحتضنتْه باكيةً دونَ حتّى أنْ تختبر مشاعره. كانت تبكي لذكرَى ما حدث، وكانت تبكي اعتذارًا عمَّا لم تفعل، وكانت تبكي دهْشةً مِن رجوعه، وكانت تبكي لعلّه يرحم ذويها.

وقالت له: عرَفتكَ منذ أوَّل نظرةٍ.

ـ عرَفتيني قبل.. وهُم نكِروني كما نكِروني قبل.

ثمَّ قال بصوتٍ عالٍ يُسمع الجميع، ليبكّت السَّامعين ويوبِّخهم، وهو يربِّت على كتفها مهدِّئًا:

ـ أتذكرين؟

فردَّتْ بصوتٍ خفيضٍ خجولٍ يسمعه هو بالكاد، وقد سندتْ رأسها إلى كتفه:

ـ نعم.

ـ كيف كنتِ تتوسَّلين إليهم كي يتركونا أنا وأمّي نحيا هنا؟

ـ نعم.

ـ وكيف ذهبتْ توسُّلاتكِ سُدًى؟

ـ نعم.

ـ وعندما جريتِ بجوار العربة حتّى المعصرة باكيةً مودِّعةً، وأنا في حزني وذهولي من قريتي التي أخرجتني..تذكرين؟

ـ نعم.

ـ وهل تذكرين وقتَها كيف دمَعتْ علينا عينا بغلِ المعصرة ولم تدمَع أعين النَّاس؟

ـ نعم.

ـ شكرًا يا هالة، ألف شكرٍ! في أمانٍ أنتِ وزوجكِ وأولادكِ، واجلسوا خلفي مطمئنِّين، ولا تسأليني عن أحدٍ سواهم.

فقامَ زوجُها، وتبِعها ولدُها الصَّبيُّ وابنتُها، وجلسوا جميعًا خلفه.

وبعد هنيهةٍ قام ابنُها الصَّبيُّ وأمسك بعباءة عاصم، وقال ببراءةٍ: وبقيَّة العرب؟

ارتبكتِ الأمُّ خوفًا من أنْ يقسو على ابنها. نظر لها عاصم مستفسرًا أو لائمًا، لا تعرف، فزاد ارتباكها، فقالتْ له لتخفِّف من حرج الموقف: هذا زايد ابني.. إنّه يشبهكَ في صِغَرك يا عاصم.. وكأنّه أنت.

هزَّ رأسه موافقًا، ثمّ كلَّم الصَّبيَّ بلهجةٍ هادئةٍ وجادَّة:

- اجلسْ بجانب أمِّكَ الآن.

تراجع الطِّفل وعلى وجهِه غيظٌ، وجلسَ بجانب أمِّه. وكان عاصم يفكِّر في كون الطِّفل هو أوَّل من سمعه يقول: (**وهذا.. وهذا.. وهذا**)، وقد شَعَر بشيءٍ من الغيرة أو الحَنَق تجاه الطِّفل لا يعرف له سببًا واضحًا.

ثمَّ نادَى بصوتٍ عال:

- لعلّه مازال حيًا.. أين الشَّيخ عثمان؟ أو بنوه؟

لم يردَّ عليه أحدٌ، بل تبادل بعضُ النَّاس كلماتٍ مُقتضَبَةً جانبيَّةً وعلى وجوههم ضيقٌ، فأعاد:

- أين الشَّيخ عثمان يا سعد؟ هل تتخيَّل أنّ جَدِّي لم يلتفت إليه بعد أنْ أوصلنا؟ نَسِيَه في شغل ما رأى مِن حالنا البئيس، وتركه أمام الدُّكَّان. أين هو يا سعد؟

فقال في نفسه (**قيل لي مِن قبل إنّه تحت كلِّ شجرةٍ**)، ثمّ ردَّ بحياءٍ على سؤال عاصم: بعد أن أوصلكما أنت وأمَّك تركَ البلد.

- خيرًا فعل، وكيف يعيش مثلُه وسط الذِّئاب!.. كان له عندي هذه العباءة، جئتُ بها لأردَّها عليه، وأبرَّه.. سترني بها يومَ أنْ عرَّيتموني.

فنظروا للأرض بخزي، ولم يعقِّبوا.

ـ وبعد.. أتشكُّ في نسبي يا سعد؟!

فقال منفعلًا نافيًا بكلِّ قوَّة:لم فتحتَ هذا؟! هذه كلماتُ انفلتت منّي وأنا غاضبٌ، قلتها دون أن أدري، ولا يعرفها أحدٌ، ولا قيمة لها.

ـ ذلك ليعلم النَّاس ماذا قلتَ لأرملة أبيكَ في يوم وفاته.. يا.. يا كبير.

فنظرَ للأرض مخزيًّا، وقد وقعتِ الكلمات على الجالسين وقع الصَّدمة الشَّديدة.

ـ أنا مِن حقِّي أن أعرِف.. اصْدقني القول.. واصْدقِ النَّاس، فلعلّها استغفلتْ أباكم واستغفلتكم الثَّمانية، (**ودخَّلت الثَّور بيتها**). هل تشكُّ؟ قلْ ولا تخشَ.

فقال النَّاس وهم يضرِبون كفًّا بكفٍّ أو يخفضون رأسًا..

ـ وَي. وَي!

ـ أعوذ بالله.. أستغفر الله.

وقال سعد: لا والله، لا الآن.. ولا قبلَ الآن.. ما شككتُ أبدًا.. بريئةٌ أمُّكَ.

ـ إذًا؟

ـ إنّها حُميًا الشَّباب.. والطَّمع.. (**وأخذ يهزُّ رأسه متحيِّرًا**) و.. و.. و

ـ وماذا؟

ـ لا شيء.. لا شيء.

ـ أمَّا أنا، فجِئتُكَ من غير طمعٍ.. بحُميًا الشَّباب فقط.

وأمال سعد رأسَه على إخوته في نشاطٍ كأنّه يستعجل تدبيرَ أمرٍ، وأخذوا يتشاورون. وعاصم مطَّلعٌ عليهم يعرفُ ما سيُقال بخبرة التاجر. ثمّ بعد أنْ فرَغوا من المشورة أمامه، قال سعد:

ـ تعوَّذْ من إبليس واذْنُ، واسمعْ لإخوتكَ، اقتربْ رجاءً.

ـ لا، كلّه مُشاعٌ اليوم، تكلَّمْ وأسمعْ، أو اسكتْ.

فتكلَّم سعد وأسمَع: ألا تريدُ ميراثك وميراثَ أمِّك وزيادةً؟ خذْ نِصف ما نملِك، واقنعْ ولا تضلَعنا.

وهنا تهامسَ بعضُ الرِّجال الكِبار في الخلف، وقد بدا على وجوههم حيرةٌ وغضبٌ عندئذٍ، وبدؤوا يفضون لمَن حولهم، وكان ذلك الحالُ نفسُه في قوس النُّسوة، فقد عرَفوا إذًا أنّ قصَّة الجَدِّ الذي تصالح وأخذَ نصيبَ ابنته وحفيده كانت أُكذوبةً، وحيلةً احتالها أبناءُ مصبح، وجازتْ على الجميع وصدَّقوها، إلَّا أصحاب الظَّنِّ السَّيِّئ، الذين قالوا أيّامها في المجالس عندما انتشرَ خبرُ الصُّلح: (**الحِدَأة لا ترمي الكتاكيت**).

وهذا ما كانَ يفكِر فيه الإخوةُ في ذاتِ الوقت، عرف المسنُّون بالخلف كَذْبَتهم القديمة، وها هم يثرثرونَ بينَ النَّاسِ ويفضَحونهم، وكان هذا باعثًا للخزي الشَّديد، فأبناءُ الكبير طيِّب الذِّكر ظلموا ثمّ كذبوا فأوقعوا الكلَّ معهم في هذا الضّيق، وأجلسوهم مجلسَ الهُون هذا بظلمِهم وجشعهم. وغير الخزي والحزن على السُّمعة، كان ما خوَّف أبناء مصبح هو أنْ يدفَع الغضبُ مِن هذا الوضع أهليهم لأنْ يخبروا عاصمًا بقصَّة الحيلة، فينفجر انفجارًا ينتهي بعده الكلام، لذا شَعَر الثَّمانية- وقد عرفوا ما يدور خلفهم وما يمكن أنْ يأتي من الخلف- بشيءٍ من البَرْد والتّنميل والهوان في أقفائهم.

وقد خافَ سعد أنْ يجتاح عاصمًا الفضولُ لمعرفة علامَ هذه الثَّرثرة في الخلف، فأراد أنْ يعيد العرض ثانيةً؛ ليشغَله به، ويُنهي به الأمر من دونِ فتح الدَّفاتر القديمة.

- أقول: خذْ نِصفَ ما لدينا طيبًا لكَ. والله، بنفْسٍ راضية. وامننْ- يا رعاكَ الله- علينا، وترفَّع عن السَّوم.

تظاهرَ عاصم بالتَّفكير، ومثَّل له التَّأمُّل في العرض؛ ليحرق أعصابَه بعد ذلك بالرَّفض، ثمّ قال بعد وقتٍ: معي الكثير.. جئتُك بطيش الشَّباب فقط.. غير طامع.

وبدأ الإخوةُ أنفسهم ينظرون لسعد لائمينَ على الخطأ القديم، كأنّهم يرمون التّهمة عليه وحده أمام عاصم، حتّى شعر غازي أنّ سعدًا ربما يطيح به الكلّ بما فيهم إخوته ويتبرَّؤون مما فعل، فقال غازي راجيًا حتّى يوقف هذا الصَّدع: يا بختَ مَن قدَر وعفا يا عاصم!.. نحن أهلكَ.. كنْ ابن مصبح حقَّ الابن. هذه العائلة شجرتُكَ، وإنَّ أباك قد طيَّب تربتَها ومسقاها، فارفع بلطتكَ عن جِذْع الشَّجرة.. فهي في جِذْع أبيكَ.. فلا جعلَ الله عِمارتها في مصبح وخرابَها فيه.

فنظرَ له عاصم بغيظٍ: أنت؟! أذكرُ أنّني كنتُ متعلقًا بكَ كلّ التَّعلُّق.. وكنتَ تصطحبني معكَ لزيارة أصحابك.. وتقول لهم: هذا أخي آخرُ العُنقود.. نعم، كنتُ أحبُّكَ جدًّا، وأتمنى أنْ أنمو مثلكَ، ويسمِّيني أبي (**السَّفير**) مثلكَ.. ولقد صُدِمتُ فيكَ يومَها شرَّ صدمةٍ..شرَّ صدمة!. وإنك لا تدري ماذا فعلتَ بي بطردي... لو كنتَ هناك.. ورأيتَ أخاكَ يتلجلج في نَطق الكلمات.. ويُقهَر من صِبيان الشَّارع.. وحيدًا له ثمانية إخوةٍ... لتلجلجتَ الآن.

- معذرة (**وقد ارتسمتْ على وجهه علامات أسفٍ لوْلا الخوف لكانت أظهر**)

ـ معذرة.. أينِ أصرِفها؟!

وشرَد غازي مفكِّرًا في أشياءَ كثيرةٍ في وقتٍ وجيزٍ كما يحدُث للنَّاس في وقت الخطر: ما الذي جعله وهو عاقلٌ يتَّبع سعدًا بكلِّ حماسةٍ حتّى في الأمور التي لم يطمئنَّ إليها؟ هل هي جاذبيَّة الحيويَّة والتَّهوُّر والعناد التي يُؤسَر لها العقلاء في سيْرهم خلف طائشين؟ أم ماذا؟

وقطعَ عليه عاصم شرودَه: هذا شيءٌ ممّا حدث لي.. ماذا حدث لكم؟. دعني أسأل، وأريد صريح الإجابة.

فقالوا جميعًا: اسأل.

ـ بعد مرور ذلكم اليوم العصيب،كيف كنتم تفكِّرون فينا: أنا وأمِّي؟

كان ما يجولُ بخاطر عاصم أنَّهم ربّما ندِموا أو استحوا، كان يريد أن يطَّلع على أثَر هذه الحادثة التي شكَّلت حياته، أثَرها في مَن أحدثوها.

قال غازي وقد سعِد بالسُّؤال: أبشِر... (**وحدَّق في الأرض كأنَّما يتذكَّر**).. كانت ساعة شيطانٍ، جلبت لنَا الحسرة. وفكَّرنا أنْ نذهب إليكما ونطلبَ منكما العودة، ولكنّ الشَّيخ مانع ـ رحمه الله ـ جاء خِصِّيصًا من أجلِ أمركما، وقد رأى أنّكما لن تعودا أبدًا. كما أنّنا تحرَّجنا من جَدِّك إذا ما رآنا على بابِه، وراهنَّا على مجيئه لنا فنعتذرُ له؛ أفضل من أنْ نذهب إليه فيفرُط علينا في بيته من قبْل أن يسمعنا. أشياء كثيرةٌ كانت في رؤوسنا، كانت كلّها خطأً. وقد عضضنا بعدكما أصابعَ النَّدم.. ومن حظِّنا العثِر أنَّنا لم نستطع مداواة جرحكما.

ـ يُخاف منكَ يا غازي.. بائع كلامٍ!!.. دعني وهذا الفظَّ.. ماذا عندكَ يا سعد؟

- صراحةً، أنا وإخوتكَ نسينا القصَّة بعد أنْ ردَمنا عليها.. أقصِد بعد أن ظنَّنا أنَّنا ردَمنا عليها. والرَّدم لم يعدْ نافعًا، والله غالبٌ، لذا أقول لكَ: إنّنا نسينا ما حدث؛ ولم نندم عليه إلَّا الآن.

فنظرَ غازي له شزرًا؛ وقد كذَّب حديثه، بينما انفجرَ غضبُ عاصم واقترب من سعد في انفلاتٍ، يبدو معه وكأنّه سيصفعه على وجهه.

- نكَّلتَ بي وبأمّي، وجعلتني أعيش ممزقًا لثلاثين سنةً، ذائق المرِّ، وأنت نسيتَ القصَّة، تتجوَّل في زروعكَ ببهجةٍ، تمامًا كما قال الشَّيخ لي اليوم: (**يعيشون على الأرض ببراءةٍ متناسين القصَّة، وغير معتذرين عمّا أساؤوا**).

فقال بصوتٍ مخنوق: الأمر يا عاصم...

- لا يا بنَ مصبح، الأمرُ ليس بالسُّهولة التي تعتقد. تريد أن تعوِّضني ولنْ تستطيع. لو رددتَّ مالي فلن تستطيعَ أن تعوِّضني عن سنوات الهمِّ، وإنِ استطعتَ فلن تعوِّضني عن أمِّي، إنّ لي عندكَ دمًا.

فهمْهَم الجالسون همهمةً كأزيز النَّحل، وحدث اضطرابٌ شديدٌ، وقد استغربوا من حديث الدَّم.

فقال سعد وهو يحاول أنْ يخفي اضطرابه، وينظر حوله كمن يطلب الشَّهادة:

- أيّ دم؟! أُمُّكَ خرجتْ مِن هنا حيَّةً تُرزَق.. أُمُّكَ طردناها ولكن لم نقتُلها.

- أُمِّي أصابها المرضُ والحمَّى من جرَّاء ما فعلتم بها، فماتتْ، قتلتموها بالهمِّ.

فقال بحسرةٍ وقد قطَّب جبينه: ماتتْ؟! وسكَت طويلًا، ثمّ أكمل..

- لم نقصِد ذلك، ولم نفكِّر فيه، ولم نتمنَّه.
- دمُها في رقبتكَ أنتَ ورقاب إخوتكَ، ورقاب هؤلاء النَّاس الذين شاهدوها تُظلَم ولم يرأفوا بها ويحموها ويُوقِفوكم عند حدِّكم.

وخيَّم الصَّمت فترةً طويلة، وقد شعَر الجميع: المتشائمون والمتفائلون، بعد هذا الكلام عن الدَّم أنّ هناك ذبحًا قادمًا لا محالة، وراجعوا منظرَ رجالِه وعددَهم، فآمنوا بأنّه لا يمكن أن يكون هذا الحشد المحشود قد جاءَ لعَرْك الأُذُن فقط، بل جاء بالذَّبح.

وقد انخفضتْ روحُ سعد تمامًا، وبدا دائخًا مصفرَّ الوجه وهو يراجعُ ما آلتْ إليه سمعةُ بيتهم في العشيرة، وسُمعته هو بعد أنْ فضَح عاصم ما قالَه لأمِّه، وكذلك ما يريدُه عاصم ويقدِر عليه بسببِ حشْده.

فقالَ وهو يضنُّ بما يقول كلَّ الضَّنِّ، ويعرِضه كأنّه مدفوعٌ إلى عرضه بقوَّةٍ جبَّارة:

- اتركْ إخوتَكَ؛ هُم اتَّبعوني. واتركْ هذا الجمهورَ مِن آل مفلح فإنّهم لا ذنب لهم؛ هُم خشونا، وهم على كلِّ حالٍ اشتكوا إلى الشَّيخ مانع، وخطَّؤونا عنده. لم يشمتْ بكما العرب، هذا ليس صحيحًا، لقد ارتأوا أنّ ما حدث عَيْبةٌ عظيمة، غير أنّهم لم يستطيعوا أنْ يمنعونا. أنا مصرٌّ على أنّ الأمر لا حقّ دم به، ولكنّكَ أتيتَ اليوم ولم تأتِ وحدكَ، بل أعانَك هؤلاء الأكفاء على عشيرتك، وباغتَّنا، وحاصرتنا بالسِّلاح. وأنت الغالبُ اليوم، ولكَ أن تفرُض ما تراه حقًّا، كما فعلنا نحن مِن قبل، فظلمٌ بظلم إذًا، ويومٌ بيوم، خذْ ثأركَ مني وأنْهِ الأمرَ على ذلكَ.... دعِ العَشيرة واكتفِ برقبتي.

كان أشدّ ما ضايقَ عاصمًا هو محاولةَ سعد أن يضعَ عليه عيبةً من العرف والعقل إنْ نال دمًا منهم، وتصريحه بأنّه إنْ قَتَل فسيقتِل دونَ وجْه حقٍّ مُعتمدًا على الغَلَبَة لا غير، وكذلك ضايقه أنْ يختار التَّصرُّف مثل رجلٍ شهمٍ قرَّر أنْ يضحِّي بنفسِه من أجل عشيرته، ولم يكنْ يتمنَّى أن يوفَّق لهذاً مطلقًا. كانت ثمَّة زفرات ألم من بعضِ النَّاس، ونجوَى ووسوسةٌ؛ خوفًا من مصير سعد، وامرأةٌ هناكَ، يحاولُ النُّسوة إفاقتها، لا ريب أنَّها أمُّ هالة.

وقال مفلح مناديًا في رجال عاصم: احْضروا يا جماعة الخير حالنا.. سيقتُل الأخ أخاه.

وشاركه الآخرون النِّداءات، وراح رجالُ الكتيبة في أحاديث جانبيَّةٍ أيضًا انزعج منها عاصم.

فصرخ: أنا لم أحكُم بعد.. ربَّما لا يكفيني قتل سعد.. ربَّما.

فقال غازي: يا ابنَ أبي، يا ابنَ أبي، أبوكَ فعلَ هنا الحُسنيات.. والآن، يمكنكَ أنت أنْ تغفِر فتلحَق به في الشَّرف.. والعفوُ عند المقدرةِ مِن شِيَم الكِرام.. هذه ذكرياتٌ قديمةٌ مؤلمةٌ ومخجلة.. تعالَ ابن أبي ننساها معًا.. ألا تتحمَّل؟

فقال عاصم: وهل تتحمَّلون أنْ تروا شيئًا مما فعلتم بي يُفعَل بأبنائكم؟

فهزُّوا رؤوسهم نافين.

ـ سأريكَ شيئًا يا غازي.

وما عتمِ أنْ نادَى بحدَّةٍ: يا زايد.

فقام الطِّفل ابنُ هالة وهرول إليه، فوضع يده بخشونةٍ على كَتِفه.

ـ ألم أكنْ طفلًا مثل هذا الطِّفل يومها؟

- بلى.

ومدَّ يديه ومزَّق ثوبَ الطِّفل ففزِع وصرخ، وشهقتْ أمُّه شهقةً عظيمةً لم يسمعها عاصم. ووقف زايد باكيًا يرتعد، مخزيًّا من وقوفه بسرواله القطنيِّ.

- ألم تقطِّعوا ثوبي هكذا وأنا ابنُ أبيكم؟

- بلى.

مرَّتْ دقائقُ قليلةٌ وهو في صمتٍ حارق، وقد صهَده فيها حرُّ جَوْفه، حتّى احمرَّ وجهُه تمامًا، ورمتْ عيناه بشررٍ، وخرَجتْ من منْخريه الشَّياطين أنفاسًا متلاحقةً تنذر بالويل.

كان الطِّفل خائفًا، ومُحرَجًا، وكأنّه رجلٌ لا يصحُّ له وقوفُه هكذا بين النَّاس. وعاصم يلحظه بجانب عينِه، ويتوقَّع استعطافًا منه حتّى يتركَه ليستترَ بثوبٍ آخر، ويجلس بجانب أمِّه في ظلِّ أمانه لها ولأسرتها. وهذا لم يحدثْ، فبعد وقتٍ من البكاء بُحرقَةٍ، بدأ في قراءة سورة (**النَّصر**)، كأنَّما يستمدُّ منها قوةً وأملًا، بصوت عجيب، محمولٍ على غمامةٍ من عصر آخر، صوتٍ به غُنَّةٌ دافئةٌ ورنَّةٌ حزينةٌ جميلةٌ تربِّت على القلوب. وأخذَ يعيدها مرَّاتٍ ومرَّات، وكلَّما أعادها تشجَّع وتخلَّص من خوفه، وازداد صوته حزنًا جميلًا معبَّقًا من بقايا بكائه.

وخيَّم الصَّمت على المكان، فلا يُسمَع إلَّا صوتُ الطِّفل يردِّد السُّورة بلا انقطاع. وخشِي عاصم أن يكونَ الطِّفل قد بدأ يسحبُ السَّاحة منه بمنظرِه الطُّفوليِّ البريء المثير للشَّفقة في عريِّه، وبصوته السَّاحر الذي يروح في الأعماق، بل خشِي أيضًا أنْ تتحرَّك قلوبُ رجاله، فقال له بزجرٍ مستترٍ لكي يصمت..

- ألا تحفظ غيرها؟!

- أحفظ يا جدَّاه نصف القرآن.

ـ نِصْف القرآن!
ثمَّ نظر إلى سعد: أبالله هذا حفيدكَ؟!
فهزَّ سعد رأسه مؤكِّدًا:
ـ كيف خرج هذا العابدُ من أصلابكم يا سعد؟!
فنظرَ سعد للسَّماء وكأنّه يقول له: حكمة الله.
رمق عاصم الصَّبيِّ: ولم تكرارك إذًا لها؟
ابتلع الطفلُ ريقه ومسح دمعه بكفَّيه وقال:
ـ إنّها نزلتْ عن فتح النَّبيِّ محمَّد ﷺ وجيشه لمكَّة، ولكنْ دون قتالٍ، لم يذبح أهله، رغم أنهم آذوه أشدَّ الإيذاء، وآذوا المؤمنين معه، لكنه انتصر عليهم بدون أن يقتُلهم.
رفع يده من على رأس الطِّفل، وتحرَّك باتِّجاه رجاله، وأخذ ينظُر في وجوههم، وقال بصوتٍ عالٍ وبنبرةٍ تشبه نبرة احتجاج الأطفال..
ـ ما هذا!.. حسَّان يمنَعني عنهم منذُ سنواتٍ، وكِدتُّ أخسَره مِن أجلهم، والمتقيِّئ، وعالِم الأزهر الكبير قابلته في مصادفةٍ غريبةٍ في طريقي وترجَّاني أنْ أقبَل وَساطته، ثمّ هذا الطِّفل الغريب. بينما لم نجد أنا وأمِّي إلَّا رجلًا لا يستطيع دَفْع الأذَى عن حِصانه.. وهم لهم كلُّ هؤلاء؟!... أرهَقوني.. هل يحبُّ الله سعدًا وإخوته حتّى يضع النَّاصحين في طريقي من أجلهم؟!
لم يردَّ عليه رجاله، كانت على وجوهِم رهبةٌ بيِّنة، رهبةٌ ضيَّعتِ الجَهامة والعُنجُهيَّة على الوجوه القاسية. ينظرون للطِّفل باحترام بليغ وتعاطُفٍ، بعيونٍ يسرُّ النُّظَّار أن يروها وقد سكَنها حنانٌ مختلفٌ، كَسباعٍ تنظر إلى شبلٍ منها.
وإذا بالطِّفل يقول له مِن خلفِه: ربَّما يحبُّكَ أنت.

فالتفتَ سريعًا كأنّ الكلمة اخترقتْ ظهرَه، زلزلته، وكأنَّما كان في حاجةٍ إليها، إنّه في حاجةٍ عميقةٍ لحبِّ الله، وضع في طريقِه عدَّة الحرب أو حمائمَ الحبِّ، المهمّ أنْ يحبَّه، ذلك هو الشيء الدّفين داخله الذي اكتشفَه لحظتها. والطِّفل يهزُّ له رأسه، وهو يكاد يلين.

وإذا برجلٍ يظهَر عند سورِ سطح البيت، بيت مصبح، وفي يديْه زَوْجا قَبقابٍ يقرع بهما مبتسمًا هادئًا، وكأنّ ما يدور في السَّاحة لا يخصُّه، بل لا يلحظه. ينظر له عاصم في اندهاشٍ، وقد أوشك أن يأمر بأنْ يؤتَى به.

يخاطبه سعد راجيًا بحرجٍ: عافاك الله، دعْه، إنّه ابني، مريضٌ، لا تروِّعه.

واستدار الرَّجل المعاق ببطءٍ ووداعةٍ وانسحبَ إلى داخل السَّطح، وغابتْ قَبقبة القَبقاب تدريجًا مخلِّفةً بعضَ الطَّنين.

صُدِم عاصم من كوْن ابن أخيه الذي كان في الثَّالثة من عمره حين ترك البلد، أمسَى رجلًا مُعاق الذِّهن. ولكنّه لم يرتبك كثيرًا للدَّرجة الملحوظة التي تُطمع أحدًا في حنانه. وانضمَّتْ تلك المفاجأة لهذه الأشياء التي تتراكم ويعزُّ بعضها بعضًا، لتصدَّ سيلَ ثأره القديم عند سفح الوادي. وودَّ لو يسأل سعدًا: هل ربط بينَ هذه البلوَى في ابنه وبينَ ما فعله بصابرة وابنِها أم لا، غير أنّه وجد السُّؤال المُلحَّ سخيفًا.

وتصارعَ في أعماقه الشَّماتة مع العطف، واستمرّ لوقتٍ شاردًا في هذا الشِّقاق داخله على الرَّجل المعاق. ثمّ إنّه ضجَّ بهذه الأفكار المتَصارعة كلّها، وتوقَّف عن التَّفكير فيما يدور حوله من مثبِّطاتٍ، وأعاد نفسه لحالةِ الغضب مرَّةً أخرَى، ونظرَ إلى زايد نظرةَ غيظٍ واستخفافٍ كالتي ينظرُها الرجل لمَن حاول خداعه. واستعادَ لحظاتِ الألم الحيَّة في ذاكرته: الصَّفع، والطَّرد، والموت الرَّهيب في الضَّوء الشَّاحب، والوجه الرَّماديُّ والشَّعر الأحمر يغطِّيه. بدتْ عليه حدَّةٌ وعَجَلة، وقسوةٌ على ملامح وجهه،

وخفَّ إلى أحد الرِّجال وأخذَ سلاحَه الذي سلَّمه إليه. تحزَّم بالحزام وتدلَّى السَّيف بجانب ساقه اليمنَى، ومشى مسرعًا حتّى عادَ لمكانه، ووضع قبضتَه على مَقبِض السَّيف عند جنبِه اليمين، وأخرجه وأخذَ يهزُّه ويلوِّح به، فتطايرتِ القلوبُ كأنّها كانت على نصْلِ سيفه. وقد علا صوتُ بكاء النِّساء، والأَسرَى ينظرون لأصحابه ويناجونهم مُستعطفين: أنِ افعلوا شيئًا.

وبصوتٍ عالٍ صرخ فيهم: هل دريتم ماذا انتويتُ فيكم؟

وأصاب الجمعُ الوجوم، ولم ينطق أحدٌ منهم، ولا صوت إلَّا صوت بكاء النِّساء ونشيجهنَّ، وكلماتٌ منهنَّ قليلةٌ تخرج محترِقةً وجزِعةً وخفوتةً، مثل: يا مُرِّي.. يا حزني..

- هل دريتم؟

فقال الولدُ بسرعةٍ عندما رأى عاصمًا الذي أخرج سيفَه من غِمْده ينظُر لرجاله، ويشيرُ لهم بالالتفاف حولَ الثَّمانية، وتحرَّكوا ببطءٍ مرعِب، قال الولد بهلع ورجاءٍ وسرعةٍ قبل أنْ يصل الرِّجال ويطوِّقوا الثَّمانية..

- أخٌ وابن عمٍّ حليمٌ رحيمٌ.. أخٌ وابن عمٍّ حليمٌ رحيمٌ.
- أنا أخو جدَّيك! (**قالها بعينين تلتمِعان كأنَّما مسَّه شيطانٌ يتكلَّم بلسانه**).
- اسمعني يا جَدَّاه... عندما فتح النَّبي مكَّة، قال لأهله بعد أنْ حطَّم الأصنام وقبض على البلد: (**يا قريش، ما تقولون وتظنُّون؟**). قالوا: نقول إنك أخٌ وابن عمٍّ حليمٌ رحيمٌ.

ثمَّ أعادها الولد بشفقة وتحنُّن وبأعلَى صوته، وهو يغمِض عينيه، من أعماق أعماقه، وكفَّاه متشنِّجا الأصابع (**أخٌ وابن عمٍّ حليمٌ رحيمٌ**).
فلسعتِ الكلمات مروءة عاصم.

وقد أحاط بعضُ رجاله بالثَّمانيةـ الذين اعتراهم الكَرْب العظيمـ أحاطوا وعيونُهم على عاصم منتظرين الأمر. وإنْ بدوا غير متحمِّسين، وأجسامُهم تأبَى، لا ينظُرون إليه ولا إلى الرِّجال، وشبَّك كلٌّ منهم يديه إمَّا مِن أمام أو خلف، ولم يضعْ أيّ منهم كفًّا على المقبض.

بلعَ عاصم رِيقَه وارتَبَك، وتسلَّلتْ برودةٌ إلى جسمِه، واقشعرَّ جلده، وانتابتْه شفقةٌ على طفلٍ عارٍ أمامه، وكأنّه لم يمزِّق ثوبَه بنفسِه، وسأله عن عُرِيَّه بصوتٍ هامسٍ لاً يُسمع إلَّا نفسه، وإنْ لوحِظتْ حركة شفتيه..

ـ مَن فعل بكَ هذا؟!

وعاد الرَّجل الجسيم إلى إطلالته من أعلى السَّطح. وعاد يُقبقِب، ويطرَب للصَّوت وعيناه ملؤهما الحُبور، ثمّ انسحب إلى داخل السَّطح. وقد تسلَّل إلى عاصم شعورٌ واهنٌ بالشَّفقة على سعد نفسه، الذي كان يتألَّم من قَبقبة القَبقاب كأنّها في جمجمته، فتغمُض لها عيناه، رغم أنّه مشغولٌ بمصيره ومصير إخوته، وقد تعجَّب من أنْ يجد أخوه في نفسِه ألمًا لهذا القَبقبة، وهو فيما هو فيه على شبه مذبح. تسلَّل هذا الشُّعور رغمًا عنه، مثلما تسلَّل مثيلُه يومًا ما على حافظ الطِّفْل. وقد تسلَّل إليه شعورٌ آخر بأنّ ذاك الجسيم يفضُّ الجلسة، وأنّه أشدُّ وطأةً عليه من أنْ يتجاهل إشارته، فتنزل به نازلةٌ.

واستمرَّ زايد يردِّد: أخٌ وابن عمٍّ حليمٌ رحيمٌ.. يا جَدِّي.. يا ابن مصبح.. أخ.. وابن عم..حليم.. رحيم.

كان مُصِرًّا على أنْ يسحَب السَّاحة بطفولتِه البريئة الذَّكيَّة الواعية الحنونة، وأنْ يغسِل صدر عاصم. ويبدو أنّه زعيمٌ للأطفال؛ فقد أخذ يحدِقهم بعينيه، هذا ثمّ تلك، على مدار قَوْس جلوسهم في السَّاحة عند الأمَّهات، ويشير بذَقنه للأمام أن: قمْ، فاشرأبَّتْ أعناقُهم الواحدُ تِلْو الآخر،

صبيانًا وصبايا، وقاموا مِن هنا وهناك ومِن حُجور أُمَّهاتهم أو مِن جانبهنَّ، انتصبوا على أرجلهم مردِّدين..

- أخٌ وابن عمٍّ حليمٌ رحيمٌ.

- أخٌ وابن عمٍّ حليمٌ رحيمٌ.

أخذوا يردِّدونها معًا بحماسةٍ، بصوتٍ جميلٍ، يغسِل قلب عاصم، ويدهُن على عذاباته؛ وهو يستمع ويتملَّى هذه الكوكبة من أطفال آل مفلح بصوتهم البريء العَذْب، يرتجون صَفْحه متَّبعين زايدًا.

وانشرحتْ صدورُ النُّسوة، ونظرنَ لأطفالهنَّ بفرحٍ وهنَّ يكتشفنَ هذه القوَّة النَّاعمة في الطُّفولة، القوَّة التي جعلتْ حمائمَ السَّاحة تفرض أنفسَها على السَّاحة. وتشجَّعن وطمَحن وبدأنَ يردِّدنَ أيضًا تلكَ الكلمات التي أطرق لها عاصم وأبردته، فاستحيا منهنَّ عاصم، وابتسم وعيناه للأرض وهو يميل أذنه إليهنَّ كمَن يستمع لعذب الكلام، وهنَّ يشرنَ إليه بأيديهنَّ ويصِفنَه بالأخ وابن العمِّ الحليم الرحيم.

وبعد قليلٍ، تشجَّع الرِّجال أيضًا، وانضمُّوا لجَوْقة السَّاحة التي قادها الصَّبيُّ، وقد تنوَّعتْ نبراتها.

وها هو عاصم يشعر أنّ السَّاحة تمطَّتْ، وفتحتْ عينًا وابتسمتْ، وتبِعتْ زايدًا. حتّى الطُّيور في فضاء السَّاحة أخذتْ تغرِّد بنفس الكلمات. وعاصم في خَدَرٍ لذيذٍ، وشيءٌ من بَرْدٍ على صدره، وعلى عينيه شيءٌ من نُعاسٍ لطيف. ينظُر لرجاله لعلّه يرَى لهم رأيًا آخر، فرآهم خُشَّعًا وجِلين، وأسرَى كالأسرَى. يقتربُ من حيدر والرِّجال الآخرين، يجدُ في بعض العيون القاسية دمعًا منحدرًا بسخونةٍ، وينظُر لحيدر مستشيرًا بعينٍ مبتسمة، فنصَحه بكلِّ الرَّجاء بأنْ يحنِّئ كفَّه من رماد المعصرة وكفَى.

اقتربَ من الطِّفل وجلس على قدميْه بجانبه، ومالَ على رأسه وكأنّه يسِرُّ له بسرٍّ، بينما كان ينظر بعينيه للأسرَى..

ـ سأحكي لكَ قصَّة النَّبيِّ في الطَّائف.. أنا أعرِفها منذ زمن.
ـ وأنا أيضًا.

يسكتُ قليلًا متعجِّبًا: أفلتُّ من قَبضة صاحبي والعالِم، لتحاصراني أنت وخالكَ هنا (**ثمّ أدار جسد الولد ناحيته فتواجها. ثمّ أكمل**) لماذا تظنُّ أنّك ستنجَح بهذه الطَّريقة؟!. أنا أعرِف ما حدث في فتح مكَّة من قبل. سمعته مِن أصحابي.

فشعَر الولدُ بالفشل، ونظر للأرض، ودمَعتْ عيناه، وقال:
ـ هذا كلُّ ما عندي يا جَدَّاه.
ـ هذا كلُّ ما عندي!.. ولا أعرف كيف وصلتَ هذا الذي نحن فيه بذاكَ!.. وأُشهِدكَ: كأني أَستمِع إليه لأوَّل مرَّة.

فابتسمَ الولد. وضمَّ عاصمُ قبضتي الصَّبيِّ في يُسراه، وربَّتَ عليهما بيمينه، وقال:
ـ الأعيانُ والكبار مثلنا لا يبكون. (**ثمّ تذكَّر أنّه يبكي أحيانًا**) لا يبكون أمام العامَّة. امسحْ دموعكَ وأكمِلْ ما تبقَّى من القصَّة، وكيف ردَّ الرَّسول ﷺ عليهم.
ـ وأنت تعرِف؟!
ـ نعم، أكمِل ما بدأتَ.
ـ قال: أقول كما قال أخي يوسف: (**لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**)

قبَّل خدَّ الطِّفل، ولفَّ جسمَه بعباءة الشَّيخ عثمان، وقال له:
ـ هذه العباءة العزيزة لكَ يا زايد. عزيزةٌ لدرجة أنّني أريد التَّخلُّص منها.

وحمله على كَتفه، وقام به، ثمّ قال له: تكلَّم أنت يا شيخ العشيرة (**وعلى وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ، قرأها النَّاسُ جميعًا فاطمأنُّوا، زيادةً على اطمئنانهم لتقبيله إيَّاه ولفِّه له بالعباءة**).

وصمَتوا ليسمعوا قولَ صبيِّهم المفوَّه. تنحنح الولد، ثمّ أشار بيده للأمام، كأنما يلفت انتباه الجَمع، بينما كانت يده الصَّغيرة غائصةً ومرتبكةً في كمِّ العباءة

- الحمد لله... الحمد لله... الحمد لله (**وحار استئنافًا وكأنّما فقد لِسانته المميَّزة فأمسى طفلًا محضًا. ووضع طرفَ سبَّابته بين أسنانه خجلًا**).

فقال عاصم: أحسنتَ.. وأوجزتَ!

وردَّد الكلُّ مثله: الحمد لله.. الحمد لله.

وقاموا مُثقَلين من وطأة التَّجرِبة، كالمكبَّلين إنْ حُلَّتْ أكبالهم، وأخذوا ينشَطون شيئًا فشيئًا، ويتفهَّمون أنّ ما حدث قد انتهَى حقًّا، فبدؤوا في شيءٍ من الإعياء يتبادلون الابتسامات والتَّهاني ووجهات النَّظر. وبادرتْ إليه هالة وأخذتْ منه ابنها لتقبِّله فرِحةً فخورةً به، واعتذر لها على تمزيق ثوبه، وهنَّأها على حسنِ تأديبها له. ثمّ صار الزِّحام والفوضَى والبهجة كلّها كحال النَّاس في حفلات الأعراس، حلقات من النَّاس يتحدَّثون ويهنِّئ بعضهم بعضًا، وعاصم سعيدٌ ومندهشٌ من النَّهاية التي لم يتوقَّعها البتَّة.

وبسرعة، قام رجالُ عاصم بامتطاء جيادهم، وانسحبوا بحسبانٍ، طريقةٌ يبدو أنَّها معدَّةٌ سلفًا، حتّى وصلوا إلى بعيدٍ، بين السَّاحة والمعصرة، وأهلُ البلد ينظرون إليهم بغيظٍ، بينما لم يبقَ إلَّا مجلي مع عاصمٍ في زحام العشيرة. وقد نادوا عاصمًا من بعيدٍ، فأشار لهم بأنْ ينتظروا قليلًا. وغاص في محادثاتٍ قصيرةٍ مع ذويه تسأله عن الصِّحَّة وتعزِّيه في أُمِّه. ثمّ نادَى

الرِّجال تارَةً أُخرَى عاصمًا الذي كان في وسط همهمة مخلَّطةٍ من الأشواق والعَتب والعَجَب؛ ونسوةٌ اقتربنَ منه وسألنَه إنْ كان يذّكُرهنَّ وهنَّ وديدات أمِّه، فهذه كانت تحكي له الأحاديثَ والحكايات، وتلك رَقَته من (**خَرعة الكلب**) عندما جرتْ وراءه كلبة (**لبيبة**) التي اقترب مِن جرائها، وهذه أرضعته، وكثيرٌ حَكينَ له ذكرياتٍ بكلماتٍ موجَزةٍ، فتذكَّر بعضهنَّ ونسِي بعضًا. واستأذن من الكلِّ ليحدِّث مجليًا الذي يقف خلفه فكلَّمه مداعبًا وقد بدتْ عليه سعادةٌ غامرة:

- لم تطِلُّ على نساء العائلة؟!. هذا لا يليق برجلٍ حرٍّ.. أنت حرٌّ يا مجلي، والحقْ بالرِّجال.
- إذًا يا سيد عاصم دعني أتصرَّف كرجلٍ حرٍّ.. لن أترُككَ إلَّا بعد أن تأمَن.
- يا مجلي.. أوَتريد أنْ تمكُث لتُثبِت للعبد الفقير لله شيئًا ما؟!، هذا هو الرقّ عينه، ليس من الجائز أنْ يخاطر النَّاس بأنفسهم وراء رجلٍ وغاياته.. أيّ رجل.
- كُنتُ من ورائكَ عندما تركوكَ وانفضّوا إلى السُّوق.. وكُ..

فقاطعه: ولكنني لم أنتبه..

انزعجَ مجلي من كوْن سيْره في ظلِّ سيِّده شيئًا مهملًا مهينًا وغير محسوس، كتعلُّق البعر في أدبار الغنم، فأشاح بوجهه عنْ وجْه عاصم، وأكمل عاصم كلامه:

- اسمع: هؤلاء الذين انسحبوا الآن منظَّمين هُم الأحرار حقًّا؛ لأنّي لم أستطعْ أنْ أنسيهم أنفسهم.. لا بدّ أنْ تمضي معهم.. وهذا آخر أمرٍ أصدِره إليكَ.

نادوا عليه ثالثةً بلهجةِ اعتراض، فمشَى إليهم، ونبَّهه سعد مِن خلفه لأنْ ينتظر لأنّ هناك مأدبةً جامعةً للصُّلح، مشى إليهم وبجانبه مجلي الذي وسَّع المسافة قليلًا، ثمّ إنّه تقدَّم عاصمًا، مضى أمامَه لأوّل مرَّةٍ، وهو يشعرُ بالاضطراب والفرح والذنب.

ووصلا للرِّجال، فانضمَّ إليهم مجلي، وقال رجلٌ: هيَّا.

- سأمكث يومي هذا.

فقال ثانٍ: ولكنّا سنمضي الآن.

- انتظروا إلى اللَّيل، هواءُ اللَّيل هنا يردُّ الرُّوح.. انتظروا؛ حتّى نسمرَ معًا ونداوي الجراح، ونأكل من صحنٍ واحد. سيدعوننا جميعًا للوليمة.

فقال آخر: ماذا تقول؟! مِن الغفلة أنْ نمكُث هنا أكثرَ من هذا.. هيَّا لتمضي معنا لأنّنا سنمضي الآن.

- أخائفون عليَّ؟

- لا تنسَ أنّك أسرتهم في بلدهم، وأخزيتهم بين نسوانهم وعيالهم، وأنّكَ بعد قليلٍ ستكون هنا وحدكَ.

- هل تظنُّون أنّهم يغدرون بي؟

فقال رجلٌ: كلِّمْه أنت يا مُعلِّم إبراهيم.

فشبَّك إبراهيم يديْه، ومال على عنق حصانه، وقال:

- ألم تسمع في التَّواريخ قَطُّ أنّ محمد علي (**باشا**) استضاف المماليك على مأدبة صلحٍ، ثمّ.. (**وأشار لرقبته بما يفيد الذَّبح**)؟!

فقال الرِّجال محتجِّين عليه ومتحدِّين له بصاحبهم المطَّلع

- ردَّ عليه.. ردَّ عليه.

ولم يردَّ عاصم. وقد أصابه قلقٌ مِن إجماعهم على التَّحذير، فاقترب من حيدر، وقد تخلَّى وجهه عن بعضِ الطُّمأنينة التي كانت عليه، وقال له:

- إن استبطأتموني تقصُّوا خبري، وإن شرًّا فتعالوا واجعلوا عاليها سافلها.

فقال له حيدر بعصبيةٍ: يا رجل، قلْ كلامًا يُعقَل.. أتفتكِر أنّي أستطيع أن أجمع خمسة رجالٍ لمجاملة رجلٍ مَيْتٍ؟!

فانصرفَ عنه عاصم للوراء قليلًا منذهِلًا، وقال للجميع: أنا سأتبع قلبي.

وقبل أنْ ينفصلوا عنه، علتْ أصواتُ بعض السَّواد من الفُتُوَّات، خلف فتًى منهم صاح طالبًا أن يحلوه عاصمُ البندقيَّةَ حَلْوًا للنَّصر، وما هي إلَّا لحظاتٌ من الصَّمت، حتّى ردَّد هؤلاء وقد سرتْ فيهم العَدوَى: وأنا.. وأنا.. وأنا.

فصرخَ فيهم كِبارهم وبعضُ السَّواد: وهل هذا وقته؟!

وصاحَ به الكِبار مُشفقين جِدًّا مثلَ شفقة نوحٍ ﷺ الأخيرة على ابنه: هيَّا يا رجل.. أرسِل نفسكَ معنا.. ولا تفكِّر.

ولم يردَّ عليهم، فتركوه مُسرعين ومضوا، حتّى تواروا بعَفَرهم وقَرَشَة حوافر خيلهم خلفَ الكثيب. مخلِّفين وراءهم صاحبَهم، وهزيمةً ثقيلةً، ومعصرةً خربةً، ودلاءً منتثرةً، وحوضًا منزوحًا لم يعد فيه إلَّا آثار أقدام المطفئين قد علَّمتْ في الطين.

أخذ ينقلُ نظرَه بين المعصرة والدّلاء والحوض وقد كبرَ عليه ما فعل، سرتْ في جسده برودةٌ، وتذكَّر كم صدقتْ مِن قبْل حواسّ أصحابه الذين غادروه، وندِم على أنْ فعل هذا بنفسه وهو الحاذرُ المحترس، وشعَر

أنّ روحه تنسحبُ من ساقيه، والتفتَ ببطءٍ وهو في دُوارٍ شديد. الجمعُ يقترب منه بهدوءٍ، بعد أنْ جرَّد نفسه مِن جُنده. وعندما وصلوا بعد خُطًى وئيدةٍ كان يَوَدُّ أن يقول: وا غربتي!

التفَّ حوله إخوتُه واحتضنوه، واعتذروا إليه، واعتذروا للأهل، باعتبار أنّهم السَّبب الوحيد فيما لاقوا اليوم، فتنفَّس الصُّعَداء. ودعوا الجميعَ إلى مأدبة عشاءٍ بمناسبة الصُّلْح مع عاصم وعودته.

واستأذنهم في أنْ ينام قليلًا لأنّه منهكٌ، تحديدًا في غرفة أمِّه. ودخلها، فطفرتْ من عينيه دمعةٌ أوَّل ما دخل، وقد غلبه الحنين، إنّها هي.. غير أنّ السّقف أقربُ مما كان يشعرُ في طفولته والنافذة أخفض. أثاثُها على حاله وإنْ بدتْ عليه آثارُ السِّنين، ومازال فيها شيءٌ من المشغولات اليدويَّة التي كانت أمُّه تبرعُ في شغْلها، وبخاصَّةٍ سَجَّادة حائطٍ لونُها عُنَّابيٌّ، يتوسَّطها عُنقودٌ من العنب، واقترب وتفحَّص تآكلًا في صفوفٍ من خيوطِ الصُّوف في منتصف السَّجَّادة بعرضها كلّه، رفعَ عنها حَمِيَّة العُنَّابيِّ، وصِبيانيَّة العنب!.

وفتحَ النَّافذة، وأطلَّ على شجرة الرُّمَّان القريبة التي شاختْ، وتكثَّفتِ السَّرطانات على قاعدتها، وقد تركتْ حشرة حفَّار السَّاق حفائرَها على الجِذع. فترك النَّافذة مفتوحةً، واستدار وهزَّ رأسَه، واستسلم لنومٍ عميقٍ، حتّى أيقظوه للمأدبة.

الفصلُ السّادس عَشَر

جمعَ أبناءُ مصبح أهلَ النَّجع كلّهم للمأدبةِ رجالًا ونساءً وأطفالًا؛ مأدبة الرِّجال جلستها دافئةٌ حنونةٌ وهادئة، وبها شيءٌ مِن أنين الجرحِ، ارتاحتْ لها نفْسُ عاصم، وتجاهلَ الأنَّات. وسعد في حرجٍ بالغ، يتحاشَى النَّظرَ للعيون، والكلُّ على درجةٍ من الحياء ممَّا حدث، بمَا فيهم المنتصرُ الذي يجلِس وحدَه في جمْع المنهزمين، ونجوم الجلسة الحقيقيُّون هُم الضَّحَّاكون العابثون الذين يأخذونَ معظمَ الأمور على غير محْمَل الجدِّ بما فيها الهزائم، هؤلاء لطَّفوا الأجواءَ للمنتصر والمنهزمين كثيرًا.

وبعدها قامَ هوَ وإخوتُه إلى حجرة الضِّيافة، وأدْخلوا معهم زايدًا، وأغْلقوا بابها. وبادرَ سعد بخلع خاتمِه مِن يده وقدَّمه إلى عاصم: أنتَ المسكين ليسَ معكَ تراثٌ من أبيكَ.. هذا مِن رائحة الوالد. ابتاعه من جُدَّة بعد الحَجِّ.. فُصُّه عقيقٌ يمانيّ.. وأبوكَ كان يعتزُّ به كثيرًا.. وهذا أوَّل الكلام (**ملمِّحًا للحديث عن الإرث**).

وتختَّمه عاصمُ بعد إلحاح سعد، وقد سألهم برجاءٍ بالغ تلك الصّورةَ التي رسمها الفنان المالطي لأبيه في مجْلس الوالي، فأعْطَوه إيَّاها وهُم متعجِّبون من تذكُّره لهذا الشيء الذي لا قيمةَ له عندهم، ومن هذه اللّهفة

التي شدَّ بها الصّورة من أيديهم. وكلَّموه في أنْ يأخذ إرثه، لكنّه رفض تمامًا، ورجاهم ألَّا يفتَحوا هذا الحديث مرَّةً ثانية. وأعطَى زايدًا عشرةَ جنيهاتٍ ذهبيَّةً وأجلسَه بجانبه محتفيًا به كلَّ الحَفاوة؛ وقد ذوَّب قلبه اليوم بالشَّفاعة الدَّامعة، وقيله: يا جَدَّاه.

ومِن جانبه عرَض عليهم بإصرارٍ أنْ يدفَع ثمنَ إصلاح المعصرة، وثمنَ الزَّيْت المهراق، لكنّهم رفَضوا بشدَّةٍ، بل ووجدهم يصرِّحون جميعًا ببساطةٍ بأنّهم قد لا يفكرون في إصلاحها، وشرحوا له أنّ وقت هَدمها وبنائها من جديدٍ كافٍ لانْفلات السُّوق، ولأنْ يخسِروا المعتصرين، فتعجَّب من رُوح الجحود التي تلبَّستهم، وألحَّ على إصلاحِها، فردَّ عليه سعد بوجْهٍ جادٍّ، وهو ينظر للأرض بصوتٍ هادئٍ خافتٍ كمن لا يريدُ الاعتراف، ردَّ عليه بأنّها المعْصرة تجلبُ أرجلَ الغرباء للنّجع على زلعةِ الزّيت والزّلعتين، والإخوة الآخرون هزوُّا رؤوسَهم المخفضة مؤكّدين، وهزَّ عاصم أيضًا رأسَه المخفَض.

وبدأ أشقَّاء سعد مجتمعينَ متعاونين يحكون القصَّة، وما حدث خلالَ الثَّلاثين سنة المنصرمة، يراجعون بعضَهم بعضًا، ويدقِّقون التَّفاصيل، إلَّا سعد الذي اختار أنْ يكون آخرَ مَن يتكلَّم، وبدا أقلّهم حماسًا للبوحْ. وبعد أنْ أنهوا حديثَ الذِّكريات، أخذَ عاصم يكلِّمهم عن كلّ ما حدث معه: آلامه، آلام أمِّه، وما قاله حافظ مفسِّرًا لكلام سعد، والموت الذي اختطف أمَّه التي ذبَلتْ وانهارتْ بعد الطَّرد كأنما جسمها شمعةٌ واشتعلتْ، وكانوا يستمعونَ في حياءٍ شديد. ثمّ كلَّمهم عمَّا فتح الله عليه به من أسباب الرِّزق، وحاله في التِّجارة في القاهرة، وكيف سارتْ به رخاءً. وحدَّثهم عن علاقته بهؤلاء الرِّجال الذين أتوْا معه، وكيف أطْلعهم على ثأره في مأدبةِ عشاءٍ بعد عشْرِ سنواتٍ من الصّحبة، فهزُّوا رؤوسهم مُعجبين. وحكَى عمَّا حدث من المتقيِّئ، الذي لم يعرفْه إلَّا قريبًا، الذي عرف عنه بعد

ذلكَ في الطَّريق إلى النَّجع من أحد الرّجال أنّه يعاني من ضَنْك العَيْش، وجاء يوم المأدبة ليسأله قرضًا أو عملًا، ولم يكن قدْ أكَل طِيلة يومِه لقمةً واحدةً، ثمّ مشَى جائعًا كما دخل جائعًا. فضحِكوا وأثنوا على الرَّجل، وأوصوه به خيرًا. وضحِكوا كثيرًا من قصَّة جمعة، واستظرفوه، وتمنُّوا لو رأوه، هذا الذي نام في يوم الجدِّ. وساد صمتٌ، واتَّجهت عينا عاصم لسعد الذي مازال في صمته؛ وبدا أنّ سعدًا يريد أن يتكلَّم فِي أمرٍ ثقيل؛ ولم يبدأ من الأوَّل، حكَى سعد عن الحيلة التي دُبِّرتْ، حكى في خزيٍ عميق، كيف أنهم ادَّعوا سدادهم لحقوقِ صابرة وعاصم، وكيف خدعوا الشَّيْخين: مانعًا وحمَّادًا، حكَى بالتَّفصيل. وتكدَّر وجه عاصم، رغمًا عنه، ولم يستطعْ أن يبدي حلمًا يجب أن يتَّصف به من يسمع اعترافًا، تغيَّر وجهه لدرجةٍ تُوحِي بأنّ جلسة الصُّلح قد فسَدتْ. فقاموا جميعًا خلف سعد يقبِّلون رأسه، حتّى ابتسم ابتسامة المسامح المجروح. ولم يتخلَّ عن هذه الابتسامة لما هو أحسن منها، إلَّا بعد أنْ عرَف ما جرَى من سعد على الرَّجل المحتال الأفَّاق من استلابِ جمله بحمارٍ، فضحِك، وعادتْ له بشاشته..

ـ والله، يستأهل جَدِّي المقلَّد هذا!

وسألهم عن بهلول وخبره، فأخبره سعد كيف أغرقَه، وأقبره في الطَّريق، وكيف هدم الحجرة نُصْبًا له، وتعجَّب عاصم ممَّا فعلَ أخوه، ومِن نهاية بهلول على يدِ أخيه بعد علاقةٍ قويَّة. وبانَ عليه الضِّيق وهو شاردٌ في قصَّة بهلول، وحكَّ ذقنه وهو يحدِّث نفسه: (**لا. لا. عنّي أنا، فقصدتُّ أنْ أروِّعه فقط.. ولم أتخيَّل أنّه سيقفز خلفي في الماء.. هو قتلَ صاحبَه في الماء، أمَّا أنا فخوَّفت صاحبي فقط**).

ثمَّ حكَى لهُم باستفاضةٍ عن صديق العمر، صديقه حسَّان الذي ظلَّ لسنواتٍ يحاول أن يثنيه عن فكرة الانتقام، ويوصيه بأنْ ينسَى الإساءةَ

وألَّا يتورَّط في جُرْمٍ مع أهله، وكانوا يستمعون بإعجابٍ بالغٍ ويمدحون أخلاقَه وأصلَه.

ثمَّ وضع عاصم كفَّه على جبهته كمَن فاته شيءٌ؛ فقد تذكَّر على طارئ ذِكْره ما أوصاه به. وعندها أراد أنْ يمازِح سعدًا بما أعْطاه حسَّان، فذهبَ إلى الحجرة المجاورة التي وضَع فيها جِراب سَفَره، وأخرج العُلبة وداراها خلفَ ظهره، وفي اعتقاده أنّها ستسبِّب مرحًا ونِكاتًا.

ـ أرأيتَ ماذا أعطاني حسَّان لكَ يا سعد؟

ـ لي أنا؟!. ماذا؟

فأظهرَ العُلبة لسعد ولإخوتِه، وهو مبتسمُ الوجه، لا يعرِف بالتَّحديد بماذا سيردُّ أخوه..

ـ هذه عُلبةٌ ـ والله ـ لا أعرِف ما لها وما فيها.

وصعِق سعد لـمَّا رآها، وتحسَّسها بيده.

ـ مِن أين حصَل عليها؟ أهي له؟ إنّها تشبه عُلبةً أعرِفها كلَّ الشَّبَه، كأنّها هي!

وفتحَها ببطءٍ، وشهِق لمَّا رأى الحجرَ السّاكن بها، ودمَعتْ عيناه. ولم يتكلَّم رغمَ إلحاح عاصم، وإلحاح الإخوة، فتذكَّر عاصمُ الخطاب، فأخرجَه من جَيب الصّديري أسفلَ الثَّوب، وقدَّمه إلى زايد ليقرأه، الذي فتحَه، وأبدَى إعجابه بحسن الخطِّ.

ـ هو خطَّاطٌ يا زايد.. اقرأ بسرعة.

وقال سعد: نعَم، اقرأ وأسمِعنا.. لا أريدُ أن أُمنِّي نفسي. ولكن مَن يدري؟

وقفَ زايد وتنحنحَ وأخذَ يقرأ بصوتٍ يُسمِعهم جميعًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي وصاحبي عاصم،

أتمنَّى على الله القدير أنْ تقرأ هذه الرِّسالة وتُمعِنُ فيما فيها، وأنْ تنزِل عليكَ بردًا وسلامًا، وأرجو أنْ يكفَّ الله أيدي النَّاس عنكَ، ويكفَّ يديكَ عنهم.

لعلّه قد حزَّ في نفسكَ أنْ تناجينا أنا والشَّيْخ الأزهريُّ معًا، وما وجدت من فائض اهتمامه بي، وكان حريٌّ به أنْ يتولاَّكَ أنتَ كما ترَى؛ لعمر الله، أنا أوافقكَ الظَّنَّ تمامًا في أنّنا إذا ما ظهرنا معًا في أيّ صعيدٍ لما عبأ النَّاسُ بي، والتفتوا إليكَ، غيرَ هذه المرَّة يا صاحبي، عذرًا، هي مرَّةٌ لا أكثر. وأنا صاحب مأساةٍ تلهَّينا عنها بمأساتكَ.. قديمةٌ هي قبلَ زواج أمِّكَ من أبيكَ، وآنَ لكَ أن تعرفها، فلا يصِحُّ أن أعرِف عنكَ كلَّ شيءٍ ولا تعرف عني مأساتي وسرِّي، رغم طول العِشرَة.

نزلَ شابٌّ من العُربان ببيتٍ في حيِّ الأزهر، بيتٍ مبنيٍّ على بُرْجين: أحدهما نُزُلٌ يؤجِّره صاحبه لطلَّاب الأزْهر المغتربين وللتُّجَّار النَّازلين إلى القاهرة لعروض التِّجارة، والآخرُ لسَكَنه، ولم يكنْ معه في سَكَنه إلَّا ابنته الوحيدة التي تبقَّتْ له بعد وفاة ابنه الشَّابِّ.

وقد راقبَ هذا الشَّابُّ ابنة الرَّجل كلَّ مراقبة: وهي تنزل للحَوْش لتدفَع للسَّقَّاء أجرة الماء الذي ملأ به الأزيار، وهي تُساوِم الفخَّاريَّ في ثمنِ الطَّواجن، وهي أعلى السَّطح ترمي الحَبَّ للدَّجاج، وتسقي فرخ الحمام مِن فمِها. وشغف بها، ولا ريبَ أنّه غازلها حتّى مالتْ إليه. هي لم تحكِ لي إلَّا ذريعته الأولَى، لمَّا ناداها أن: يا صبيَّة– تكفين– فَرْدٌ عبَّاسيٌّ ضاع منّي، فتِّشي عنه بين حمامكِ. فعادتْ أمامَه بعد قليلٍ مرتبكةً وخجولةً تهزُّ رأسَها تنفي وجوده، ثمّ هرولتْ نازلةً.

وبعدَ أسبوعين من ضياع الفَرْد العبَّاسيِّ الذي لم يكن، تقدَّم لأبيها يطلُب يدَها، وكاد الرَّجل يرفُض، لوْلا ما شعَر به مِن تعلُّق ابنته الوحيدة بذلكَ الشَّابِّ الصَّغير، الطويل المهيب، المعتزِّ بذاته.

وعندما دعاه الرَّجل لأنْ يحضِر أهلَه لطلب الزَّواج، كما يفعل النَّاس، اعتذر له بأنّ الوالد في سَفَرٍ إلى غزَّة للتِّجارة، وطمأنه بأنّهم عائلةٌ ثريَّةٌ وعريقة، ولها صِيتُها في بلادها، وأنّهم يعرفون الأصول، وأنه سيحضِر رجلًا من أهلِه لطلب الزَّواج. وعاد بعد مدَّةٍ قليلة، بمَن امتعض الأب عندما رآه عند الباب، فقد جاء- على غير ما توقَّع الأب- بأخٍ له يصغره ليخطب له!؛ ولكنّ أخاه تكلَّم فأعجب، وعرض فطمأن، وقضًى على ما بقي في عزم الرَّجل من مقاومة، ووجدَ الرَّجل نفسَه محاصرًا برغبة ابنته الشَّديدة وبنَسَبٍ مشرِّفٍ وبمهرٍ غال، فنامتْ مخاوفه أو تناومتْ، وتمَّتِ الزِّيجة.

وتورَّد خدًّا (**رابعة**) من الفرحة، وعاشتْ أيامًا هانئة. وأخذها عريسها الشَّابُّ إلى خان الخليليّ- فقد كان مفتونًا بصنائع الجَمال يقِف الوقت الطَّويل محدِّقًا في التُّحَف رغم طبيعته الشَّديدة التي لا تُوحي برهافة حسٍّ- وعمِل لها هَديَّةً عُمولةً في أحد محالّ الخان، طرِب لفكرتها الصَّانع نفسه كلَّ الطَّرب، وجعلَ منها أنموذجًا يُطلب في الهدايا الثَّمينة، وهي هذه العُلبة من نُحاسٍ مشغولٍ، ومُكْحُلَةٌ من فِضَّةٍ، محفورٌ عليها اسمُ (**رابعة**)، وعلى تاج مِيلِ المُكحلة محفورٌ اسمه، وكذلكَ حجر كحلٍ، والحجر والمكحلة في قلب العُلبة.

ورجع العريسُ إلى بلدته، ثمّ إنّه عاد بعد مدَّة، فأخبره أبوها بأنّه لا بدّ وأنّ أباه قد عاد من غزَّة، وأنّه لا بدّ وأنْ تعلَم كلُّ عشيرته بالزِّيجة، وأنّه لم يظنَّ أنّه ينتوي جعل زواجه سِرِّيًا ألبتَّة، وأنّه يشعُر بقلقٍ من استسهالِه للأمور. وكان الشَّابُّ بطبيعتِه نافد الصَّبر، ناريَّ المِزاج، شديد الحماس، قويَّ العزم، وبدلًا من أنْ يتكفَّل أمامَ حميه بإبلاغ أهله خبر الزِّيجة، أصرَّ

على أنْ يأخذ امرأته معه وهي حُبلَى، وأنْ يواجِه أهله بزوجتِه، وأنْ يضعهم أمامَ الأمر الواقع. ورفَض أبوها؛ خوفًا عليها من صدمةٍ قد تواجهها، وحاول أنْ يفهمَه أنّه هو المنوط به وحدَه التَّمهيد والإقناع والمصارحة، وأنّه لا سبيل لحضورها ـ وهي شَّابَّةٌ صَّغيرة ـ موقفًا صعبًا كهذا، ودار سِجالٌ طويلٌ بين عاقلٍ وعنيدٍ، عنيدٌ يردِّد دائمًا: (**أنا عارف ماذا أفعل**).

وأخيرًا، غلب عنادُ الشَّابِّ حذرَ الشَّائب، إذ عادَ الشَّابُّ بعد مدَّةٍ، وأخذ التي أثقلتْ في هودج، ومضَى معها على جمَلِه. وطيلة الطَّريق كانت تلمح في عينيه فُتوَّةً وإصرارًا يفتنانها، وكانت تتفقَّد بفخرٍ وسعادةٍ الفطائرَ التي صنعتها بيديها لأحمائها.

وعندما وصَلا بجمَليْهما إلى حاضرةِ البلدة، ونظر إلى الصَّحراء عنْ يساره، بدأ يرتبك شيئًا فشيئًا، وشعَر بأنّ الأمر ليس بهذه السُّهولة. كانت مِن هَوْدجها ترقُبه وتشعُر بارتباكه، عندما ترجَّل عن جمله وقاده، وكَتِفاه قد رَميا لأمام، وظهره انحنَى، وعيناه تنظُران لليمين ولليسار بلا داعٍ، فتأذَّتْ من منظره، ونصَحته ـ وهي جزِعةٌ خائفةٌ على نفسها وعليه ـ بالرُّجوع، ولكنّه رفض وكابر، وأنكر قلقه بأنَفَة، وصعِدا وهي مضطربة القلب كلَّ الاضطراب. ثمّ إنّه أنزلها هناك عند المطلع، وأقعدها في حجرةٍ منعزلةٍ كئيبةٍ، على يمين الطَّريق؛ حتّى يمهِّد للمفاجأة، ويقنِع أهله. وصعِد ساحبًا الجملين، وهي تودِّعه بنظراتٍ وجلَى.

كان الجوُّ في هذه الصَّبيحة حارًّا رطبًا بعضَ الشَّيء، وزادتِ الحرارة والرُّطوبة شيئًا فشيئًا، وغاب الشَّابُّ ساعاتٍ من الصُّبح إلى الظَّهيرة!، والحجرة أضحتْ فُرنًا، والشَّابَّة الحُبلَى كانتْ تتململ في جلستها ذات اليمينِ وذاتَ اليسار، تتحسَّس بطنَها خوفًا على جنينها الذي أخذ يتقلَّب

كثيرًا؛ منزعجًا من الحرِّ. واضطربتْ أنفاسُها، ونزلتْ دموعها.. كانت ـ يا عاصم ـ كنبتة ظِلٍّ أُلقيَتْ في قائلة الصَّحراء.

كنتُ أنا هناك في بطنها، لم يُكتَب عليَّ دخول هذه البلدة؛ إذْ بعد السَّاعات نزَل زوجها كالـمُساق، خلفَ رجلٍ طويلٍ مهيب يبدو عليه الثَّراء، وهي ترَى قدومهما من بعيدٍ؛ فأحد جدرانٍ الحجرةِ متهدِّمٌ، والطَّريقة التي كان يسير بها زوجُها خلفَ الرَّجل قد أخبرتها الخبر وكفتها السُّؤال والفَجْأة. عندما وصلا إليها، ووقفَا أمامها، لم يكنْ بها أيّ طاقةٍ للكلام، ولم يكنْ لديها حتّى أيّ قدرةٍ على الغضب والاحتجاج. كانت آلامُ الحَبَل وهذه اليبوسةُ التي ألمَّت بها من الحرارة قد أصابتاها بِالهوان، لذا عندما سمعتْ من الرَّجل المهيب كلماتٍ باردةً تنمُّ عن شكه في أسباب هذا الزَّواج دونَ علم أهل الزَّوج، وأنّ وراء الأكمّة ما وراءها، مشيرًا إلى بطنها، ما كان منها إلَّا أنْ أخفضتْ رأسها للأرض، وطلبتْ أن تعود لا أكثر. فأمرَ الرَّجلُ الزَّوجَ الشَّابَّ بإعادتها مِن حيث أتَى بها، ويدفع لها بعض المال، مؤكِّدًا لها أنّ هذا لا بدّ وأنْ يتزوَّج ابنة عمِّه وحدَها، وأنّها ليس لها مكانٌ هنا، فلم تعترض ولم تستعطف، ولم تفكِّر إلَّا في بيتِ أبيها الذي صار كلّ الأماني. وحملها زوجُها إلى الهَودج، وأوصلها إلى باب البيت، وأنزلها وطلَّقها وعلى وجهه خزيٌ ومذلَّة، وعاد قبل أن يرَى أباها.

ونالتْ هي الكثيرَ من سُخرية الجيران، الذين قالوا عنها إنّها: (**رجعتْ بفطيرها**). وغضب أبوها غضبًا شديدًا، وأزبَدَ وأرْعدَ مع نفسه بلا طائلٍ، ثمّ إنّه بدأ يفكِّر في إصلاح ما خرَّبه الشَّابُّ الحماسيُّ، فلم يجد حيلَةً إلَّا أن يسأل عمن يعرف هذا الأب، فأرشده النَّاس إلى رجلٍ من (**الغوريَّة**) يعرِف هذا الشَّيخ العربيَّ أبا الشَّابِّ، والذي وافق على التَّوسط بسَعة صدرٍ؛ وقد أشفق على الجَدِّ وعلى رابعة المسكينة وعلى جنينها، وقد بذل ـ والحقُّ يقال ـ جهدًا كبيرًا لإفهام الأبِ أنّ هؤلاء

النَّاس محترمون، وأنّ كريمة الرَّجل **لا** غبارَ على سمعتها بتاتًا، وأنّهم أيضًا مستورون وأصحابُ أرض زراعيَّةٍ في قريتهم (**بولاق الدَّكرور**)، ولكنّ الأب رفض تمامًا، وأصرَّ على أنّ ابنه لن يتزوَّج غير ابنة عشيرته، ولن يردَّ المطلَّقة، وأبدَى تعجُّبه من موافقة أبي الفتاة على أنْ يزوِّجها من شابٍّ صغيرٍ من وراء ظهر عائلته، ورأى في ذلك رُخْص معدنٍ. وانتهَى أمرُ الوساطةِ على ذلكَ، وانكسرتْ نفس جَدِّي، ولامَ نفسَه على هذه الزَّلَّة الكبيرة مِن تساهله في الموافقة على هذه الزِّيجة.

ونشأتْ صداقةٌ بين جَدِّي وهذا الرَّجل واسطة الخير: جدُّكَ. وأبي هو سعد الذي تكره كلَّ الكراهية. ولطالما سمعتُ منكَ عنه كلامًا مؤلماً وسبابًا. كنتَ تزرَع الإبَر في جسدي، فأتحمَّل دون أن أسمح لنفسي بأنْ يتغيَّر وجهي، فتشكّ في أمري.

وكان الأمرُ قبل أنْ ألقاكَ ماضيًا مَيْتًا، لا أشمُّ له رائحةً في أنفي، كرَيْحانةٍ تبدو ميِّتةً في الطِّين، ولكنكَ هززتَ عودها وهززتَ وهززتَ فشممتُ، أنت الذي بذرتَ بَذرة عاطفةٍ أخذتْ تنمو داخلي تجاهه، لقد جعلتَ الأشياء النَّائمة تتمطَّى سامحكَ الله؛ بكَثرة كلامكَ عنه وكُرْهكَ له. جعلتني أتلمَّس له الأعذار، وأشعُر بما يشعُر به الإنسان عندما يستمع لمن يذمُّ أباه، وأحييتَ بي إحساسي بأن لي أبًا.

اغفرْ لي عجزي أنْ أكرَه مَن تكرَه، ولكنْ تذكَّر أنّه يُحسَب لي أنّني- لعينيكَ- لم أكرَه مَن تحبُّ، لم أكرَه الشَّيخ مصبح، رغم أنّه سبب مأساة أمِّي ومأساتي.

وعليكَ أنْ تعرف أنّ جَدِّي وجَدَّكَ ظلّا صديقين حميمين لفترةٍ، ولكنْ عندما فعل أبوكَ ما كان ينهي عنه، وراقَ له ما كان قد حرَّمه على ابنه، وتزوَّج الغريبة (**صابرة**)؛ عندها غضِب جَدِّي على جَدِّكَ، ولامَه لومًا شديدًا على أنْ زوَّج ابنته إلى ذات الرَّجل الذي ظلم ابنته الوحيدة رابعة،

وحطَّم فؤادها، وجعلَ منها مَزحةً على أفواه نساءِ الجيران ومثلًا يُضرَب على الفشل العاجل للزِّيجات. وحذَّره من نفس المصير، ولكنّ صابرًا لم يأبه لذلكَ؛ فصِهره هو شيخُ العشيرة، ولن يوجد مَن يمنعه عمَّا يريد.

وربّما ظنَّ صابر أنّ في الأمر غيرةً، فانقطع الودُّ تسع سنواتٍ بلا سلام ولا كلام. حتّى مات أبوكَ وحدث ما حدث، ورجعتما مكسوري الفؤاد، وحزِن جَدِّي على ترمّل أمِّكَ وطردها كلَّ الحزن، وحزِنتْ أمِّي أيضًا حزنًا شديدًا على صابرة التي تعرَّفتْ إليها فترةً من الزَّمن، تحديدًا منذ بدأ جَدُّك يتولَّى الوساطة، حيث حكتْ لها عن هذا الرَّجل المهيب شبه الأمير الذي كان يسير طليقها خلفَه مستكينًا، وربما أوقعتْ في روْعها بغير عمدٍ شيئًا من الإعجاب به.

حزِن جَدِّي، ولكنّه لم يفكِّر في مواساة جَدِّك؛ خوفًا من شبهةِ التَّشفِّي. ولكنْ لمَّا ماتتْ أمُّكَ، فُجِع جَدِّي وأمِّي، وارتأيا أنّه لا يصحُّ ألَّا يُواسَى صابرُ المسكين، فعاد جَدِّي لجَدِّك يواسيه، قابله في بَدء اللِّقاء ببرودٍ؛ متخوِّفًا من أنْ يكونِ العائدُ قد جاء شامتًا. وعندما تأكَّد مِن حُسن نيَّة جَدِّي وطيب عاطفته بكى، وقال له:

ـ تعالَ أحُطُّ خَيْبتي على خَيْبتكَ يا إسماعيل يا دكروري.

يا عاصم، أنت خَيْبة جَدِّكَ، وأنا خَيْبة جَدِّي، وقد حطَّاكَ على ظهري ولم يرحماني.

ولكنّي أنظرُ إليكَ، وأنت نائمٌ أمامي الآنَ في الحَوْش، وأرَى في ملامحكَ عزمًا ليس عندي، وأراكَ قد ورِثتَ من أهليكَ شدَّة مَراس البدو وخَوْضهم في الشَّدائد، ولم أرِث أنا من ذلكَ شيئًا. تبدو حازمًا حتّى وأنت نائم، لذا قلتُ لنفسي: مَن يدري؟ لعلّ الله قد حطَّني على ظهركَ.

لنعدْ مرَّةً أخرَى للمُطلَّقة التي رجَعتْ بفطيرها، مرَّتْ أيامُها الأولَى بعد عودتها وهي في حلمها لم تفق، والعُلبة النُّحاسيَّة وبها الحَجرُ دسَّتها

في خزانتها، بينما وضعتِ المكْحُلة علي المِسرَحَة أمام المرآة، تتحسَّسها بأناملها كأنّها تحادثها. ثمّ اختفتِ المكحُلة من مكانها، فكادتْ تسقُط مغشيًّا عليها. ولا بدّ أنّ الذي أخفاها هو جَدِّي؛ خاف مِن تعلُّق ابنته بهذه الذِّكرَى فتحطمها. استحيتْ هي أن تُبدي جَزَعًا على ضياع المكْحُلة أمامه، بحثتْ خُفْيةً ليومين في حاجات جَدِّي ورفوفه دون جدوَى، ثمّ استحيتْ من نفسها أنْ تبحث عنها. وبعد مرور عام على ميلادي، زوَّجها جَدِّي لأحدِ أقاربه، شابٌّ أرمل ليِّنٌ طيِّبٌ دمِثٌ، لا يكاد يشيرُ على الإطلاق بما يجب طَبْخه وما يجب غسلُه ورَفوَه من الملابس، سئمَتْ هدوءه وصوتَه الهذيب، ولينَ جانبه. وقد كنتُ رضيعًا لا أعي ما يدورُ حولي، ولكنها حكتْ لي بعد ذلكَ كلَّ شيءٍ: نفورها الهادئ منه رغمًا عنها، وحَسْرته الخفيَّة من صدِّها. فعجِبتُ أنا من وفائها رغمًا عنها للنَّاريِّ المِزاج الذي نطفني وذهب، ونشوزها الذي لا حيلة لها فيه عن هذا الرَّجل الطَّيِّب، حتّى طلَّقها.

ومضتْ مدَّةٌ، استفاقتْ فيها من أحلامها، وهدَأتْ مشاعرها، ونضِج عقلها، وانقشعتْ من ذهنها صورة فتاها، وعادتْ لطليقها الطَّيِّب وعاشتْ معه للآن بتوفيق ورعاية الله. راحتِ الأشياء الدَّافقة الحارَّة الطَّاغية التي تبدو قادرةً على البقاء وجديرةً بالبقاء، راحتِ الأشياء الثَّمينة، وبقِيَتْ أشياء أخرَى طيِّبةٌ ورحيمة.

إذًا.. ضاعتْ المكْحُلَة من قارورةٍ ومن مِيلٍ، ولم يبقَ إلَّا الإثمِد حجر الكُحل، وبقِيتُ أنا كذلك؛ يذهب الوَهَج والبريق والفخامة والمتانة والنَّفاسة، وتبقَّى الذي غشيته السَّكينة.

هذا أمرُ أمِّي رابعة التي تحبُّها واخترتها خالةً، رابعة التي لا تعرِف أنت أنّها طليقة أخيكَ، والتي تسعَد بزيارتها معي في القرية، وتجلسان معًا تشتكيان من النَّاس والدُّنيا، وتستمع لتباريحكَ بأذنٍ صاغيةٍ، وكنتُ أدخلُ

عليكم، وأقول لكما ضاحكًا: على مَن تعدِّدان؟، فتضحكان ويضحك ثالثكما زوج أمِّي محبُّ الصَّمت.. هذه رابعة التي كانت ـ ومازالت ـ تأنس إلى زيارتك جدًّا، وتقول لك عندما تعود بعد انقطاعٍ: طوَّلتَ الغَيْبة يا حزين، فتضحك مِلء قلبكَ.

هذا هو أمري، فإنْ قبلتَ أنْ تجيز لي هذه العائلة، وترفَع يديك عنها؛ فلنْ أنسَى لكَ هذا، وأعدكَ ـ إنْ أردت ـ ألَّا أرَى أبي أبدًا حتّى أموت، ولكنْ أتمنَّى عليكَ أن تسامِح، إنْ كان لي عندك قدْرٌ ما، وهذا آخرُ ما في جعبتي لأمنعكَ عمَّا انتويته. وكلّ ما أقوله حقٌّ، والله شهيدٌ.

فإنْ قبلتَ هذا من أجلي أنا صاحب عمركَ، فهذه الهديَّة علامةٌ، وإنِ استطعتَ أن تقدِّمها له فقدِّمها، فإنْ لم يأبه بها فلا تقُلْ لي ذلك. تهرَّبْ من الإجابة، وادَّعِ أنّكَ نسِيتَ أن تعرِض شيئًا عليه، لأبقَى بدونه كما تعوَّدت.

أنا جرحي قديمٌ، ولم يعبَث به إلَّا أنتَ يا عمِّي عاصم، وأنا لمَّا شاهدتُّ إصراركَ على المُضيِّ إلى آخر الطَّريق بعزيمةٍ أفتقدها، وأنا خلفكَ أحاولُ أن أمنعكَ، قلتُ: مَن يدري؟ هاأنذا أحاول أن أنقِذكَ من الغرق في ماضيكَ هذا، ولعلّ الأمر ينتهي بأنْ تنتشلني، كما حدث بيننا في النّيل من قبل.

أنا ـ والله ـ خائفٌ عليكَ وعليه، وخائفٌ أنْ تتكلَّم، وخائفٌ ألَّا تتكلَّم، لكنْ سأتخلَّى عن حيائي وأعشَم فيكَ بعد أنْ قضينا عمرًا معًا وأنتَ تنقم عليَّ أني لا أعشَم فيكَ ولا أسألك شيئًا ألبتَّة، لذا أقول: حاول يا عمِّي، حاول لعلّه يحبُّ أن يسمع هذا الخبر، لعلّه.

واعلمْ أنّني لم أخفِ عنكَ هذا عبثًا؛ إنّما كانت هذه تعاليم جَدَّينا، وهما اللّذان كما تعلم عرَّفاني لك، وغير هذا، لم أكنْ لأجرؤ على أنْ أقول لكَ إنّي ابنُ خَصْمكَ اللّدود؛ فربّما تبتعد عني. وقد خِفتُ ممَّا كلَّفاني به من حُسن مُصاحبتكَ باعتبارنا قريبين، خِفتُ من أنْ تسألني عن والدي

فأرتبك، ولكنكَ سهَّلتَ الأمرَ ولم تسألني قطُّ!، وأنا كنت أصاحبكَ وفي قَرارة نفسي أنّ هذا الصَّاحب عمِّي، وتمتَّعتُ بعمومتكَ دون أنْ تدري، فسامِحْ فيما أخذته منكَ بغير إذنٍ: عاطفةٌ أخرى بجانب عاطفة الصَّداقة.

ما عرِفته الآن لا يعني أنّكَ لم تعدْ وأمُّك مظلوميْن، ولكنّكَ الآن أفهَم لما حدث عمَّا قبل. أنا صرفتكَ مِن عند نافذة صابرة التي تطلُّ منها على الماضي، صابرة التي لم تشأ أنْ تحكي لكَ شيئًا عمَّا حدث لرابعة؛ ربّما لصِغر سنِّك، أو لتمنعَ عنك التشتُّت، أو لأنّها رأتْ أنّ هذا ليس من صُلْب قصَّتها. أخذتكَ من عندِ نافذتها، وهذا قد يؤلمكَ حينًا، ولكنْ لن يؤلمكَ للأبد.

سأنتظرُكَ في هذا الحَوْش حتّى تعود، وأنا خائفٌ من الوجه الذي ستعود به، خائف من أن تعود بوجه قاتلٍ.

واعلمْ أنّني غلبني الإجهادُ من السَّفر، ولم أتمارض؛ لذا لم أستطعْ أن أُكمِل الطَّريق معكَ، ولو كنتُ معافًى ما ذهبتُ أيضًا؛ فلا أحبُّ أنْ أرَى سيفكَ يقطُر من دم أبي وأعمامي، إخوتك، وأتمنَّى لو تعود سالمًا، ويسلم أهلُكَ منكَ، لا أعرِف كيف، لكنّ الله على كلِّ شيءٍ قادرٌ.

والسَّلام ختام

ابنُ أخيكَ حسَّان

أخذَ الحاضرون يضربون كفًّا بكفٍّ تعجُّبًا، حتّى أنّ زايدًا قلَّدهم بكفَّيه الصَّغيرتين، وأخذ عاصم يضحك ضحكًا صوتًا لا ملامحَ له، يتخلَّله صمْتٌ فُجائيٌّ، والبقيَّة من الإخوة غير قادرين على الكلام، وسعد الذي ألجمته المفاجأة المذْهلة، كان في حالةٍ أخرى من الارتباك واللَّوثة

والتَّخبُّط. ظلَّ الكلُّ حيارَى لا يدرون ما يجبُ فعله، بل حتّى ما يمكن قوله. ثمّ بدأ سعد يعتُب على عاصم أنْ ترك صاحبه- الذي هو ابنُ أخيه- مريضًا واستأنفَ مسيرتَه، وأكَّد له عاصم أنّه ممراضٌ، وأنّ الأمر لا يعدو كوْنه إجهاد سفرٍ.

أصرَّ سعدٌ على أنْ يذهب وحدَه لإحضاره، وأقسم ألَّا يذهب معه رجلٌ، ولا عاصم نفسُه، بل وأقسمَ ألَّا يذهب تلقاءَ ابنه إلَّا مشيًّا حافيًا. وذكَّره عاصم وإخوتُه بطول المسافة التي لن يستطيعَ قطعها مَشيًا، ولكنْ لا فائدة.

سَرْعان ما أطلعوا أبناءهم على وجيز الخبر، ثمّ إنّهم أفهموا أخاهم أنّ الشَّباب من أبناء الإخوة ها هُم يعدُّون الضَّامرات لإحضار حسَّان، فليمكثْ وعليه كفَّارةُ يمين، إلَّا أنّه بعد الجدال أصرَّ على أنْ يذهبَ لابنه ويتلقَّاه في الطَّريق وهُم عائدون به. وانطلقَ سبعةٌ من أبناء إخوةِ سعد من مَهَرة الفرسان، انطلَقوا بعد أنْ طلبوا مِن الحاضرين مِن الآباء والأعمام أنْ يعطِّلوه لأطول وقتٍ، وإلَّا مشَى مسافةً طويلةً جدًّا قبل أنْ يعودوا بحسَّان، ولكنْ حتّى هذه فَشلَ الإخوةُ فيها، وقد رَكِبه عنادُه المعروف، وأخذَ غازي ومفلح يحتجَّان عليه وينْعيان عليه رأسَه اليابس.

وخرجَ آل مفلح كلّهم، ينظرون للشَّيخ الصَّلب القويِّ الشَّكيمة، الذي أوذِي اليوم أذًى عظيمًا في ذاته، ينظرونَ له وهو يكاد يهذي، ها هو يوليهم ظهرَه حافيًا ذاهبًا لاستقبال ابنه غير عابئٍ برجائهم. وقد تعجَّبوا من القصَّة التي كانت خَبْء أبناء مصبح ولا يعرفُها غيرهم، قصَّة زواج سعد قبل زواجه من ابنةِ عمِّه، وقصَّة ابن سعد الذي لم يعترف به مصبح.

وعندما نزَل إلى مسافةٍ طويلةٍ على المطلع، أشارَ زايد على أمِّه وجَدَّته بأنْ يلحق بجَدِّه؛ حتّى يضطرّه للاستراحةِ كلّ حين، فأعجبتْهما الفكْرة، وضربتاه على ظهرِه مشجِّعتين فانْطلق، وجرَى واضعًا ذيْل الثَّوب بينَ

أسنانه، حافيًا كجَدِّه. وكلّ هنيهةٍ يضعُ ذيْل الثَّوب عنْ فيه ويزعق بجَدِّه من بعيدٍ لكي ينتظرَه، وقد غشِي اللَّيل ونشرَ ثوبَه الجليل على الصَّحراء والرِّيف أمامه، والجَدُّ لا يسمعه من انشغاله بلقاءِ ابنٍ لم يره قطُّ. والحفيدُ في قلَقٍ لمَّا اقترب من قبر بهلول الذي عرِف قصَّته اليوم، ولم يكن قد وضعَ في حسبانه هذا الأمرَ عندما انطلق. وهنالك خيَّل له خَيَاله قبيلةً من النِّساء ينسِلن من القبر يرتدِين قمصانًا حُمْرًا مخصَّرةً زاحفات إلى المطلع، يرِدن أن يتخطَّفنه، ها هنَّ قدِمن إليه، أحطنَ به، يقبِّلنه عَنوةً. وإذ فقد عفَّته، جررنْه من ثوبِه إلى بهلول؛ حتّى ينتقم فيه من سعد.

ـ والله يا عمّ بهلول هنَّ اللائي..

ـ اخرسْ يا سافل يا رقيع.

ولمّا أشهر خنجرَه في وجهه، انتبه سعد للصَّبيِّ الخياليِّ الرَّاكض خلفه، وفتحَ له ذراعيه، فتعلَّق بكمِّ جَدِّه وهو مضطربُ الأنفاس. وانتهره جَدُّه ليعود، فذكَّره زايد بأنّه أقسم ألَّا يتبَعه الرِّجال لا الأطفال، وعندما أعادَ عليه الأمر بالرُّجوع، قالها له صريحةً: لن أعود.

وعجِب الجَدُّ من حفيده الذي يعصي أمرَه لأوَّل مرَّة، أمَّا زايد فكان في نفسه يقول: (**قتل قتيلًا على الطَّريق ويريد منّي أنْ أعود وحدي!**).
ومضَيا حتّى أنهَيا المطلع، وانحرفا يمينًا ومضيا على الدَّرب ساحل التّرعة.
وقال لحفيده كأنه يكلِّم نفس..

ـ أراكَ فهِمتَ ما في الرِّسالة، وما قاله عاصم عنه.. إنّه ذكيٌّ وصاحب علمٍ وشريعة!.. رجلٌ ذكيٌّ لبيبٌ!.. أراكَ متأكِّدًا من ذلكَ أيضًا.

ـ حقًّا.

ـ وخيِّرٌ حليمٌ مثل أمِّكَ.. أختِه.

- نعم.. ولكنّ أمِّي أحسن واحدةٍ في الدُّنيا.
- ولعلّه مليحٌ مثل عاصم.. وصاحب هيئةٍ.
- لعلَّه.

ثمَّ أبدَى انزعاجًا: ولكنه- على ما يبدو- ضعيفٌ.

وسكتَ فترةً وعيناه ظمآنتان لرؤية الابن، وتبلِّلهما الأمنياتُ بلمعةٍ شاردة، ثمّ نظر للسَّماء حييًّا خائفًا مترجِّيًا

- أعلَمُ يا ربِّي مسْلكي وجرائري منذ أيّام الفُتُوَّة.. أنتَ لوَّحتَ لي اليوم بهَديَّةٍ.. نفسي تكاد تتركني هافيةً إليها.. لا يا ربِّي لا.. هو مريضٌ في الحَوْش وحدَه يمسك جنبه.. لا أظنُّكَ ستخفيها عنّي بعد أنْ أطمَعْتني فيها.. المذْنبون أيضًا يطمَعون في كرمِكَ وأُعْطياتكَ.. لا أراكَ ستفجَعُني فيه.. أرجوكَ يا ربّ لا تقصِم ظهْري.. رحماكَ.. رحماكَ.

سكَت فترةً، ثمّ بدأ ينادي ولدَه رغم أنّه في بلدٍ آخر!، ممَّا أثار شفقةَ زايد، فبدا صوت زايد في ندائه خلفَ جَدِّه وكأنّه يكاد يبكي.

- يا حسَّان يا ولدي..
- يا خال حسَّان.
- يا حسَّان
- يا خال حسَّان.

وعلى ما يبدو من اختلاف النَّبرتيْن، إلَّا أنّ الحزن والرَّجاء جمعاهما في باقة منسجمة: زئير أسد عجوزٍ فيه شرخٌ، وراؤه تغريدٌ به رنَّةٌ وشجن. وعينا الطِّفل بلَّلتهما دموعٌ رقيقة، وكفُّه ضائعةٌ في كفِّ جَدِّه الضَّخمة.

ومضَيا معًا يجلِّلهما الصَّمت، ويعاود سعد نداءه، وخلفَه زايد. وزايد كلّ حين يشتكي من التَّعب ويجلسُ على جانبِ الطَّريق؛ مضطرًّا

جَدّه للجلوس، وهكذا مرَّاتٍ ومرَّات، والوقت يمرُّ ببطءٍ، والأقدامُ كلَّتْ من المسير، والعيونُ في يقظتِها اللَّيليَّة تنظرُ للأرض؛ تحذَر نبات السِّلَّة الشَّوكيَّ. ثمّ بدأ على يمينهما شريطٌ زراعيٌّ ضيِّقٌ توارتْ خلفه صحراء واسعة.

وبعد مدَّةٍ طويلة، ظهرَ سوادٌ من فرسانٍ قادمين صامتين، يُعلِن عن قدومِهم وقع السَّنابك وحمحمة الأحصنة، وكادَ قلبُ سعد يتوقَّف وهو ينْتحي جانبًا، منتظرًا ملاقاتهم، راجيًا أن يكونوا بني إخوته، وراجيًا عودتهم بحسَّان معافًى. ووصلوا إليه وعرفوه

ـ أين حسَّان؟

ـ قادمٌ خلفنا مع بكر، قلنا: نسبقهما ونبشِّرك.

وانتظروا جميعًا، حتّى أتَى الفارسان من بعيدٍ ووصلا. وقفز حسَّان من أعلى صهوة حصانِه، واقترب أبوه منه، وأخذا يضْحكان ضحكاتٍ واهنةً خجلَى، واحتضنَه أبوه بعنفٍ، ثمّ أخذ يتحسَّس وجهه..

ـ تشبه أمَّكَ يا حسَّان.. كيف حالها؟

ـ بخيرٍ.

ـ مسَّاها الله بالخير.. ألا زالتْ خفيفة الظِّلِّ؟

فقال مبتسمًا: اسأل عاصمًا.

ـ أخاف أنْ أكون في حلم.. آه حسَّان، يا ليتك جئتني منذ زمنٍ.

فقال حسَّان بحياء: أنا الذيً يوَدُّ أنْ يسألكَ: لماذا يا أبي لم تأتني منذ زمنٍ؟

فقال وهو يربِّت على كَتِفه: أنا ذهبتُ لجَدِّكَ بعدها، وطرَدني، وقال لي: إنّ لي ولدًا يُربَّى في بيت رجلٍ آخر تزوَّج مطلَّقتي، ولنْ يخبرني حتّى باسمه.

- حظِّي هكذا!.. وأنت لكَ كلّ هذه العاطفة تجاهِي التي لم أكنْ أتوقَّعها!.. يا ليتكَ حاولتَ أن تلقاني.. يا ليتكَ حاولتَ مرَّةً أخرى.

فنظر له سعد معتذرًا، وأشار إلى قدميه: يا ولدي، حفيتُ عليكَ.

- أخبرني الشَّباب وتعجَّبتُ جدًّا، واستكثرتها على نفسي.
- الغالي يرخص لكَ.

ثمَّ نظر له نظرةً عاتبةً، ارتبكَ منها سعد الذي لا يريدُ أن يخسرَ ابنه الذي عاد إليه اليوم. ثمّ قال..

- عذَّبتَ أخاكَ.. عذَّبته.
- يا ولدي، هذا يومٌ عجيب؛ فيه أسوأ حادثة، وأسعد حادثة، وأنتَ صبورٌ حليمٌ كما عرفتُ. أجِّل عتابًا لغدٍ حتّى أستردّ أعصابي، أنا هامدٌ الآن.

ثمَّ أكمل حتّى يغيِّر مجرَى الحديث: وما الدَّكروريُّ هذا! (**وقد ضربه مداعبةً على بطنه**).

- لقد أسماني جَدِّي اسمًا مركَّبًا؛ حتّى أنسَى.
- ثمّ عرَّفكَ على عاصم حتّى لا تنسَى (**قالها ضاحكًا**).

وتعرَّف حسَّان إلى زايد الذي سمع عنه من الشَّباب في الطَّريق، واحتضنه.

وفرِحتِ القرية بهذا القُدوم، واحتفل النَّاس بهذا اليوم العجيب الذي عاد فيه الطَّريدان، وكانوا في قمَّة تعجُّبهم ممَّا حدث، وتقابل عاصم وحسَّان في حضنٍ باكٍ.

- جعلتني في سنّ الغُرور أظنُّ في نفسي أنّي صاحب هيبةٍ طاغيةٍ، وأنت تُعامِل عمَّك!

ـ مفاجأة؟

ـ لكنْ أنا الذي حملتكَ على ظهري دونَ أن أدري، طيلة كلّ هذه السِّنين، مِن قبْلِ أن ألقاكَ، لأعيدكَ لأبيكَ، لأُقدِّم لسعد الذي كنتُ أكرهه كلَّ الكراهية أغلَى هديَّةٍ، بعد أنْ أُذيقه الخوف.. سبحان الله!

وعلَّم أهل البلدة أبناءهم ألَّا يحكوا لأحدٍ عن الغارة إذا ما نزَلوا إلى (**تحت**)، وهو التَّعبير الذي نطلقه على الرِّيف المجاور، وأنّ الحريق الذي حدث للمعصرة لا يُعرَف له سببٌ، ولم يكن للأطفال حاجةٌ للتَّلقين على الإطلاق.

وفي اليوم الثَّاني، بعث عاصم برسالةٍ مع إحدَى القوافل إلى (**إبراهيم**) يُطمئِنه. ويتمنَّى عليه ألَّا يدرِّس المعركة لأحدٍ، وأنْ يحضَّ بقيَّة الفُتُوَّات على كتمانِ أخبارها تمامًا لأجل خاطره. وأن يُرسِل المتقيِّئ إلى مساعده ليوظِّفه فورًا، وأنْ يأمر الخَدَم برمي الصَّبَّار من فوق السَّطح. وكذلك بعث حسَّان برسالةٍ لأسرتِه يُطمئِنها ويشرحُ لها ما حدث. وبعد أنْ مكث عاصم لأكثر من أسبوعٍ، اختار بالطَّبع الرُّجوع للقاهرة؛ حيث أملاكُه وتجاراته. وقد حاولوا إقْنَاعَه بالمكوث، لكنّه رفض، ورأى أن النَّجع صغيرٌ جدًّا. واصطحبَ معه حسَّانًا الذي ذهب لإحضار أهلِه ليعيش بالنَّجع، بعد أَن تعاهد هو وأبوه على أَلَّا يفترقا أبدًا.

وقد فاجأ عاصمًا أمرٌ عند عودته: فقد قال له مساعده الذي أتاه إلى بيته بعد وصوله بقليلٍ ليعطيه مُوجَز الأخبار

ـ البعيد سيِّدٌ هرَب من مخزن الفحْم منذ خمسة أيام، بعد أنْ باع لحسابه بعضَ البضاعة. ولكن أين يذهب؟!.. يمكننا أن...

فقاطعه: أيّ أخبارٍ أخرَى؟

ـ وجمعة ـ الدَّوام لله ـ مات منذ أربعة أيَّام.

وفي أصداء الصُّلْح والتَّخلُّص من عبء الماضي، ارتاح عامَّةً مِن أن طائري الحزن قد غادراه. وإن تأمَّل بعقله الذَّكيِّ الحسَّاس وفي طاقةِ ثقافته السَّاذجة، في مغزَى مغادرتهما بفارق خَفقة جناح، وكأنّه كانت تتأرجحُ بهما رافعةٌ عجيبةٌ يقفان على طرفيها؛ وفرَّ أحدُهمًا فهوَى الآخر!. وكأنّ العلاقة بينهما أعمقُ ممَّا كان يتخيَّل، والحادثة كانت تجليًا قدريًّا لها.

عادَ عاصم، غير أنّه عاد بروح أخرى منعَّمَة، ونامَ قريرَ العين؛ وقد غادره كابوسه العتيق. وتبادل مع أهله الزِّيارات في المواسم، وأحسن استقبالهم عنده في بيته، وقد أتوه أوَّل مرَّةٍ جميعًا ومعهم حسَّان وزايد، ومن بعد ذلك باعَ بيته وسكنَ بقاهرة الخديوي الحديثة، ثمّ حصل على رتبة الباشوية.

أمَّا حسَّان فأحضرَ امرأته وأولادَه، وعاش في وادي مفلح عزيزًا مكرَّمًا، وامتلك قطعةَ أرضٍ وبيت عثمان، وتاجَر مع أبيه. وقد ساهمَ مساهمةً عظيمةً في التَّعليم في نجع مفلح، وهذا كان دأب أخته هالة من قبله في تعليم الأطفال. وأسرج مصباح عثمان للدُّروس والعِظات واجتمع النَّاس إليه، كما اجتمع آباؤهم إلى عثمان منذ ثلاثين عامًا، وما ترك الكتّاب ولا الخطَّ العربيَّ حتّى آخر عمره.

وقد استمع زايد للكلِّ مرَّةً ثانية، واستمع لحسَّان، واستمع لعاصم بتأنٍّ، وسأل عن كلِّ التَّفاصيل، ليحفظها في ذاكرته القويَّة لينقل القصَّة لما يليه من الأجيال، بعد أنِ ائتمنوه جميعًا عليها. حتّى انتشرتْ من جهتِه ومن جهة الآخرين، ولكنْ في نطاق الوادي، ولم تتدحرج لما (**تحت**) قطّ، كانت محجوزةً خلف الكثيب.

وقد تسلَّل شهودُ هذا اليوم المشهود جيلًا وراء جيلٍ إلى الجبَّانة، القنوع والطَّموع، والفَتَى النَّاهض والشَّيخ الحَرَض، والبشرٍ العابر والفرد الاستثناء، وتسلَّل إليها هؤلاء الذين كان رزقهم فيه من أثداء أمَّهاتهم.

تسلَّل شهودُ هذا اليوم المشهود من آل مفلح إلى الجبَّانة، على يسار الدَّرب القديم الذي كان يفضي إلى محَلَّة هارون، محطَّة القوافل القديمة. والتي صارت أرضها كتلةً من المساكن المتلاصقة التي شكَّلتْ حيًّا ملتبِسًا، لا هو بالرِّيفيِّ ولا هو بالشَّعبيِّ، حيٌّ عمره أقلّ من الخمسين عامًا، جاء سكَّانه من كلِّ حَدَبٍ وسهل، حتّى لم يعدْ في الخلاء القديم الفسيح مكانٌ صغيرٌ خاوٍ. والدَّرب من الوادي إلى المحَلَّة لم يعدْ مطروقًا كسالفِ عهده. ولا يتخيَّل قاطنو هذا الحيِّ الجديد نسبيًّا ـ والذي له اسم جديد مثله ـ أنّه من ناحية هذه الصَّحراء، كانت القوافلُ تنزل من وادي مفلح تحمل الميرة، معلنةً عن قدومها برغاء الإبل الصَّاخب المتواصل، فتفرُّ الثَّعالب الظَّريفة التي كانت في طريقها لسرقةِ المزارع، وأنّه في هذه النَّاحية كانتْ تبرُك إبلُنا رائحةً وغاديةً لمَّا كانت المحَلَّة هي ميناؤنا البريُّ في زمن القوافل. وإنهم ليعجبون كلَّ العجب عندما يسمعوننا حين نقولُ عندما نقابلهم في المباريات، وكذا مذيعنا الدَّاخليُّ في كوزه المخروم: إنّنا نلاعب الفريق الألمانيَّ لمحَلَّة هارون، ويعلِّقون ضاحكين: نحن لا نعرف محلَّتكم هذه.. ولا نعرف هارونكم ذاك مطلقًا.

وفي العام ١٣٩٦ الهجريِّ الموافق للعام ١٩٧٦ الميلاديِّ كنت طفلًا مع بعض أطفال العائلة نستمع للقصَّة بولع، من رجلٍ هَرِمٍ من أهلنا، كان يحكي بمهْلٍ وتشويق، كان حكاءً بارعًا، وظَريفًا صاحبَ نكْتةٍ ونوادر، وذكيًّا سريع البديهة، وكانَ جيرانُنا من الرِّيف أسفل منَّا يسمّونه: (**طير**

الوادي)، لطيبته وألْفه ونقائه. كان يحكي باهتمام بالغ، ويشيرُ لمواقع الأحداث بكفٍّ مرتعشة، ويمسح كلّ حينٍ بالمنديل عنْ فمه. وبعد أنْ أنهَى هذا الرَّجل ذو الثَّوب الأبيض النَّظيفً تلك الحكاية الشَّائقة فوق الكثيب، أشار إلينا بالنُّزول، وقام على مهْلٍ، ونهَضنا مشدودين للتَّفاصيل المثيرة نراجع بعضها، ونستثني الملفِتَ من الشُّخوص والحوادث، وقد نال سعد يومَها من الأطفال حولي من الاستحسان أكثر ممَّا كنت أتوقَّع!

ونزَل الشَّيخ معتمدًا عصاه رافعًا ذيلَ ثوبه إلى مقبضها، ومعتمدًا باليد الأخرَى رأس أحد أبناء العمِّ، والذي كان له مَزِيَّةٌ غريبة: يحفظ رواية الشَّيخ للقصَّة بالكلمة، والذي اعتاد على مهمَّة حفظ توازُن الشَّيخ، ويؤديها باقتدارٍ وثقةٍ كاملين؛ وكنتُ أحسده هذا الشَّرَف، وأخاف أن أناله وأتحمَّل مسئوليَّة عدمٍ وقوع الشَّيخ. ونزَلتُ مع النَّازلين، أرقُب هذه النِّقاط الزَّرقاء والبُنيَّة التي وشَمت بها الشَّيخوخة على ساقيه، وقدميه الحذرتين وهما تغرِسان في رمال الكثيب في أثناء النُّزول.

أخذنا إلى بستانه، وأشارَ لنا إلى مَقطفٍ مليءٍ بثمار الجوافة. هجمَ عليه الأطفال بضراوةٍ، ومنهم مسندُ الشَّيخ، ولا أصغوا لنصيحتِه بغسل الجوافة قبلَ أكلها، أو بالعدل في قسْمتها. وأكلوا حتّى بشِموا، وثقُلَتْ بطونهم والجيوب، وكنتُ أتهيَّبه للدَّرجة التي جعلتني لا أشارك في المعمعة. كنتُ ـحقيقةًـ متحسِّرًا على ما فاتني، وأتمنَّى ذهابَه ناحية الشَّادوف أو إلى تحت عريشة العنب؛ لألحق بنصيبي. وظنَّ الشَّيخ أنّ القصَّة قد أثَّرتْ في طباعي، وفطَمتني عن التَّنافس العنيف وغرائز السِّباع، فابتسمَ لي وأنا أنظرُ لهم بتعجُّب مُدَّعي حكمة ماطًّا شفتي، بينما

كانت مَعِدتي قد فرَزتْ من عُصارتها ما فرَزتْ جوعًا واشتياقًا. ثمّ ناداني وأعطاني صَحْفةً لي وحدي.

وبعد أنْ فرَغوا من شأنهم وفرَغتُ، خرجنا معه من البستانِ حيث سيذهب هو إلى بيته. مررنا على السَّاحة، كان يتوكَّأ على عصاه بيدٍ، ويتوكَّأ باليد الأخرَى على رأسي أنا هذه المرَّة!، نعم؛ اختارني بعدَ هذا الاستلطاف المتبادل في بستانه. وعندما كنّا جميعًا في السَّاحة وأنا بجانبه، وتحت راحة يده، إذ به يقول لي إنّه سمع مِن والدي أنّني أتمنَّى لو أكون كاتبًا، فأكّدتُ ذلك بحياءٍ وابتسامةٍ، فازداد إعجاب الرَّجل بي، وقال:

ـ إذًا، اكتبها أنت.. اكتب قصَّتنا.

ـ إن شاء الله.

ثمَّ نظر ـ ونحن في سيرنا البطيء ـ قرابة أرض السَّاحة شاردًا متعجِّبًا وقال:

ـ واه يا أمَّاه.. واه يا أمَّاه.. ظهري انحنَى وأنتِ بعدُ شابَّةٌ!

وتعجَّبتُ ممّا قال، واضطربتُ، إذْ بدأتْ يدُه ترتعش أكثرَ من ارتعاشها المعتاد فتخوَّفتُ من سقوطه. ثمّ مشَى خطواتٍ قليلةً متثاقلةً جدًّا، وأنا ألومُ نفسي على أن جعلتُه يستند عليَّ. ثمّ وقف متخشِّعًا، وأخذَ يصوِّب نظراته على مدار قوسٍ من السَّاحة، مشيرًا بذقنه لأعلَى في كلِّ اتِّجاهٍ. وثقُلتْ يده على رأسي، فاضطربَ قلبي الصَّغير، وكدتُّ أنادي على ابنِ عمِّي المسند الأساس؛ ليتسلَّم الرَّجل عني.

قلت له بنبرةٍ مرعوبة: سلامتكَ، فيم تحدِّق؟

فقال: أطياف صُحْبةٍ نهَضوا تباعًا!.. صبيانٌ وصبايا من القرن التَّاسع عشر.

وأخذَ يتمتم بكلماتٍ لم أتبيَّنها، ثمّ تهاوَى الشَّيخ زايد ميتًا أمامَ ناظري، في ذات المكان الذي وقف فيه منذ سبعة وتسعين عامًا في يومنا المشهود.

قد مرَّ عليَّ هنا بين الأهل في هذه الزِّيارة أكثرُ من أسبوعين، وقد ارتاحتْ أذناي تمامًا من ضجيج المدينة، وتلبَّستني روحُ الوادي، وغشيتني وداعة، ولهَجتُ باللَّهجة، وذُبتُ في الجماعة.

وقد انتهيتُ صبيحةَ اليوم الجمعة من كتابة قصَّتنا دونَ أن أطلع أحدًا، بعد اعتصار الذَّاكرة ومراجعة نقاطٍ مع بعض الأهل، بل لديّ تصويبٌ لشيءٍ يسيرٍ من القصَّة التي حكاها الأوائل، فقد سمعتُ في هذه الزيارة حكايةً من تراث الريف القريب في أثناء جلوسي في مجالسهم، فيها كثيرٌ من المبالغات والخرافة، ولكنْ فيها عجوزٌ حكيمٌ ماكرٌ وعدَ أهله بأنه سيخدع أحدَ الجبابرة ويجعله يقوم بنفسه بدفْن قتيله الذي أغرقه، وفيها أنّ هذا الجبَّار خُدِع، بل ودفن قتيلَه ناحية بلده، وظنّي أنّ تلك القصة مستمدَّة من الواقعة التي نعرفها جميعًا عن انتشال سعد لجثّة بهلول ودفنها، وتحوَّرت وتغيَّرت بمرور السّنين؛ إذًا ـ وعلى خلاف ما ظنّ سعد ـ فإنّ السّكان القدامى للقرية كانوا على علم بقتله لبهلول، بما فيهم بالطّبع الشابَّان اللذان دفنَا الجثَّة وتظاهرَا بتصديقِ كذبِه عن التحصينات وعلمه الباطني، مسكينٌ جدُّنا، لاحظ العصفورَ الذي على الصّدغ، ولم يلحظ السبعة آلاف عام.

لقد أتممتُ كتابةَ القصَّة، وسررتُ حقًّا بأني وفَّيتُ وعْدي للشيخ. ثمّ إني ذهبت إلى صلاة الجمعة، وقبل أنْ أقيل، أذَّن مؤذنٌ في الشَّباب إنّ اليوم مباراة العودة. ودعوني لأنْ أذهب مشجِّعًا، بعد أنْ تجاوزتني سنون اللَّعب!. وارتديتُ القميصَ البرازيليَّ الأصفر سعيدًا، وذابت معالمي

الخاصَّة في البشرات الفَخَّاريَّة حولي. ورغم أنّ بالنَّجع أنواعًا مختلفةً من العربات، إلَّا أنّنا نفضِّل أن نحيي تراث القُدامَى في هذا الدَّرب. سرنا بالجمال والحُمُر آمنين مطمئنِّين، في مسيرةٍ مؤثِّرةٍ كأنها في التَّاريخ وللتَّاريخ، لنلاعب الفريق الألمانيَّ لمحَلَّة هارون، محَلَّة هارون وإنْ عجبوا.

فهرس


دار البشير
للثقافة والعلوم